دكتور/ عبد الغفار عزيز

أصول الخطابة العربية
بين
مراحل التاريخ و فن التطبيق

دار الحقيقة للإعلام الدولى
١٤١٢ هـ - ١٩٩٢م

«بسم الله الرحمن الرحيم»

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة وتمهيد :

دعا الإسلام جميع أتباعه إلى حث الناس على فعل الخير وتجنب الشر والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر . وجعل ذلك فرضا من الفروض على كل مسلم ومسلمة ، كل على قدر طاقته واستطاعته.

ولما كانت هذه العملية تحتاج إلى محاولات قولية وفعلية ، كما تحتاج إلى فنية وحكمة واقتدار لإقناع الناس بما يدعون إليه وإمالتهم إلي الداعية حين يدعوهم فيأمرهم وينهاهم ، ويشرح لهم دعوته بالأدلة والبراهين ، أو يستثير عقولهم وعواطفهم ، ويؤكد لهم بالعمل أحيانا والتجربة أحيانا أخرى، فيريهم التجارب العملية أو يلفت نظرهم إلى السنن الكونية أو غير ذلك من الأساليب التى لابد للدعاة أن يعرفوها ويحتاج إليها المدعوون حسب ظروفهم الاجتماعية أو مستوياتهم الفكرية وهكذا.

ولما كان هذا الأمر يحتاج إلى معرفة كثير من القواعد والأصول التى تسهّل على الدعاة الوصول إلى أغراضهم بسرعة وتسهل عليهم عملية القبول والاستجابة..

لذا كان من المحتم فى هذا العصر بالذات - عصر انتشار العلوم وتعدد الأفكار والثقافات - ضرورة دراسة المناهج والأساليب والوسائل التى توصل إلى الهدف بسهولة ويسر والتى تتناسب مع هذا العصر .

ومن هنا ظهرت فكرة إنشاء كليات متخصصة لتخريج الدعاة ، وبدأت تظهر مايسمى (علوم الدعوة) والتى يتعلق موضوعها بالنشر والإعلام، أى مايسمى فى الإسلام باسم (البلاغ) وعلم الخطابة من أهم العلوم الدعوية.

بل إن هذا العلم قد أصبح فى هذا العصر علما مستقلا عن العلوم الأخرى له قواعده وموضوعه وخصائصه وأهدافه ، بالإضافة إلى أنه يواكب سائر العلوم الإسلامية والإنسانية الأخرى، فيفيدها ويستفيد منها ويشاركها فى إفادة الإسلام برسم طريق منهجى يكفل له الذيوع والانتشار .

وقد أصبح للدعوة التى يُعنى بها النشر والبلاغ تعريف يتناسب مع المقصود منها ، فعرفها بعضهم (بأنها العلم الذى تعرف به كافة المحاولات الفنية المتعددة الرامية إلى تبليغ الإسلام للناس بما حوى من عقيدة وشريعة وأخلاق) (١)

وهذا العلم على الرغم من وجود القواعد النظرية له، ومعرفة الهدف من دراسة هذه القواعد، وهى تعليم الدعاة كافة المحاولات المركزة الهادفة إلى تبليغ الإسلام، والتى يعرف الدارس لها المناهج والوسائل والأساليب وأنواعها وأقسامها ، ومايتعلق بكل نوع وقسم، سواء كانت من المناهج والأساليب القديمة أو كانت جديدة عرفت أخيرا وفرضتها ظروف العصر مثل : الكتابة، والصحافة، والكاريكاتير، وكل وسائل الإعلام الحديثة . إلا أن مجرد معرفة هذه القواعد والأصول معرفة نظرية دون تطبيقها عمليا لايكفى، وقد لايؤدى مجرد هذه المعرفة النظرية إلى الهدف المقصود والنتائج المرجوة .

ومن هنا كان لابد من تدريب الدعاة عليها، وتعليمهم أثناء التدريب على استعمال الأساليب الصحيحة عند استعمالهم لهذه الوسائل، مع تدريبهم أيضا على استعمال جميع أنواع المناهج، لأن التطبيق العملى على هذه المناهج والأساليب ضرورة من الضرورات، والخطابة من أهم أساليب الدعوة .

ومع احترامنا لأساتذة كبار، وعلماء أفاضل، تصدروا للدعوة إلى الله واستعملوا الوسائل المتعددة للوصول إلى ما ينشدونه، ومع إيماننا بإخلاص هؤلاء الأفاضل، واعترافنا بعلمهم وفضلهم، إلا أننا نود أن ننبه فقط إلى ما

---

(١) راجع كتاب الدعوة الإسلامية فى عصر النبوة للدكتور أحمد غلوش صـ ١٥ .

نرى فيه مصلحة الإسلام والمسلمين، ومصلحة الدعوة الإسلامية التى هى فى أشد الحاجة الآن إلى تكتل الجهود، واستعمال كل الوسائل الممكنة والمتاحة لإقناع الناس والتأثير فيهم، بما يتناسب مع هذا العصر الذى يعيشونه.

فالمعروف أن كثيراً من هؤلاء العلماء الأفاضل، لايزالون يستعملون نفس الطريقة التى كان يستعملها مَن قَبلهم وتتناسب مع عصورهم- كذلك أرى بعضهم لايغير من لهجته، ولاطريقة إلقائه ، مع كل المستويات، وفى كل المناسبات ، وسواء كان يخاطب الناس فى حديث صباح إذاعى. أو حديث سهرة، أو يلقى محاضرة، بل حتى حين يرد على استفسار لأحد السائلين، ولايراعى ما يفرضه علم الخطابة، من ضرورة مراعاة المتحدث لاعتدال صوته، وموافقته للأحوال والظروف، وضرورة تفننه فى هذا الصوت، بما يجعله مطابقاً للمعانى التى يصورها بالألفاظ، ويمثلها بالصوت ، وضرورة اهتمامه بطبقة الصوت واللفظ، وتضافر الصوت واللفظ، مع هيئة الوجه وحركات الجسم، لبيان ما فى النفس وتصوير ما فى الخاطر، ولايصح أبداً أن يسير على نسق واحد فى الإلقاء والتعبير، وإنما لابد أن يعطى الاستفهام، أو التفخيم، أو التهديد، أو غير ذلك، حقه فى النطق والتصوير، حتى يؤثر فى السامع بالرغبة، أو الرهبة، أو الندم، أو الفرح، تبعاً لما يصير عليه المعنى الذى يتحدث فيه، ولقد كان النبى (ﷺ) يحب أن يسمع القرآن من ابن مسعود رضى الله عنه، ويطلب منه أن يقرأه أمامه، حيث كان يجد فى سماعه عنه راحة لايجدها عند الآخرين، كما أن بعض الناس يستمتعون بسماع غيرهم أكثر مما يستمتعون من قراءتهم لصحيفة، أو يستمعون إلى ما يسرده عليهم غيرهم سرداً متتابعاً متشابكا، وذلك حين يحسن المتحدث التعبير، ويراعى الأحوال والظروف.

وكم من خطب كثيرة تضيع، وتضيع ثمرتها، حين لاتؤدى بطريقة صحيحة جيدة، وذلك كأن يحدّث الخطيب الناس بلهجة فاترة، أو حماسة دائمة، أو بأسلوب واحد، لايتغير مع حاجة الموضوع للتغيير والتلوين، فخلوّ الكلام من

تلوين الصوت، والتفنن فى الإلقاء، يؤدى إلى سآمة المخاطبين، بسبب الرتابة المملة، والأسلوب الواحد الذى لايتغير، ومن هنا كان اهتمام أمم الأرض جميعاً بعلم الخطابة ومعاهد الخطابة المتخصصة، منذ آلاف السنين ؛ فقد اهتم به قدماء المصريين، واليونان، والفرس، وغيرهم، وفتحوا المعاهد المتخصصة لتخريج الخطباء المجيدين، ومن يحسنون فن الإلقاء والإقناع.

وقد عُرف من قديم، أن الخطابة علم له أصول وقواعد وقوانين، مثل أى علم من العلوم ، وقد قصد بدراسة هذه القواعد، معرفة طرق التأثير، ووسائل الإقناع ، وما يجب أن يكون عليه الخطيب ، من صفات، وآداب، وإلمام بميول السامعين، مع معرفة ماينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة، وترتيب أجزائها، لإمكان التأثير بها فى المستمعين، وإقناعهم بما يقال.

(وقد اعتبر علماء هذا الفن، المران والتدريب على الخطابة طريقاً أساسياً من طرق تحصيل الخطابة، وضرورةً لابد منها للوصول إلى الغاية من الخطابة، لأن الخطابة ملكة نفسية لاتوجد دفعة واحدة، بل لابد من الممارسة والمران حتى تنمو مواهب الخطيب- كما أنه بتدرب الخطيب على مواجهة الجمهور، يمكن التغلب على خجله، ومعالجة بعض عيوب النطق وطريقة الإلقاء، وهو المرض المتفشى وللأسف عند كثير من خطباء هذا العصر- حيث لم تعالج عيوب النطق وطريقة الإلقاء عند الكثيرين منهم- ولم يُدربّوا على الإلقاء الصحيح والسليم.

وكما قيل :

اللسان عضو إن مرنته مُرَن كاليد تخشنها بالممارسة وكالبدن تقويه برفع الحجر، والرِّجل إذا عودتها المشى مشت)[1].

ولعل بعض الناس يتصور أننا نقصد بالخطابة هنا إلقاء الكلام بصورة حماسية وصوت مرتفع، أو نقصد به ما اصطلح عليه الناس فى عصرنا، وهو

(١) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٥.

فى نظرهم مجرد صوت مرتفع وانفعال شديد، كما يحدث فى خطب الجمعة والخطب السياسية وغير ذلك، ولكن الخطابة كعلم تشمل جميع فنون القول والكلام، كالمحاضرات، والندوات، والمناظرات، والدروس بجميع أنواعها، ويهتم بتعلم أصول وقواعد كل هذه الأمور لمعرفة طرق التأثير ووسائل الإقناع وخاصة إذا عرفنا أن الخطابة كما عرفها العلماء هى:-

(فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته).

والغريب أن الغرب يهتم إهتماماً كبيراً بفن الإلقاء، ويفتتح المعاهد المتخصصة لهذا الغرض، ويستعينون بمعامل صوتية وأفلام تجريبية، وغير ذلك من الوسائل المؤدية إلى إجادة الإلقاء وفن التعبير، بل إن دول الغرب لا تختار سفراءها إلا من بين المجيدين لفن الحديث والإلقاء، الدارسين لأصول هذا العلم.

لقد فشلت الخطابة عندنا فشلا ذريعاً، حين تهاونّا فيها، ومارسناها دون اهتمام بأصولها وقواعدها، وابتعدنا عن الوسائل العلمية الصحيحة الموصلة إليها، ثم نسينا وللأسف ما للخطابة الدينية أو الحديث الدينى من أثر على النفوس فى كل ضروب الإصلاح، وأن ذلك مرتبط بالعاطفة الدينية، مما كان يحتم الاهتمام بهذا العلم، ودراسته دراسة علمية تتناسب مع عصرنا ووسائله العلمية المتاحة، وذلك بتخريج المتحدثين المتمرنين الذين يخاطبون الأمّى على قدر طاقته، والمثقفين بما يتناسب معهم.

نحن نريد خطباء ومتحدثين يقرّبون البعيد بأسلوبهم، ويبذلون الصعب أمام من يرى صعباً فى طريقه، ويوجزون لمن لايجد الوقت من أصحاب الأعمال، ويركزون المعانى الكثيرة فى كلمات قليلة، ويقدمونها لمن تزحمه مشاغل الحياة.

يجب على الدول الإسلامية أن تهتم اهتماماً كبيراً بتدريس هذا العلم، خاصة معاهد إعداد الدعاة، فالخطابة هى الأسلوب الأساسى من أساليب

الدعوة إلى الله- وإذا كان هذا العلم كما قلنا: علم له قواعده وأصوله، فإننا نحب أن لايكون اهتمام المسئولين به مجرد التدريس لأصول وقواعد هذا العلم تدريساً نظرياً، وإنما لابد من التركيز على التدريب العملي والمران الجاد، وهو أحد الأركان الأربعة التى اعتبرها علماء هذا العلم أساساً لتحصيل الخطابة، وإذا كان هؤلاء العلماء قد أضافوا إلى المران والتدريب، وجود الاستعداد الغريزى ومعرفة الأصول والقوانين لهذا العلم، والاكثار من مطالعة أساليب البلغاء ودراستها، فلعلكم معى فى أنه بدون التدريب والمران لاتفيد موهبة، ولاتنفع معرفة أصول ولاقواعد،كما لاتضيف دراسة أساليب البلغاء أو الفصحاء شيئاً على الإطلاق.

كذلك فالتدريب والمران لايكفى فيه عملية الممارسة الشخصية للإلقاء، وإنما يحتاج هذا إلى المراقبة والإشراف، لتقويم وإصلاح الأخطاء والعيوب، أولا بأول- كذلك تدوين الملاحظات ومحاولة تلافيها عند كل ممارسة لهذا العمل- ومن هنا يتحتم وجود المتخصص، الدارس لهذا الفن، العارف بأصول هذا العلم للإشراف والتعليم والتدريب- لأن التدريب يحتاج إلى مشافهة، ويعتمد على السماع أكثر مما يعتمد على الدرس المجرد، فمع معرفة الخطيب بضرورة اشتمال خطبة الجمعة مثلا على الآيات القرآنية، إلا أنه لابد أن يعرف ويتمرن على طريقة إلقاء هذه الآيات القرآنية فوق المنبر، ويتمرن على طريقة إلقائها فى الصلاة، ولابد أن يعرف بأن إلقاءها فوق المنبر، غير إلقائها فى الصلاة، كما أن إلقاء الآية فوق المنبر يختلف أيضاً باختلاف نوعية هذه الآية فآيات الوعد غير آيات الوعيد والترهيب غير الترغيب وهكذا.

وهنا يأتى دور المعلم لتوجيه الدارس للطريقة الصحيحة وكيفيتها، عن طريق المشافهة وهى الطريقة المتبعة فى كثير من البلاد لتعليم القرآن الكريم وكذا تعليم اللغات الأجنبية.

والملاحظ فى كثير من البلاد الإسلامية، أن معظم خطباء المساجد،

لايجيدون إلقاء خطبهم، مع أن موضوعاتها أحيانا تكون على مستوى جيد، ولكنها لاتؤتى ثمارها، لافتقارها إلى طريق التأثير ووسائل الإقناع، وهم حقيقة معذورون، لأن معظمهم لم يتدرب على الإلقاء الصحيح ولم يوجه إليه، مع عدم دراستهم لأصول هذا العلم الذى يجب أن يُهتم به اهتماماً كبيراً.

ولما كان علم الخطابة من العلوم الهامة التى تفيد الإنسان فى كافة المجالات، كان واجب العلماء أن يتعهدوه بالدرس والبحث والتجديد، حتى ينال نصيبه فى التطور العلمى، ولا يقف جامداً عند مرحلة من مراحل التاريخ.

ولا شك أن الدعاة إلى الله هم أولى الناس بدراسة الخطابة، وتفهم قواعدها وممارستها عملياً، ولذا: فإنى أقدم هذا الكتاب لهم قبل غيرهم، وقد راعيت فيه عدم الدخول فى كثير من التفاصيل التى اهتم بها واضعوا العلم قبل ذلك، والتى لاتعنيهم كثيراً، وركزت على ما يحتاجه الخطيب الداعية وقدمته بأسلوب سهل مبسط ، حتى يستفيد منه أيضاً كل من يرغب فى التزود بالموضوعات التى تعينه على الخطابة ، وحتى يستطيع أن يفرق بين كل فن من فنون القول كالمحاضرة ، والندوة ، والدرس، والمناظرة ، وغير ذلك.

هذا وقد تضمن الكتاب الموضوعات التالية :-

١- بعد ذكر المقدمة والتمهيد، وذكر التعريفات، وأسباب ازدهار الخطابة. بدأنا الحديث عن تاريخ الخطابة العربية وواقعها، فى الجاهلية، وصدر الإسلام، وعن هدى النبى ﴿ﷺ﴾ فى خطبه.

٢- ثم تحدثنا عن تاريخ الخطابة فى عهدى بنى أمية وبنى العباس.

٣- ثم عن الخطابة وواقعها فى العصر الحديث، وعن رأى المسئولين فى مصر فى أسباب قصور الدعاة، وأسباب تخلف الخطابة فى هذا العصر.

٤- ثم ختمنا الحديث عن تاريخ الخطابة بموضوع رسالة المسجد فى العصر الحديث.

٥- بعد ذلك بدأنا الحديث عن أركان علم الخطابة ، وطرق تحصيلها.

٦- ثم بدأنا بالركن الأول من أركان الخطابة، وهو الخطبة، وتحدثنا فى هذا الموضوع عن إعداد الخطبة ، ومراحل هذا الإعداد، وعن طرق تحضير الخطبة ومحتوياتها، وأقسام الخطبة.

٧- ثم تحدثنا عن أقسام الخطابة وخصائصها، والفرق بينها وبين أنواع القول الأخرى، كالمحاضرة، والندوة، والمناظرة، والدرس ، .. الخ.

٨- ثم تحدثنا عن خطبة الجمعة والحكمة من فرضيتها، وعن أركان خطبة الجمعة، وسننها ثم عن أهميتها، وآداب صلاة الجمعة.

٩- ثم تحدثنا عن الركن الثانى من أركان الخطابة وهو الخطيب، فذكرنا أهمية اختيار الخطيب، وصفات الخطيب الجيد (الخلقية والبيانية والصفات العامة) وعن الشروط التى يجب أن تتوافر فيه، وما الذى يجب أن يصنعه الخطيب ليجيد الخطابة ، وكيف ينجح الخطيب الدينى فى إقناع الجمهور، وبيّنا كيف أن الدعوة علم وفن وتخطيط، وأن على الخطيب أن يراعى أسلوب الخطاب وتنويع الأساليب، واختيار المناسب لكل فئة وجماعة، وضرورة تناسب الخطاب مع المخاطبين، ومعاملة كل صنف من أصناف الناس بالأسلوب الذى يتناسب مع مستواهم الفكرى والعلمى، وضرورة مراعاة القواعد والضوابط الدعوية، وعدم التشدد فى الأمور الخلافية.

١٠- ثم بيّنا كيف يتعامل الدعاة مع القضايا المختلف فيها، وكيفية معالجة مشاكل المجتمع.

١١- ثم أنهينا الكتاب بالحديث عن أهم المحذورات التى يجب أن يبتعد عنها الخطيب، وذكرنا أهم الكتب التى يمكن للداعية أن يعتمد عليها،

بالنسبة لكتب التفسير، والحديث، والسيرة، والفقه، ... الخ

هذا وأسأل الله تعالى أن يجعل عملى هذا خالصاً لوجه الكريم ، وأن ينفع به الإسلام والمسلمين.

دكتور/ عبد الغفار عزيز

مدينة نصر - صباح الأربعاء -٢٧ نوفمبر سنة ١٩٩١،

الموافق - ٢٠ جمادى الأولى سنة ١٤١٢

أولاً : تعريف الخطابة :

الخطابة فى اللغة مصدر كالخطابة بمعنى توجيه الكلام نحو الغير للإفهام ، وفى اصطلاح الحكماء [1] مجموع قوانين يقتدر بها على الإقناع الممكن فى أى موضوع

والإقناع هنا معناه: حمل السامع على التسليم بصحة القول وصواب الفعل أو الترك، ولذلك عرفها ابن رشد بأنها (قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة) [2] .

وأما أرسطو : فقد عرفها بأنها (هى القدرة على النظر فى كل ما يوصل إلى الإقناع فى أى مسألة من المسائل) [3] .

وإن كان المحدثون قد عرفوها بتعاريف أخرى، فقد عرفها الدكتور أحمد الحوفى بأنها (فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته) [4] .

وعرفها الشيخ ابراهيم الصباغ بأنها (خطاب يلقى من فرد على جماعة بقصد التأثير فى نفوسهم واقناعهم بأمر من الأمور) [5] .

وبصرف النظر عما يؤخذ على هذه التعاريف من قصور، فإن الفلاسفة ومن قديم، اعتبروا الخطابة علماً له أصول وقوانين، تمكن الدارس لها من التأثير بالكلام، وتعرّفه وسائل الاقناع بالخطاب، فى أى غرض من الأغراض الكلامية، وأن هذا العلم (علم الخطابة) يعنى بدراسة طرق التأثير ووسائل

---

(١) راجع مذكرة الخطابة للشيخ على محفوظ صفحة ٤

(٢) تلخيص الخطابة لابن رشد تحقيق عبد الرحمن بدوى ص ١٥.

(٣) الخطابة لأرسطو جزء أول ص ٩٠.

(٤) فن الخطابة للدكتور أحمد الحوفى ص ٩.

(٥) البلاغة والأدب ج٢ ص ٩١.

الإقناع،وما يلزم أن يكون عليه الخطيب، من صفات وآداب، والمام بميول السامعين، وما ينبغى أن تكون عليه أساليب الخطبة وأجزائها، ولذلك كانت غاية الخطابة عند الحكماء، الحصول على قوة التمكن من الإقناع .

ففضلها عظيم، وشرفها كبير إذ فضل العلوم وشرفها بشرف الغاية ، والغاية من الخطابة (إرشاد الناس إلى الحقائق وحملهم على ما ينفعهم فى العاجل والآجل) .

ولذلك جعلوا الخطابة وسيلة من وسائل السيادة والزعامة، وكانوا يعدّونها شرطاً للإمارة، فهى تكمل الإنسان وترفعه إلى ذرى المجد والشرف.

وحسب الخطابة شرفاً، أنها وظيفة: قادة الأمم والشعوب من الأنبياء والمرسلين، ومن على شاكلتهم من العلماء العاملين، وعظماء الملوك وكبار الساسة .

والحقيقة: أنه بالخطابة نستطيع أن نمتلك القلوب،ونستميل النفوس،ونحرك العواطف .

وبالخطابة يمكن إدراك كل غاية شريفة، حيث ترشد قوانينها إلى مواضع الضعف، وأماكن السهو والذلل، فيقوّى بها الراغب فيها على دحض حجة المناظر، وتزييف سفسطة المكابر ، فهى التى تثير الحماس فى النفوس الفاترة وتهدىء النفوس الثائرة، وتقيم العدل،وترد الظلم، وهى التى تفض النزاع وتقطع الخصومات، وتهدى الضال إلى سواء السبيل .

فالخطيب البارع يقف بين ذوى النزعات المختلفة والآراء المتضاربة، فلا يزال يبين النافع لهم من الضار، والصواب من الخطأ، حتى يجعل الجميع فى قبضة يده .

والخطيب البارع يقوم بين طائفتين استشرت بينهما نار العداوة والبغضاء، فيذكرهم بعواقب التقاطع، ويحذّرهم من نتائجه السيئة، فإذا القلوب مؤتلفة وإذا النفوس متآخية .

ولذلك يرى بعض العلماء، أن أنسب التعاريف لعلم الخطابة أنها :

(علم يقتدر بتطبيق قواعده على مشافهة المستمعين بفنون القول المختلفة، لمحاولة التأثير فى نفوسهم وحملهم على مايراد منهم بترغيبهم وإقناعهم [١].

تاريخ ظهور الخطابة :

الخطابة مخلوق مع الإنسان، وكان البحث عنها قبل الجاهلية والإسلام خاصة وأن تأثير البلاغة فى النفوس لا يخص أمة بعينها.ولا جيلا بعينه .

ولقد قال (ابن سينا): إن صناعة الخطابة عظيمة النفع جداً، لأن الأحكام الصادقة فيما هو عدل وحسن، أفضل نفساً وأعظم من أضدادها فائدة. والإنسان لايعيش وحده ، فكان لامحالة محتاجاً إلى التعامل والتجاور، وهما محتاجان إلى أحكام صادقة،وهذه الأحكام تحتاج إلى أن تكون مقررة فى النفوس،مُمكّنة فى القلوب،والبرهان قليل الجدوى فى حمل الجمهور على الحق، فالخطابة هى المعنية بذلك [٢] .

ولما كان الله تعالى قد فطر الناس على قوة البيان وملكة التأثير فاستطاعوا بها حمل غيرهم على ما أرادوا منهم، ورأى غيرهم ما ناله هؤلاء بسبب هذه الملكة، وأنهم لم ينالوا ما ناله أصحابها، حاولوا أن يبحثوا فى الأسباب، فنظروا، واختبروا، ودققوا النظر والاختبار، ودونوا نتيجة أبحاثهم ووسعوها ، حتى جاء أرسطو فى القرن الرابع قبل الميلاد، فجمع ما عرفه من شتات هذا الفن، فى كتاب ضمنه قواعد هذه الصناعة سماه (الخطابة) .

وقد ترجم هذا الكتاب إلى العربية (بشر بن متى).ولخصه (ابن رشد).وأخذ عنه فلاسفة العرب، كابن سينا والفارابى [٣].

---

(١) قواعد الخطابة وفقه العيدين أحمد غلوش صـ ٩ .

(٢) نقلا عن مذكرة الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٦ .

(٣) تلخيص الخطابة لابن رشد ص ١٣ .

ولذلك عَدَّه كثير من هؤلاء الفلاسفة جزءاً مكملاً لعلم المنطق، وجعل ابن سينا الخطابة قسما منه ، والسبب أنهم رأوا أن أرسطو فى كتاب الخطابة تكلم عن الحد والرسم والدليل، وكيف يتألف القياس الخطابي، كما تكلم على التصديق الذى يكفى فى الخطابة .

وقد استمر أمر الفلاسفة على هذا الحال، إلى أن قصّر المتأخرون منهم النظر فى المنطق على القياس وأشكاله ، وقد عُرِف أن أول من دون قواعد هذا العلم ثلاثة من فلاسفة اليونان فى أواخر القرن الخامس، وأوائل الرابع قبل الميلاد (بروديكوس - وبرتاغوراس) معاصره ثم (غورجياس) سنة ٣٨٠ ق.م. وفى أواخر القرن الرابع ٣٢٢ ق . م . ظهر أرسطو زعيم فلاسفة اليونان، فلم يغادر صغيرة ولا كبيرة من أصول هذا الفن إلا دونه ونشره فى كتابه الخطابة، الذى أشرنا إليه [١] .

علاقة الخطابة بغيرها من العلوم :

الحقيقة: أن فن الخطابة ليس له صلة وثيقة بفن المنطق وحده، بل إن له صلة بسائر العلوم الإنسانية كلها ، يستمد منها ويعتمد عليها ، فعلم المنطق خادمه الأمين، وبعض قوانين الخطابة يعتمد على مبادىء المنطق ، ولأن الهدف من الخطابة الإقناع، واستمالة القلوب ، ومحاولة التأثير فى النفوس، وحمل المستمعين على ما يراد منهم بترغيبهم وإقناعهم ، فذلك لايتم، إلا إذا أحاطت الخطابة بالأدلة وأنواعها ، ولذلك اعتبرها المناطقة (قياساً مؤلفاً من مقدمات مقبولة، لصدورها ممن يعتقد فيه، لاختصاصه بمزيد عقل أو تدين) كقوله العمل الصالح يوجب الفوز، وكل ما كان كذلك لاينبغى إهماله [٢] .

كما أن الخطابة لا تستغنى أبداً عن علم النفس وعلم الاجتماع، إذ أنه لابد

---

(١) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٧.

(٢) المرجع السابق ص ٤ .

من مراعاة الاعتبارات النفسية للمستمعين ، فما دامت الخطابة تهدف إلى التأثير فى جماهير الناس، (وهى أساس التوعية الهادفة) لحملهم على الإقناع عن عمل، فيجب على القائم بها لكى يحقق هدفه، أن يعرف كيف يصل إلى قلوب الناس ويؤثر فيهم، ويحملهم على الانقياد له، ولايستطيع أن يصل إلى شىء من ذلك بغير أن يدرس فنّ نفسية الجمهور الذى يتعامل معه ويعرف خصائصه، واتجاهاته، وعناصر تكوينه، والعوامل التى تؤثر فيه، والدوافع التى تحركه .

ومن هنا كانت علاقة الخطابة بعلم النفس وثيقة أيضاً :

والخطبة مختلفة باختلاف المكان والمجال، فقد تكون موجهة إلى جمهور مسجد، أو جمهور حفل عام، وقد تكون إلى أهل مدينة، أو قرية، أو طائفة بعينها من الناس، كما يمكن أن يكون هدفها عدداً محدوداً من الأفراد، وفى كل حالة من هذه الحالات، يختلف أسلوب الخطبة باختلاف نطاقها وميدانها، لأن ما يصلح للشخص المنفرد ويؤثر فيه، قد لايكون له أثر يذكر فى الجماهير المحتشدة خاصة وأن سلوك الفرد، مختلف عن سلوك الجماعة والشخص الذى قد يسلك وهو بين الجماهير سلوكا قد يستنكره لو كان منفرداً يتصرف بإرادته وحدها .

ولذا كانت هناك أيضاً صلة وثيقة بين الخطابة وعلم الاجتماع بفروعه المختلفة، فالمجتمع هو المقصود بعملية التغيير، والناس هم عادة هذا المجتمع وهم المقصودون ، والمراد ترغيبهم وإقناعهم والتأثير عليهم .

والخطبة الجيدة : هى التى تهتم بحال الناس، وتتناول ظاهرة من ظواهر المجتمع الفاسدة ، التى تحتاج إلى إصلاح وعلاج .

ويقول الفارابى :

إن الخطيب إذا أراد بلوغ غايته، وحسن سياسة نفسه، فليتوخ طباع الناس

وتلوّن أخلاقهم وتباين أحوالهم [1].

ومن هنا كان من الضرورى أن يحيط الخطيب الناجح بسائر العلوم الإنسانية، ليتمكن بهذه الإحاطة من معالجة أمراض وعلل المجتمع، ويقصد الداء وهو يعرف دواءه، وما أصعب هذا العلاج ، علاج أمراض النفوس والقلوب.

ومن هنا كان لابد للخطيب زيادة على ما قلناه من ضرورة معرفته بعلم الاجتماع ، وعلم النفس، وفن المنطق، ومعرفته بعلم الأخلاق، والتاريخ والحضارة، وغيرها مما تدور حول الإنسان تماماً كما يحيط طبيب الأبدان، بجميع أنواع الأدوية، ومفعول كل واحد منها، ومقدار ما يحتاج إليه المريض من هذا الدواء.

الخطابة أسلوب من أساليب الدعوة الإسلامية :

لأمر ما جعل الله الخطابة شعار كل إمام فى حفل دينى، أو سياسى، كالجمعة، والعيدين، وموسم الحج، وعند أخذ العدّة للجهاد، وفى كل أمر جامع لنشر فضيلة، أو نهى عن رذيلة، أو إعلان نصر ، أو تأكيد وصية عامة أو خاصة ، إلى غير ذلك من الأمور ذوات البال .

والدعوة الإسلامية كان لابد لها من دعاة يدعون الناس إليها، ويردّون على خصومها بالحجة وبالمنطق القويم، وعرضها على المستمعين المضلّلين أو المنحرفين، عرضاً حسناً تستمال به الوجدان، وتقتنع به العقول والقلوب، ولن يكون ذلك إلا إذا وجدت الألسنة القوّالة، القادرة على الإقناع بالحجة والموعظة :(**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة ، وجادلهم بالتى هى أحسن**) [2].

---

(١) علم الخطابة د. أحمد غلوش ص ١٢.   (٢) سورة النحل آية ١٢٥.

وقد كانت الدعوة الإسلامية من أعظم البواعث على انطلاق الألسنة من عقالها، فأثارت الخطابة من مكمنها، وأغرت وفتحت العقول بأحكامها فتفنن خطباء الإسلام فيها، واختلبوا الألباب بسحر بيانها، فوق ما كانت عليه في جاهليتها.

وقد ابتدأ تطور الخطابة الإسلامية بظهور رسول الله ﴿ﷺ﴾ خطيباً غير شاعر، وقد وقف النبي ﴿ﷺ﴾ على الصفا يخطب قومه ويدعوهم إلى الإسلام، ويستثيرهم إلى الخير، ويدخل عليهم مدخلا حسناً فيقول ليلفت أنظارهم: (**أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بالوادى تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقى؟**)

قالوا: نعم. ماجربنا عليك كذباً. قال: (**فإنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد**) فكان ما كان، وقد ورث النبي ﴿ﷺ﴾ الخطابة من بعده الخلفاء الراشدين، بل كان النبي ﴿ﷺ﴾ يرسل إلى الملوك والرؤساء يدعوهم إلى الإسلام مَنْ اشتهروا بالخطابة، وعُرفوا بالفصاحة قوة الإقناع.

وهاهو جعفر بن أبى طالب يقف بين يدى النجاشي خطيباً فى أول بعثة النبي ﴿ﷺ﴾ فيقنعه بقوة منطقه وفصيح كلماته، ويستميله إلى جانب المسلمين حتى فشل رسولا قريش (عمرو بن العاص وعبد الله بن أبى ربيعة) فى التأثير على النجاشى وإقناعه بإعادة المسلمين إلى مكة [1].

وقد أعطى القرآن الكريم والسنة المحمدية للخطابة فى الإسلام قوة، وكان الاقتباس منهما دائماً مدداً لاينفد، ومعيناً لاينضب، وكان أمراء الجيوش والسرايا، يسيطرون على جيوشهم وسراياهم عن طريق الخطابة، حيث كانوا خطباء مصاقع.

وإذا كانت الخطابة فى الجاهلية والصدر الأول للإسلام قد ارتقت وظهر فى

---

(١) سيرة النبى لابن هشام تحقيق المرحوم محمد محيى الدين عبد الحميد ج١ ص ٣٥٨.

هذين العصرين خطباء كثيرون خصوصاً فى الخطابة الأدبية فى الجاهلية، والخطابة الدينية فى الصدر الأول، وسنرى ذلك فى مكان آخر من هذا الكتاب، فإن ذلك كان بسبب ما كان عليه العرب فى الجاهلية، من النعرة والحمية، وشهر الغارات، فى المدافعة عن النفس، والمال والعرض، والمفاخرة بالشعر، والخطب، فى الحسب والنسب وقوة العصبية، وشرف الخصال، من الشجاعة والكرم، والنجدة، وحماية الجار، وإباءة الضيم ، وغير ذلك مما هو مشهور عنهم .

وكانت الخطابة فيهم فطرية ، فهم قد اشتهروا بقوة البيان وذلاقة اللسان حيث دعت إليها حالتهم الاجتماعية التى كانت تعتز بمفاخرها، وتفخر بمجدها وتخلد آثارها، وقد كانت الحروب المستمرة بين قبائل العرب دافعاً لاستعمالها عندهم للتحريض على القتال، كذلك استعملت عند تحمل الديات، وإصلاح ذات البين، والتحكيم فى الخصومات، والمنافرات، والوصايا، والوفادة على الملوك والأمراء [1].

وقد ارتقت الخطابة فى الصدر الأول للإسلام وتهذبت [2]، وذلك لأنها اعتمدت كثيراً على القرآن الكريم والحديث الشريف ، وحيث أخذت اللغة العربية عند ظهور الإسلام صبغة دينية، من القيام بالدعوة، بالنصح والإرشاد وتبيين العقائد الصحيحة، وقواعد الإسلام وأصوله المحكمة .

وإذا كان هذا شأن الخطابة عند العرب فى الجاهلية وفى صدر الإسلام وكانوا مفطورين عليها، ونمّتها ظروف مجتمعهم، فإن الحال يختلف فى هذا العصر، فلم تعد الخطابة فى هذا العصر من الفنون السهلة التى لاتحتاج إلى تدريب ومران، بل لابد عند تحصيلها من معرفة طرق هذا التحصيل وتعلمها، والتمرين عليها ، فلا يوجد الآن خطيب بالسليقة كما كان قديماً، ولا يمكن وجود هذا الخطيب الآن دون إعداد وصقل ومران .

---

(١) سنذكر ذلك بتفصيل إن شاء الله عند الكلام عن تاريخ الخطابة فى الجاهلية صـ.

(٢) راجع ذلك فى المبحث الخاص بتاريخ الخطابة فى صدر الإسلام صـ٦٣.

عوامل ظهور الخطابة ورقيها

يمكن تلخيص عوامل ظهور الخطابة ورقيها فيما يأتى :-

١ - الحرية :-

تزدهر الخطابة فى عصور الحرية الفكرية والقولية - فحين يتحرر الإنسان فى تفكيره، وينطلق إلى إذاعة ما اهتدى إليه. وهو آمن عقاب الحاكم الظالم، أو استبداد السلطة الغاشمة - ويرى الخطباء أن فى إمكانهم أن يتحدثوا فيما يعتنقونه ويؤمنون به، ولايتهيبون من ذلك - تنتشر الخطابة فى الأمة، وبخاصة حين يحتذى بهم غيرهم من الطامحين إلى الشهرة ، أو التواقين إلى الإصلاح.

عند ذلك تتعدد أنواعها، وتعبّر تعبيرا صادقا عن عواطف القائلين - وبخاصة أن الخطباء يتسابقون إلى الإجادة ويتنافسون على الشهرة.

٢ - السخط على النظم القائمة :

وتزدهر الخطابة أيضا ازدهارا كبيرا إذا تفشى فى الأمة سخط على نظام من نظمها الدينية أو السياسية أو الإجتماعية ، وبخاصة إذا ارتبط هذا السخط بطموح إلى مثل أعلى، وحياة أرقى، ورغبة صادقة فى تبديل الحالة وتحقيق الآمال .

وتاريخ الأمم يؤكد ذلك :كانت الخطابة فى اليونان قبل الميلاد بخمسة قرون فى أوج رقيها، وذلك حيث كان هناك نضال سياسى. وقد أطلقت الحرية الفكرية . وتزعم كثير من السياسيين قيادة الناس للنضال ضد مقدونيا، التى انتصرت على أثينا فيما بعد، فتسبب ذلك فى كتم أصوات المعارضين

والخارجين على الحكم الجديد.

ويقول المؤرخون إن صوت (ديموسنتيس) المتوفى عام ٣٢٢ ق.م آخر ما اهتزت له منابر أثينا بعد أن انتصرت مقدونيا عليها.

وكانت الخطابة فى الأمة الرومانية شبيهة بهذا- ففى بداية أمرهم كانوا محكومين بحكم استبدادى دكتاتورى، فكانت خطابتهم خافتة.

ثم لما بدأ الشعب يتحرك لتغيير حاله، ويثور على الطبقة الاورستقراطية، قويت الخطابة ونشطت نشاطا كبيرا.

وفى القرن الثانى المسيحى، اصطبغت الخطابة بالدين ، ونبغ خطباء من رجال الكنيسة الكثيرين، ممن كانوا ينشرون المسيحية وينافحون عنها.

وقد ازدهرت الخطابة عند العرب فى العصر الجاهلى، لأنهم عاشوا طلقاء فى جزيرتهم - لايتحكم فيهم أحد، وحين جاء الإسلام، أصبحت الخطابة من أهم وسائل الدعوة فنهضت وازدهرت - ولما قامت الدولة الأموية ازدهرت الخطابة أكثر بسبب انقسام المسلمين إلى شيع وأحزاب. حيث كان لكل حزب خطباؤه المصاقع- والسبب أنهم كانوا أحرار الفكر، لايُضيّق عليهم ولايدينون إلا لعواطفهم الثائرة ، ولذا أينعت الخطابة وازدهرت.

وفى عصر بنى العباس، نهضت الخطابة أيضا فى المائة سنة الأولى، لوجود نفس الظروف التى كانت فى بنى أمية - ثم بدأت تخفت بعد أن بدأ الأعاجم يتصرفون فى شئون العرب والمسلمين - وظلت هكذا إلى أوائل العصر الحديث.

وفى العصر الحديث ، بدأ الشرق يستفيق من سباته، وبدأت تظهر حركات التحرر والتمرد ضد المستعمر- وبدأ الخطباء من المصلحين الدينيين والسياسيين ، يظهرون ويحرضون الناس ضد المستعمر- وظهرت أسماء كثيرة - كعبد الله النديم، والشيخ محمد عبده، ومصطفى كامل، وسعد زغلول بالإضافة إلى من كانوا فى بلاد الشام وفلسطين، كالقسّام وغيره.

وهكذا بالنسبة لأوربا، حين أرادت بعض شعوبها كفرنسا وانجلترا التحرر مما هم فيه من ذل، وظهر المصلحون يحاربون التحكم والسيطرة والذلة لشعوبهم.

٣- *الأمية وسرعة البديهة* : إذا تفشت الأمية فى شعب، لجأ إلى الخطابة كوسيلة للإقناع والاستمالة، وإذا كان انتشار التعليم وذيوع الصحافة يرقّى الخطابة من حيث موضوعها وفنّها، فإنه يضعفها من حيث شمولها وذيوعها.

وربما كان استعداد العرب الفطرى لإجادة القول، سببا من أسباب رقى الخطابة عندهم. وقد كانت أميتهم سببا فى إرهاف حوافظهم وذواكرهم فكانوا يتدفقون فى الخطابة تدفقا.

٤- *الأحداث السياسية والدينية والاجتماعية* : الأمة التى تريد تغيير سياستها أو تبديل دينها. أو إصلاح نظام اجتماعى من نظمها. يخرج منها خطباء يتصدرون الدعوة ويحتضنونها. فيدعون إلى الجديد ويكشفون مزاياه وينزعون القديم من النفوس، وينفّرون منه حتى يقوضوه- وحين يعارضون. يحدث الصراع الخطابى بين دعاة القديم ودعاة الجديد- ويكون ذلك سببا فى ازدهار الخطابة وانتشارها.

٥- *الحروب والثورات* : فى أيام الحروب وعند قيام الثورات، تُفك عقد الألسنة. وتتكشف عن وجهات نظر شتى، فتنتعش الخطابة وينفسح ميدانها.

وحوادث التاريخ العالمى والعربى شاهدة على ذلك- كمقتل عثمان- والثورة على الحكم الأموى- والثورة الفرنسية، والثورة على العادات

والتقاليد وحكام الجزيرة العربية أيام محمد بن سعود، والشيخ محمد بن عبد الوهاب- والثورة العرابيّة والثورات العربية الأخرى.

٦- *الأحزاب السياسية* :إذا تعددت الأحزاب السياسية فى أمة. كثر خطباؤها، وارتقت خطابتها. فكل حزب يحاول أن يغرى الناس بالانضمام إليه. ويحاول خطباؤه أن يقنعوا الناس بأن مبادئهم وسياستهم أفضل من سياسة ومبادىء الأحزاب الأخرى، ليقف الناس وراءه ويؤيدوه.

وبغير الخطابة ، لاتستطيع الأحزاب أن تثبت وجودها. لافى البرلمان ولافى المحافل أو المناسبات العامة أو الخاصة - كما أن كثيرا من هذه الأماكن يجذب الخطيب إليه، ويخلب لبّه. إن لم يكن من أجل حزبه ومبادئه، فمن أجل نفسه والدعاية لها وحبه للشهرة.

٧- وهناك عوامل أخرى تتسبب فى ازدهار الخطابة ورقيها - كالوعى القومى، والحكم الدستورى النيابى، وكثرة المؤتمرات الدولية، وتعدد المشكلات العالمية.

القسم الأول

تاريخ الخطابة العربية

و

عوامل ازدهارها

أولاً : ـــ الخطابة فى العصر الجاهلى

تمهيد :

قبل أن نتحدث عن الخطابة فى العصر الجاهلى وعن دوافعها وخصائصها. لابد لنا أن نتعرف أولا على الحياة والأوضاع الاجتماعية والسياسية السائدة عند العرب فى هذا العصر، فالخطبة : هى نتاج فكرى لقائلها. وهى فرع من الأدب يتأثر بالبيئة تأثراً جذرياً. أو بالأحرى يصورها تصويراً دقيقاً. ويكاد يعكس واقعها. والخطابة فى العصر الجاهلى كان لابد أن تتأثر بواقع الزمان والمكان،وبمستوى التفكير لأولئكم الذين يستعملونها ، وبمزاج قائليها،وقد عرف عن العربى الجاهلى فى الأعم الأغلب. أنه كان يترصّد لقمته لينتزعها من فم سواه، ولم يكن يعرف الاستقرار والطمأنينة،حتى يمكننا أن نقول: إنه لم يكد يعرف من معالم الحياة إلا الفروسية التى تمجّد قوة الساعد، وتقدّس القدرة على الفتك والبطش. وكان يقضى معظم حياته فى الغارات على الأعداء،وفى توقع غاراتهم- وقد انشغل العربى الجاهلى بهذا التنازع الدموى المستمر، والذى يكاد لايتهادن عليه بصلح،حتى يشب ويضطرم من جديد.

ولاشك أن هذه الحروب المستمرة كانت السبب المباشر فى ازدهار الأدب الحماسى الذى شاهدناه فى وجوه الشعر الجاهلى. وبخاصة فى شعر عنترة وعمرو بن كلثوم ومن إليهما . ولم تكن الخطابة بأقل ازدهارا من الأدب الحماسى،لأنها وجه من وجوه هذا الأدب. بل استعمل العربى الخطابة شعرا أو نثرا ليؤلّب جموع القبائل على أعدائه، أو يدعو إلى الصلح ، أو يلقيها فى مجالس الاحتكام والشورى . ونستطيع أن نقول: إن الخطابة فى نشأتها الأولى خلال الجاهلية. كانت تصحب المقاتلين فى غمار المعارك،وتسهم فى ملاحم البطولة إلى جانب السيف. وتساعد فى وضع أكاليل الغار على رؤوس الأبطال، كما تلحق الذل والعار بالمنكسرين المخذولين ، كذلك فإن البيئة التى كان يعيش فيها العرب. كان لها أثر كبير فى مزاجه. وفى تأثر كلماته

بها. ولذا فإن ازدهار الخطابة فى العصر الجاهلى كان من أسبابه وجود العرب فى هذه البيئة.

البيئة وأثرها على الخطابة العربية

كان أكثر بلاد العرب صحراء جرداء يندر فيها النبات والماء. وتكثر الجبال والوهاد والرمال. ولذلك كان سكان هذه الصحراء فى شظف من العيش، وقلة من الزاد. وقد اضطرتهم هذه الظروف إلى أن يكتفوا من الحياة بالكفاف. ورضوا بالقناعة وأطمأنوا إلى الخشونة مع العزة.

وكانت كل قبيلة تستقل عن القبائل الأخرى وتخضع لزعيمها وحده. وكأنها أمة وحدها. لأن عدم وجود المواصلات فى هذه المناطق. وتقطّع أسباب الاتصال كان سببا من أسباب هذا التمزق وعدم خضوع العرب لدولة واحدة. وإنما كانت كل قبيلة كما قلنا: تخضع لزعيمها. وتقدم له الطاعة. وله فيها الكلمة النافذة.

أما أطراف بلاد العرب. كالحيرة واليمن. والجزء المسكون بقبائل عربية من الشام. فقد كان فيها خصب عظيم. ولذا تكونت لها حكومات. ولكن هذه الحكومات كانت قبيل الإسلام واقعة تحت سلطان فارس والروم. ولابد أن نتصور أن الخضوع للأجنبى ليس من طبع العربى. ولايلائم فطرته. لذلك كان أولئك العرب الواقعون تحت سلطان الأجنبى فى تململ راغبين فى الانسلاخ من سلطانه.

أما مكة المكرمة وما حولها فقد كان بها خصب قليل. وكانت أحسن حالاً من كثير من المناطق العربية. حيث شاء الله أن يفد إليها الحجيج ومعهم بعضاً من الخيرات والثمار، كذلك فإن وقوعها على الطريق الموصل بين اليمن والشام جعل الكثيرين من أبنائها يفكرون فى الاتجار والسفر بتجارتهم إلى اليمن وبلاد الشام ولذا كان بها ثروة وسلطان وشبه حكومة. حيث كانت

الرياسة فيها لأكبر بيت في قريش. وكان بمكة المكرمة دار ندوة. يجتمع فيها زعماء العرب وأقيالهم من كل نواحي البلاد.

هذه البيئة الصحراوية جعلت العربي عصبياً حاداً يثور لأتفه الأسباب. ويحمل السيف عند أول نداء، إذا استولت على رأسه فكرة نفذها من غير تدبر للعواقب.

وكان توزع العرب في قبائل مشتتة. وعدم خضوعهم لحكومة واحدة. سبباً من أسباب التنازع المستمر والحروب الدائمة. التي تنشب بين سكان الصحراء. والتي كانت في نفس الوقت تستدعي بياناً يثير الحمية. ويقوي العزائم.ويدفع النفوس إلى خوض المعارك دون خوف من الموت، وكانت الخطابة القوية الحماسية تقوى روح المحارب. وتدفعه إلى الاستبسال. ولاشيء يقوي روح المحارب أكثر من قول حافز.وعبارات تهز أوتار القلوب. كذلك فإن تعصب كل عربي لقبيلته يجعله يفتخر بصفات أبطالها. من شدة بطش. وقوة بأس. وثبات في الهيجاء.وصبر على اللأواء.ووفاء للعهد. ورعاية للجوار. وإكرام للضيف. وهذا التفاخر لايكون إلا بشعر قوي. أو كلام خطابي مبين، ولاشك أن هذا كان من أسباب ازدهار الخطابة في هذا العصر.

وكثيراً ما كان يعقب حروب العرب التي كانت تقع فيما بينهم صلح. تقوم به إحدى القبائل التي لم تشارك في الحرب. أو تنضم لواحدة ضد الأخرى. أو كان يقوم بهذا الصلح أحد الأشخاص من ذوي النفوذ والعقل الراجح. كما فعل حيرم بن سنان. والحارث بن عوف عندما أصلحاذات البين بين عبس وذبيان. بعد أن كادوا يتفانون بسبب الحروب التي طالت بينهما، وكانت مجالس الصلح هذه يبيّن المتحدثون فيها أضرار الحرب. ووشائج القربى بين القبيلتين المتنازعتين. وبالطبع لايكون ذلك إلا بالخطابة.وهي أداة الترغيب في النافع.والترهيب من الضار، كذلك فقد كان عند العرب دار تسمى دار

الندوة. يجتمعون فيها . ويتشاورون.ويتحاورون.ويساجلون.ويقررون ما يرونه صالحاً. وكانت لهم أسواق هى شبيهة بالمنتديات الأدبية. يتبارى فيها المجيدون للقول خطابة وشعراً.

ولاشك أن دار الندوة والأسواق. كانت تعتبر منابر عامة تروج فيها بضاعة الكلام البليغ وتزجى فيها غيرها.

ولاشك أن لكل أمة محاسنها ومساوئها ، ولكل شعب من الشعوب أخطاؤه وهفواته ، وقد عرفنا أن العرب كانت فيهم خصال خير وخصال شر. وقد كانت مساوىء العرب فى هذه الفترة من الزمان قبل الإسلام. بالغة الحد الأعلى من الشناعة. وقد نعاها القرآن الكريم. وكان بعض العقلاء من العرب من أصحاب العقول الراجحة والمصلحين منهم. يتصدون لهذه المساوىء وأصحابها. ويُلقون خطباً رائعة يدعون فيها إلى الفضيلة والحث عليها. ونبذ العادات السيئة والخرافات الباطلة ، وقد عرف من هؤلاء كثيرون. وربما كان أظهرهم وأشهرهم " أكثم بن صيفى" و " قس بن ساعدة ".

إذاً نستطيع أن نقول:إن قوة إحساس العربى وشدة حميته واندفاعه ومعيشته فى صحراء صافية السماء. هى من أعظم الدواعى للخطابة والاتجاه إليها ، وقد عُرف أن قوة العاطفة تدفع ذا البيان إلى تبيانها .والعجيب أن الله سبحانه قد جعل للعربى من أميته سبيلاً لفصاحته لأن حياة العربى فى الصحراء كانت كما رأينا حياة فروسية وقوة شكيمة. وقد دفعته هذه إلى البيان دفعاً.

يقول المؤرخ جورجى زيدان فى الجزء الأول من كتابه "تاريخ آداب اللغة العربية " فى بيان تأثير الخطابة فى ذوى الفروسية : "ويغلب تأثيرها فى أبناء عصور الفروسية وأصحاب النفوس الأبية طلاب الاستقلال والحرية" ، ولذلك تشابهت جاهلية العرب وجاهلية اليونان من هذا الوجه لأن كليهما أهل شعر وخطابة. وأهل إباء واستقلال.

ولذلك أيضا كانت الخطابة رائجة عند الرومان. مع تأخر الشعر عندهم. أما العرب فقد قضى عليهم الأقليم بالحرية والحماسة ، وهم ذووا نفوس حساسة مثل سائر أهل الخيال الشعرى، فأصبح للبلاغة وقع شديد فى نفوسهم- فالعبارة البليغة تقيمهم وتقعدهم. بما تثيره فى خواطرهم من النخوة.

موضوعات الخطابة

تمهيد:-

تبين لنا من خلال الحديث عن الحياة الاجتماعية ، والظروف البيئية للعرب فى الجاهلية ، أن الخطابة في العصر الجاهلى كانت خطابة مزدهرة. وكان من أسباب ازدهارها طبيعة العربى الفروسية. وطبيعة الصحراء التى يعيش فيها. وتعصب العربى لقبلته من دون سائر القبائل. وفخره خَطابةٌ بنفسه وبقومه. بالإضافة إلى أميته التى كانت أيضا سبباً فى ازدهار الخطابة. لأنهم لو كانوا يعرفون القراءة والكتابة. لكانوا قد عبّروا عن أرائهم من خلال الكتب والنشرات. كما نعبر عن ذلك فى عصرنا الحاضر من خلال المجلات والصحف والإذاعات- فالعرب الجاهليون لم يكونوا يلمّون بالكتابة. وقد كان قليل منهم هو الذى يعرف القراءة والكتابة. وإن كانت هذه الكتابة كتابة بدائية يسيرة. لاتتعدى ذكر بعض الأرقام التجارية. والعقود السياسية. وما أشبه ذلك.

وقد كان الجاهلى محمولاً على أن يعبّر عن آرائه بأدب شفهى مباشر وكانت الخطابة هى أيسر أسلوب من أساليبه. وأولى الوسائل التى دأب عليها فى سبيل تنازع بقائه، فالنثر المسموع من دون المكتوب. كان وساطة التفاهم بين الجاهليين،وبخاصة حينما يكون هؤلاء فى جمع غفير يتشاورون فى قضية من القضايا التى تمس مصيرهم. وقد عرفنا كيف كان هؤلاء العرب يجتمعون فى الأسواق. يتبادلون تجارة الفكر إلى جانب تجارة المال، وفى هذه

الندوات كانت الخطابة تنشط للتأثير فى المجتمعين. متصفة بما يتصف به الأدب الشفهى من شدة فى الإخلاص وغلوّ فى التكرار.

وكانت موضوعات الخطابة أثرا للدوافع التى دفعت إليها. وثمرة لها. وإذا كان العرب قد أُثر عنهم القول فى موضوعات دفعت إليها العوامل البيئية والنفسية،فإن هناك موضوعات أخرى قد ساد لديهم القول فيها.

ويمكننا تلخيص أهم الموضوعات الخطابية فى الجاهلية فيما يأتى :-

١-إيقاظ الحماس وتثبيت القلوب (الخطب الحربية):

عرفنا فيما سبق أنه كان هناك تنازع مستمر. وحروب دائمة بين سكان الصحراء. وهذا يستدعى بيانا يثير الحمية. ويقوّى العزائم. ويوقظ الحماسة. ويثبّت القلوب. وإذا أردنا أن نضرب مثلا لذلك ليتبين لنا كيف كانت هذه الخطب تثير الحماس وتدفع العربى إلى حمل السيف عند أول نداء. فلننظر إلى كلمة هانىء بن قبيصة الشيبانى قبيل موقعة "ذى قار" وبعض المحققين يرى أن هذه من أفضل الخطب فى الجاهلية يقول هانىء :

"يا معشر بكر، هالِك معذور خير من ناج فرور. إن الحذر لاينجى من القدر ، وإن الصّبر من أسباب الظفَر . المنية ولا الدنيّة ، واستقبال الموت خير من استدباره . الطعن فى ثغر النحور،أكرم من الأعجاز والظهور. يا آل بكر، قاتلوا فما للمنايا من بدّ[1]".

وقد كانت هذه الخطبة دافعاً للعرب إلى لقاء جنود فارسية أكثر منهم عدداً وعدة،لكن كان لهم الغلبة عليها. لاستثارتهم وإيقاظ حماستهم.

ولو توقفنا قليلاً أمام هذه الخطبة. لوجدناها تشتمل على كلام بليغ وعبارات صادقة. تدل على قوة شكيمتهم وإقبالهم على الموت بنفس قوية وبأس وحمية- ولاشك أن الحث على القتال. والحض على لقاء الأعداء. يعتبر

---

(١) الأمالى للقالى : ص ٩١ جـ ١

من أعظم أغراض القول فى أمة تعمد القبيلة فيها إلى السيف فى الذود عن حياضها. والدفاع عن شرفها، وبخاصة إذا لم يكن هناك حاكم يردع المعتدى ويزجر الطاغى. وقد كان البأس عند العربى هو فخاره. والشجاعة شرفه وكان كل قول خطابى يتعلق بالشجاعة والقتال، أروع بيان العرب الجاهليين لأنهم بدو. والبأس هو أخص صفات البدوى. كما أن القوة والبطش يستوليان على رأسه. وبخاصة إذا شعر بضيم أو محاولة إذلال وإهانة.

٢- إصلاح ذات البين :

عرفنا كيف كان عند العرب من هم أصحاب رأى وحزم. ومن يحاول إصلاح الأخطاء والمساوىء. يحاولون لمّ شعث العرب وجمعهم على كلمة واحدة. ويعالجون مساوىء أمتهم. كأكثم بن صيفى. وقس بن ساعده وغيرهما. ويحاولون حسم الداء والقضاء على العداوة التى كانت بين القبائل، ولذا فإن كثيراً من الحروب التى كانت تدور بين القبائل المتناحرة. كانت تنتهى بالصلح بين المتحاربين، ومن أعظم الخطباء الذين امتازوا بالقول فى هذا المقام - مقام الصلح - أكثم بن صيفى، فكثيراً ما كانت ترد على لسانه فى خطبه التى تشبه الدر المنثور. مضار الحرب ومساوئها الوبيئة. والدعوة إلى الصلح وفوائده الكثيرة.

كما أن العربى الذى قلنا إنه كان عصبيا حاد المزاج ، يثور لأتفه الأسباب كان أحيانا يغلظ القول مع آخر من غير قبيلته. أو يغلظ فريق القول مع فريق آخر، فتوشك نيران الحرب أن تتأجج، عندئذ يتدخل أحد الناس للصلح. ويلقى من الخطب ما يناسب المقام.

وسنضرب نموذجاً واحداً لخطب إصلاح ذات البين. ونختار نموذج إصلاح "المرثد الخير" بين سبيع بن حرث. وبين ميثم بن مثوب. فقد حدث بين سبيع ابن الحرث وميثم بن مثوب بن ذى رعين. تنازع على الشرف حتى تشاحنا.

وخيف أن يقع بين حيّيهما شر فيتقاتلان ويتحاربان. فبعث إليهما مرثد فأحضرهما ليصلح بينهما فقال لهما :

"إن التخبط[١] وامتطاء الهجاج[٢]، واستحقاب اللجاج[٣]، سيقفكما على شفا هوة فى تَوَرُّدها[٤] بوار الأصيلة[٥]، وانقطاع الوسيلة، فتلاقيا أمركما قبل انتكاث العهد[٦]، وانحلال العقد، وتشتت الألفة، وتباين السمعة[٧] وأنتما فى فسحة رافهة[٨] وقدم واطدة[٩] والمودة مثرية[١٠] والبقيا معرضة.

فقد عرفتم أنباء من كان قبلكم من العرب ممن عصى النصيح، وخالف الرشيد، وأصغى إلى التقاطع، ورأيتم ما آلت اليه عواقب سوء سعيهم، وكيف كان صَيور أمورهم[١١]، فتلافوا القُرحة[١٢] قبل تفاقم الثأى[١٣] واستفحال الداء[١٤]، وإعواز الدواء، فإنه إذا سفكت الدماء استحكمت الشحناء، وإذا استحكمت الشحناء. تقضبت[١٥] عُرى الإبقاء وشَمِل البلاء."

---

(١) التخبط هو ركوب الرجل رأسه فى الشر خاصة،أو السير على غير هدى.

(٢) ركب فلان الهجاج : أى ركب رأسه

(٣) الاستحقاب : هو استفعال.إما من الحقيبة وهى ما يجعل الرجل فيه متاعه من خرج أو غيره - وإما من الحقاب وهى ما تشد به المرأة وسطها - وهذا مَثَل. فإنه أراد أن يقول إنه احتزم باللجاج - أو جعله فى وعائه.

(٤) التورد هو الإشراف على الماء وغيره . يقال ورد الماء.

(٥) الأصيلة : أى الأصل .

(٦) الأنكاث جمع نكث.وهو ما نقض من الحبال ليعاد ثانية .

(٧) السمعة : القرابة .

(٨) ناعمة من الرفاهية .

(٩) ثابتة .

(١٠) متصلة .

(١١) عاقبة .

(١٢) الجريح .

(١٣) الثأى : الإفساد والجراح والقتل وغيره .

(١٤) استفحال الشىء: أى اشتداده ، وهو أن يصير مثل الفحل.

(١٥) تقضبت : أى تقطعت .

ولو أردنا أن ندرس هذه الخطبة لمرثد الخير. لوجدنا مرثد يستهل كلامه بالأفكار والنصائح العامة ويقول:إن من يمتطى رأسه ويمضى فى غيه ويصمم على طلب ما يبتغيه يؤدى به ذلك إلى الهلاك. وضياع الأصل. ويتعذر عليه أمر النجاة. ثم يدعوهما إلى أن يتلافيا الفرقة. قبل أن ينفك عهد الصفاء بينهما ويحلّ بينهما الشقاق. وتُقطع الأرحام بعد تواصل ودّ. ورسوخ فى صفاء القرابة. ثم هو يعظهم بعظة من سبق من القوم الذى امتطوا رؤوسهم، ولم ينتصحوا. فأعقبهم الهلاك وسوء المصير- ويُنهى قوله بدعوتهم إلى الوئام والتوافق. قبل أن يستفحل الداء ويعجز الدواء ؛ لأن الدماء إذا سفكت استدعت الدماء والثارات وعم البلاء.

أشهر الخطب فى العصر الجاهلى :

من أشهر خطب إصلاح ذات البين فى العصر الجاهلى. خطبة قيس ابن خارجة التى ألقاها أثر حرب داحس والغبراء. وقد أقام على إلقائها طيلة النهار- إلى الليل.وسماها العرب (العذراء) انظر البيان والتبين جـ١ص ١٦١ وهناك خطب أخرى فى إصلاح ذات البين. وقد عرف كثيرون من خطباء الجاهلية ممن اشتهروا بذلك- وقد نجا من الخطب الجاهلية عدد غير قليل من خطب إصلاح ذات البين. بالإضافة إلى خطب الوفود بين يدى كسرى. وفى تعزية سلامة ذا فائش بابنه،وخطب أخرى فى الوصايا من الآباء إلى الأبناء.

أما الخطب المباشرة. فلم يعثر منها إلا على عدد قليل من الخطب.

ومن أشهر خطب إصلاح ذات البين بالإضافة إلى خطبة قيس بن خارجة. خطبة مرثد الخير السابقة.

٣- المنافرة

من موضوعات الخطابة فى العصر الجاهلى المفاخرة والمنافرة - وتدنو خطب المنافرة إلى خطب إصلاح ذات البين- وكانت هذه الخطب يجريها بعض الجاهليين- حيث يتحدث رجلان فى أمر صغير أو كبير. فيتلاحيان. ويشتد فخر كل منهما على صاحبه. فيتحاكمان إلى شخص أو جماعة . وكل واحد منهما يحاول أو يفاخر الآخر ويبيّن شرفه أو شرف قبيلته - ويتصدى فى ذات الوقت لإظهار العيوب والمساوىء التى تشين منافسه- وكان المتخاصمان يقيمان فيما بينهما حَكَمًا يقرّان به يستمع إليهما. ويحكم بينهما.

وقد عرفت منافرات كثيرة عند العرب فى الجاهلية . ومن ذلك منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل - فقد تحادثا ثم تهاجيا. ثم تنافرا على مائة من الإبل يعطيها للحَكَم أيّهما نفر عليه صاحبه. وكانت منافرتهما إلى هرم بن قطبة- كذلك منافرة طريف بن العاصى والحرث بن زبيان.

ولاشك أن هذه المنافرات كانت ميداناً متسعاً للخطابة والبيان الرائع.

وأشهر المنافرات بين الجاهليين. هى منافرة علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل - وقد أورد نصها كتاب الأغانى[1] ولابأس أن نذكرها هنا لنعرف الفرق بينها وبين خطب إصلاح ذات البين ولنتعرف على بعض خصائص هذه الخطب.وبعض الطبائع النفسية التى نستشفها من خلال المعانى المترددة فى هذه المعافرة.

يقول صاحب الأغانى :

" لما أسنّ أبو براء عامر بن مالك بن جعفر بن مُلاعب الأسنة، تنازع فى الرياسة عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر، وعلقمة بن علاثة بن عوف بن الأحوص بن جعفر، فقال علقمة: كانت لجدى الأحوص، وإنما صارت لعمك بسببه، وقد قعد عمك عنها، وأنا استرجعتها، فأنا أولى بها منك ، فشرى

(١) جزء ١٥ ص ٥١ .

الشر بينهما، وسارا إلى المنافرة ، فقال علقمة: إن شئت نافرتك، فقال عامر: قد شئتُ، والله إنى لأكرم منك حَسَباً، وأثبتُ منك نسباً، وأطول منك قصباً.

فقال علقمة : والله لأنا خيرُ منك ليلاً ونهاراً.

فقال عامر: والله لأنا أحب إلى نسائك أن أُصبح فيهن منك ، وأنا أنحر منك للقاح ، وخير منك فى الصباح، وأطعم منك فى السنة الشيّاح.

فقال علقمة : أنا خير منك أثراً ، وأحدُّ منك بَصَراً، وأعزُّ منك نَفَراً ، وأشرَفُ منك ذكراً .

فقال عامر: ليس لبنى الأحوص فضل على بنى مالك فى العدد ، وبَصَرى ناقص، وبصرك صحيح ، ولكن أنافرك، إنى أَسمى منك سَمةً، [1] وأطولُ منك قمّةً، وأحسن منك لِمّةً [2]، وأجعَدُ منك جُمّة،[3] وأسرع منك رحمة، وأبعد منك همّة ، فقال علقمة : أنت رجل جسيم، وأنا رجل قضيف [4]، وأنت جميل، وأنا قبيح، ولكنى أنافرك بآبائى وأعمامى، فقال عامر: آباؤك أعمامى، ولم أكن لأنافرك بهم، ولكن أنافرك، أنا خير منك عَقِباً، وأطعم منك جَدْباً، فقال علقمة: قد علمت أن لك عَقِباً، وقد أطعمت طيّباً، ولكنى أنافرك، إنى خير منك، وأولى بالخيرات منك.

فخرجت أم عامر- وكانت تسمع كلامهما- فقالت يا عامر نافره، أيّكما أولى بالخيرات، قال عامر: إنى والله لأركب منك فى الحُماة ، وأقتل منك للكُماة[5] وخير منك للمَوْلى والمَوْلاة، فقال علقمة: والله إنى لَبَرٌّ وإنك لغادر، فغيم تُفاخرنى يا عامر ؟ فقال عامر: والله إنى لأنْزلُ منك للقفْرة [6]، وأنحر منك

(١) السمة : القرابة ، ويروى أنا أنشر منك أمة ، أى أكثر قوماً

(٢) اللمة : الشعر المجاوز شحمة الأذن.

(٣) جمةُ : مجتمع شعر الرأس.

(٤) قضيف : نحيف من القضف وهو النحافة.

(٥) للكماة : جمع كمى وهو الشجاع.

(٦) القفرة : القفر : الخلاء من الأرض.

للبَكْرة [١]، وأطعَم منك للهَبْرة [٢]، وأطعن منك للثغرة، فقال علقمة: والله إنك لكليلُ البصر، نَكِدُ النظر، وثّاب على جاراتك بالسَّحَر.

فقال بنو خالد بن جعفر: وكانوا يداً مع بنى الأحوص على بنى مالك بن جعفر- لن تطيق عامرًا، ولكن قل له: أنافرك بخيرنا وأقربنا إلى الخيرات، فقال له علقمة هذا القول، فقال عامر: عَيْرٌ[٣] وتيْسٌ وتيْسٌ وعنز، فذهبت مثلاً ، نعم على مائة من الإبل إلى مائة من الإبل يُعطاها الحكَم ، أيُّنا نفّر عليه صاحبه أخرجها، ففعلوا ذلك ووضعوا بها رَهنا من أبنائهم على يدى رجل يقال له خزيمة بن عمرو بن الوحيد فسُمّى (الضَّمين) .

وخرج علقمة ومن معه من بنى خالد، وخرج عامر فيمن معه من بنى مالك وجعلا منافرتهما إلى أبى سفيان بن حرب بن أميّة- فلم يقل بينهما شيئاً، وكره ذلك لحالهما وحال عشيرتهما، وقال أنتما كَرُكبَتَى البعير الأدرم،[٤] قالا: فأيّنا اليمين ؟ قال كلاكما يمين، وأبى أن يقضى بينهما، فانطلقا إلى أبى جهل بن هشام، فأبى أن يحكم بينهما، وقد كانت العرب تحاكم إلى قريش- فأتيا عُيَيْنة بن حصن بن حذيفة - فأبى أن يقول بينهما شيئاً، فأتيا غيلان بن سلمة الثقفى، فردَّهما إلى حرملة بن الأشعر المرّى، فردهما إلى هرم بن قطبة بن سنان الفزارى- فانطلقا حتى نزلا به، وقد ساقا الإبل معهما حتى أشْتَتْ وأرْبعَتْ، لا يأتيان أحدا إلا هاب أن يقضى بينهما، فقال هرم: لعمرى لأحكمن بينكما، ثم لأفصلن، فأعطيانى موثقاً أطمئن إليه أن ترْضيا بما أقول، وتُسَلّمَا لما قضيت بينكما، وأمرهما بالانصراف، ووعدهما ذلك اليوم من قابل، فانصرف حتى إذا بلغ

---

(١) البكرة : الفتية من الإبل.

(٢) الهبرة : قطعة مجتمعة من اللحم.

(٣) العير : الحمار، وغلب على الوحشى، وهو أقوى من التيس، أى مثلى، وإياك كالعير والتيس أو على الأقل كالتيس والعنز، والتيس أقوى على النطاح من العنز- وفى المثل كان عنزا فاسْتَليَس) أى صار قوياً.

(٤) الأدرم : درم العظم وأراه اللحم حتى لم يبن له حجم، وامرأة درماء لا تستبين كعوب مرافقها وكل ما غطاه الشحم واللحم وخفى حجمه فقد درم.

الأجل خرجا إليه، وأقام القوم عنده أياما- فأرسل هَرِم إلى عامر، فأتاه سرا لايعلم به علقمة ، فقال يا عامر قد كنت أرى لك رأيا ، وأن فيك خيرا ، وما حسبتك هذه الأيام إلا لتنصرف عن صاحبك، أتنافر رجلا لا تفخر أنت وقومك إلا بآبائه، فما الذى أنت به خير منه، فقال عامر : نشدتك الله والرحم أن لا تفضّل عليَّ علقمة، فوالله لئن فَعَلْتَ لا أفلح. نشدتك الله والرّحم، أن لا تفضل عليَّ علقمة، فوالله لئن فَعَلْتَ لاأفلح بعدها أبدا ، هذه ناصيتى فاجززها واحتكم فى مالى، فإن كنت لابدَّ فاعلا فسوِّ بينى وبينه، قال: انصرف: فسوف أرى رأيى، فخرج عامر، وهو لايشكُّ أنه يُنَفِّره [1]عليه ثم أرسل إلى علقمة سراً لا يعلم به عامر، فأتاه وقال له مثل ما قال لعامر، فردَّ عليه علقمة بما رد عليه عامر وانصرف وهو لايشكُّ أنه سيفضل عليه عامراً، ثم إن هَرِماً أرسل إلى بنيه وبنى أخيه : إنى قائل غداً بين هذين الرجلين مقالة- فإذا فعلت: فليطرُد بعضكم عشر جزائر، فلينحرها عن علقمة ، ويطرد بعضُكم عشر جزائر ينحرها عن عامر- وفرِّقوا بين الناس لاتكون لهم جماعة.وأصبح هَرِم، فجلس مجلسه، وأقبل النَّاس، وأقبل علقمة وعامر حتى جَلَسا.فقام هرم فقال: يا بنى جعفر قد تحاكمتما عندى- وأنتما كرُكبَتَىَ البعير الأدرم: تقعان إلى الأرض معا، وليس فيكما أحد إلا وفيه ماليس فى صاحبه وكلاكما سيد كريم، وعَمَدَ بنو هرم وبنو أخيه إلى تلك الجزائر، فنحروها حيث أمرهم هرم، وفرقوا الناس، ولم يفضّل هرم أحدا منهما على صاحبه وكره أن يفعل، وهما ابنا عم. فيجلب بذلك عداوة ويوقع بين الحيين شراً [2]

[1] أنفره عليه ونفره عليه : قضى له عليه بالغلبة.
[2] الأغانى جـ ١٥ : صـ ٥١ ، وصبح الأعشى جـ١ صـ٣٨٢ .

عثر فى الأصول القديمة على كثير من الخطب التى ألقاها العرب بين يدى الملوك- وفيها يفاخرون بمآثرهم وسمو منزلتهم ومكانتهم بين الأمم- وكان من أهم هذه الخطب- الخطب التى ألقاها وفود من العرب بين يدى كسرى.

وهذه الوفادة وإن كانت تدنو إلى المفاخرة فى معانيها. إلا أنها تختلف عن المنافرة . على الرغم مما فى المنافرة من مفاخرة - ففى هذه المفاخرة ، التى تلقيها الوفود أمام الملوك والرؤساء . لايتعرض فيها المتحدث لمن يخاطبه بالقذف أو الهجاء- فهى لا تمثل خصومة بين اثنين أو قبيلتين ، كما هو فى المنافرة- وإنما فقط يريد المتحدث أن يبيّن منزلته ، أو منزلة قومه بين الأمم.

ولم تكن خطب الوفود مقصورة على المفاخرة وذكر المآثر- إنما كانت هناك خطب من الوفود للتهنئة كخطبة عبد المطلب بن هاشم فى تهنئة سيف بن ذى يزن باسترداد ملكه من الحبشة،وكانت هناك خطب للتعزية. كالخطب التى ألقوها فى تعزية سلامة ذا فائش بابن له مات.

ومن أهم خطب المفاخرة أمام كسرى. هذه الخطبة التى أوردها العقد الفريد- والتى نكتفى بذكر مقدمتها التى تُعقد بها عقدة الموضوع. وذلك لطولها.

يقول العقد الفريد [1]:

قدم النعمان بن المنذر على كسرى، وعنده وفود الروم والهند والصين، فذكروا من ملوكهم وبلادهم، فافتخر النعمان بالعرب، وفضّلهم على جميع الأمم لا يستثنى فارس ولاغيرها ، فقال كسرى- وأخذته عزة الملك (يا نعمان ، لقد فكرت فى أمر العرب وغيرهم من الأمم، ونظرت فى حالة من يقدُم علىّ من وفود الأمم ، فوجدت للروم حظاً فى اجتماع لغتها ، وعظم سلطانها ، وكثرة

(١) جـ١ صـ١٠١.

مدائنها، ووثيق بنيانها، وأن لها دينا يبيّن حلالها وحرامها، ويرد سفيهها، ويقيم جاهلها. ورأيت للهند نحوا من ذلك فى حكمتها وطبها. مع كثرة أنهار بلادها وثمارها، وعجيب صناعتها، وطيب أشجارها- ودقيق حسابها، وكثرة عَددها، وكذلك الصين فى اجتماعها، وكثرة صناعات أيديها، وفروسيتها، وهمتها فى آلة الحرب، وصناعة الحديد، وأن لها ملكا يجمعها، والترك والخزر، على مابهم من سوء الحال فى المعاش، وقلة الريف[1] والثمار والحصون، وماهو رأس عمارة الدنيا من المساكن والملابس، لهم ملوك تضم قواصِيَهم، وتدبّر أمرهم ،ولم أر للعرب شيئاً من خصال الخير فى أمر دين ولادنيا، ولاحزم ولاقوة، ومع أن مما يدل على مهانتها وذلها، وصغر همتها. محلتهم[2] التى هم بها مع الوحوش النافرة، والطير الحائرة، يقتلون أولادهم من الفاقة،ويأكل بعضهم بعضاً من الحاجة، قد خرجوا من مطاعم الدنيا وملابسها ومشاربها ولهوها ولذّاتها. فأفضل طعام ظفر به ناعمهم لحوم الإبل التى يعافها كثير من السباع، لثقلها وسوء طعمها، وخوف أدائها، وإن قرى أحدهم ضيفا عدّها مكرمة، وإن أطعم أكلة عدها غنيمة. تنطق بذلك شعارهم، وتفتخر بذلك رجالهم، ماخلا هذه التنوخية التى أسس جدى اجتماعها. وشد مملكتها. ومنعها من عدوّها ، فجرى لها ذلك إلى يومنا هذا، وإن لها مع ذلك آثارا ولبوسا[3] وقرى وحصوناً- وأموراً تشبه بعض أمور الناس- (يعنى اليمن)- ثم لا أراكم تستكينون على ما بكم من الذلة والقلة والفاقة والبؤس حتى تفتخروا وتدبروا أن تنزلوا فوق مراتب الناس؟ قال النعمان :-

أصلح الله الملك ، حق لأمّة الملك منها أن يسمو فضلها .ويعظم خطبها وتعلو درجتها، إلا أن عندى جوابا فى كل ما نطق به الملك، فى غير رد عليه،

(١) أرض فيها زرع وخصب والسعة فى المأكل والمشرب.
(٢) حل المكان - وبه يحل بالكسر والضم.
(٣) اللبوس : هو الدرع.

ولا تكذيب له فإن أمَّننى من غضبه نطقت به . فقال كسرى: أنت آمن.

وقد رد النعمان بخطبة وفىّ فيها بغرض المقام، ثم جمع حكماء العرب، ووفد بهم على كسرى ومن بينهم أكثم بن صيفى. الذى تلا عليه بعض حكمه العميقة، مثيراً لإعجابه، وحاجب بن زرارة. والحارث بن عبّاد. وعمرو ابن الشريد ، وخالد بن جعفر الكلابى، وعلقمة بن علاثة العامرى، وقيس ابن مسعود الشيبانى، وعامر بن الطُفيل وعمرو بن معدى كرب ، والحارث ابن ظالم المرى، وقد جرت خطبة النعمان ، وَفقاً لتدرج منطقى محكم، منوهاً بعزة العرب ومنعتهم وحسن وجوههم وبأسهم ، وسخائهم ، وحكمتهم ، وأنفتهم ووفائهم، ثم فصَّل الأمر فى كلّ منها صادراً فى ذلك عن وحدة وتطور فى التفكير، نعجب لهما ، إذ لم تُؤثر عن الجاهليين هذه الدقة العلمية فى التعرض للأفكار وتنظيمها والدرج فيها.أما سائر الخطب فتتأرجح بين الحكمة والفخر بمعان انهكت فى تقليد الفخر عند العرب. (١)

٥- خطب التهنئة :

من أشهر خطب التهنئة التى عثر عليها فى تراث الجاهلين - خطبة عبد المطلب جد النبى صلى الله عليه وسلم بين يدى ذى نواس.

فقد ذهب وفد من قريش إلى ذى نواس. بعد أن ظفر بالجيش وأجلاهم عن بلاده،فلما مثلوا بين يديه قال عبد المطلب.

إن الله أيها الملك . أحلّك محلاً رفيعاً- صعباً منيعاً. باذخاً شامخاً- وأنبتك منبتاً طابت له أرُومته- وعزت جُرثومته- ونبُل أصله- وبسُق فرعه- فى أكرم معدن وأطيب موطن- فأنت أبَيْتَ اللّعن رأس للعرب. وربيعها الذى به تخصُب، وملِكها الذى به تنقاد- وعمودها الذى عليه العماد- ومعقلها الذى يلجأ إليه العباد- سلفك خير سلف،وأنت لنا بعدَهم خير خلف- ولن

(١) راجع كتاب فن الخطابة : إيليا حاوى ص ٤٧ .

يهلك من أنت خلفه.

نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمّته- وسدنة بيته- أشخصنا إليك الذى أبهجنا بكشفك الكرب الذى فدحنا- فنحن وفد التهنئة لاوفد المرزئة. [1]

٦- خطب العزاء والرثاء:

ومن خطب العزاء والرثاء كلمة قبيصة بن نعيم . حين قدم على امرىء القيس مع وفد بنى أسد لتعزيته فى وفاة أبيه:

" فقد وفد على امرىء القيس بعد قتل أبيه رجالات من بنى أسد، فيهم قبيصة بن نعيم ، فبالغ امرؤ القيس فى إكرامهم، واحتجب عنهم ثلاث ليال، ثم خرج إليهم . فنهض قبيصة، وقال:إنك فى المحل والقدر والمعرفة بتصرف الدهر، وما تحدثه أيامه، وتنتقل به أهواله، بحيث لاتحتاج إلى تبصير واعظ، ولاتذكرة مجرّب ، ولك من سؤدد منصبك، وشرف أعراقك، وكرم أصلك فى العرب محتد ، يحتمل ما حمل عليه من إقالة العثرة،والرجوع عن الهفوة ، ولا تتجاوز الهمم إلى غاية، إلا رجعت إليك فوجدت عندك من فضيلة الرأي- وبصيرة الفهم، وكرم الصفح، ما يطل رغبتها، ويستفرق طلباتها، وقد كان الذى من الخطب الجليل الذى عمت رزيته نزاراً واليمن، ولم تخصص به كندة دوننا للشرف البارع، كان لحجر التاج والعِمّة فوق الجبين الكريم، وإخاء الحمد، وطيب الشيم، ولو كان يفدى هالك بالأنفس الباقية بعده، لما بخلت كرائمنا على مثله ببذل ذلك، لكن مضى به سبيل لايرجع أخراه على أولاه، ولايلحق أقصاه أدناه، فأحمد الحالات فى ذلك، أن تعرف الواجب عليك فى إحدى خلال ثلاث :-

إما أن اخترت من بنى أسد أشرفها بيتا، وأعلاها فى بناء المكرمات

---

(١) المرزئة : أى المصيبة . والنص منقول من كتاب "الخطابة" لأبى زهرة ص ٢٤٤.

صوتا، فقدنا إليك بنسعة[١]، يذهب مع شفرات حسامك بباقى قصرته[٢]، فيقال رجل امتحن بها لك عزيز، فلم يستّل سخيمته إلا بمكنته من الانتقام، أو فداء بما يروح على بنى أسد من نعمها، فهى ألوف تجاوز الحسبة، فكان ذلك فداء رجعت به القضب إلى أجفانها، لم يرد تسليط الإحن على البرآء، وإما أن وادعتنا إلى أن تصنع الحوامل- فتسدل الأُزر، وتعقد الخُمر فوق الرايات.

جواب امرىء القيس :-

فبكى امرؤ القيس، ثم رفع طرفه إليهم وقال: لقد علمت العرب أن لاكفء لحجر فى دم، وأنى لن أعتاض به جملا أو ناقة، فأكتسب به سُبّة للأبد، وفت العضد، وأما النظرة فقد أوجبتها الأجنة فى بطون أمهاتها، ولن أكون لعطبها سبباً، وستعرفون طلائع كندة من بعد ذلك، تحمل من القلوب حنقا، وفرق الأسنة علقا.

إذا حالت الحرب فى مأزق　　تصافح فيها المنايا النفوسا

ومن خطب العزاء أيضا: خطبة الملبّب بن عوف، وجعادة بن أفلح فى ابن لسلامة ذى فائش أحد ملوك العرب، حين ذهب مع وفود العرب ليعزوه فى هذا الابن الذى كان يحبه حباً شديداً. ويرشحه ليخلفه فى قومه. إلا أن فرسا صعبا كبّابه. بعد أن ركبه. فدُقت عنقه. فجزع عليه أبوه جزعاً شديداً. وامتنع عن الطعام. واحتجب عن الناس. فذهبت وفود العرب إليه ليعزوه وقام خطباؤهم يواسونه وكان منهم المُلبّب بن عوف وجُعادة بن أفلح.

قام الملبّب خطيبا أمام سلامة فقال :-

أيها الملك، إن الدنيا تجود لتسلُب، وتُعْطى لتأخذ، وتجمع لتُشتّت وتُحلى لتُمِرّ، وتزع الأحزان فى القلوب بما تَفْجأ به من استرداد الموهوب. وكل مصيبة

(١) النسع بكسر النون سير من الجلد تشد به الرجال.

(٢) القصرة : الباقى بعد الانتحال أو أصل العنق.

تخطأتك جَلَل[1] ، مالم تَدْن الأجل ، وتقع الأمل .وإن حادثا ألم بك، فاستبد بأقلك[2] ،وصفح عن أكثرك، لمن أجل النعم عليك ، وقد تناهت إليك أنباءُ من رُزِيءَ فَصَبَرَ، وأُصيب فاغتفر، إذ كان شكوى[3] فيما يُرتقب ويَحْذر، فاسْتَشْعِرْ اليأس مما فات- إذ كان ارتجاعه مُمتَنعا ومَرَامُه مُستصْعبا، فَلشيء ما ضُربت الأسى، وفَزِعَ أولو الألباب إلى حسن العزاء.

كذلك قام جعادة فقال :

" أيها الملك، لاتُشعر قلبك الجزع على ما فات، فيغفل ذهنك عن الاستعداد إلى ما يأتي، ونَاضِلْ عوارض الحزن بالأنفة عن مضاهاة [4] أفعال أهل وَهْيِ العقول، فإن العزاء لحزُمَاء الرِّجال ، والجزع لربَّات الحجال[5]، ولو كان الجزعُ يَرُدُّ فائتا ، أو يُحيي تالفا لكان فعلا دنيئا، فكيف وهو مجانب لأخلاق ذوى الألباب، فارغب بنفسك أيها الملك عما يتهافت [6] إليه الأرذلون، وصُنْ قدرك عما يركبه المخسوسون ، وكن على ثقة أن طمعك فيما ستبدَّت به الأيام ضِلّة كأحلام النِّيام ".

أما أكثم بن صيفي فقد وقف يعزى عمرو بن هند في أخيه فقال :

" إن أهل هذه الدار سَفْرٌ، لايحلُّونَ عَقْدَ الرحالِ ، إلا في غيرها ، وقد أتاك ماليس بمردود عنك، وارتحل عنك ماليس براجع إليك ، وأقام معك من سيَظْعَنُ عنك ويَدعُك، وأعلم أن الدُّنيا ثلاثة أيام، فأمسْ عظةٌ وشاهدُ عدل، فجَعَكَ بنفسه، وأبقى لك وعليك حكمتهَ، واليومُ غنيمةٌ وصديق أتاك ولم

---

(١) الجلل لا العظيم والحقير وهوهنا بالمعنى الثاني.

(٢) استبد به : جعله نصيبه.

(٣) الشوى : الهين اليسير.

(٤) مضاهاة : مشاكلة.

(٥) جمع حجلة بفتحتين وهي القبة . وموضع يزين بالستور والثياب للعروس.

(٦) التهافت : التتابع.

تأته، طالت عليك غيبتهَ، وستُسرع عنك رحلتهُ، وغدٍ لاتدرى من أهله، وسيأتيك إن وجدكَ، فما أحسنَ الشكْر للمنْعم، والتسليم للقادر، وقد مضت لنا أصول نحن فروعُها، فما بقاء الفروع بعد أصولها، وأعلم أن أعظم من المصيبة سوء الخَلَف منها، وخير من الخير مُعطيه وشرٌ من الشرّ فاعله".

٧- الوصايا :

كان بعض من عرفوا بالحكمة والحنكة من العرب . حين يحس أحدهم بدنو أجله واقترابه من الموت يوصى بنيه وعشيرته بما يجب أن يكونوا عليه، وقد يرى زعيم القبيلة أن الموت يدب فى جسمه دبيبا ، فيجمع قومه وخاصته. ويلقى إليهم بما يكون كعهدٍ بينه وبينهم.

وقد حفظت الآداب العربية للعصر الجاهلى.كثيراً من الخطب فى الوصايا بلغت القمة ، ومن هذه الوصايا وصية ذى الإصبع العدوانى لابنه أسيد ، ووصية أوس بن حارثة لابنه مالك ، ووصية أكثم بن صيفى لقومه.ووصية عمرو بن كلثوم لبنيه [1]ووصية الحرث بن كعب ، وغيرهم كثير.

وسنرى حين نعرض بعضاً مما جاء فى هذه الوصايا وهى كثيرة بالنسبة لما وصل إلينا من تراث العرب فى الجاهلية . سنرى كيف اشتملت هذه الوصايا على كثير من الحِكم ، وسنرى فيها كثيراً من رويّة الشيوخ فضلاً عن تلك النفحة العربية التى تقدّس الشرف وتدعو للدفاع عن الكرم ، وتكريم الضيوف والأخذ بالحلم ، وكبر النفس ، وغير ذلك من أنواع الفضائل.

يقول أوس بن حارثة لابنه مالك :

يا مالك، المنية ولا الدنية، والعتاب قبل العقاب، والتجلد لا التبلد.واعلم أن القبر خير من الفقر ، وخير الغنى القناعة ، وشر الفقر الضراعة . والدهر

(١) راجع نص الوصية ووصايا أخرى فى كتاب الأمانى جـ٢ ص ٢٧٦ ومابعدها.

يومـان: يـوم لك، ويـوم عليك. فـإذا كـان لك فـلا تبطر ، وإن كان عليك فاصبر؛ فكلاهما سينحسر " (١).

وهذه الوصية تدل على خبرة في الحياة . وبخاصة في ذكره لتقلبات الدهر وذل الفقر وغنى القناعة .

وهذه نبذة أخرى من وصية أكثم بن صيفي لقومه :

" يا بني تَيم ، الصبر على جرع الحلم أعذب من جنى ثمر الندامة ، ومن جعل عرضه دون ماله استهدف للذم ، وكَلْم اللسان أنكى من كَلْم السنان ، والكلمة مرهونة مالم تنجم عن الفم. فهي نار تلهب. ورأي الناصح اللبيب دليل لايجور، ونفاذ الرأى في الحرب أجدى من الطعن والضرب " (٢).

٨- خطب الزواج :

تعتبر هذه الخطب من أيسر الخطب الجاهلية وأضعفها قوة بيانية،ومن أكثرها إيجازا حيث لاتتعدى سطوراً مجزوءة .

وهذه الخطب كانت تُلقى حين يزوج الأشراف ذويهم. فيتقدم ولى الزوج أو وليها بخطبة يطلب فيها يد موليته. ويبين مزايا الزوج. ويرد عليه وليّها بخطبة كذلك.

ويسمى هذا النوع من الخطب خطب الأملاك، ومن أشهر هذه الخطب خطبة أبى طالب- عم النبى ﴿ﷺ﴾ عندما تقدم يطلب يد السيدة خديجة بنت خويلد، رضى الله عنها للنبى ﴿ﷺ﴾ ، قال أبو طالب:-

(الحمد لله الذى جعلنا من ذرية إبراهيم وذرية إسماعيل، وجعل لنا بلدا حراما وبيتا محجوجا، وجعلنا الحجاب على الناس، وإن محمد بن عبد الله

---

(١) فن الخطابة وتطوره عند العرب. ايليا حاوى صـ ٥١.

(٢) البيان والتبيين جـ ١ صـ ٤٠٨.

لايوزن به فتى من قريش إلا رجح به بركة وفضلا وعدلا- وإن كان فى المال مِقلاً- فإن المال عارية مسترجعة ، وظل زائل ، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ، ولها فيه مثل ذلك ، وما أردتم من الصداق فهو عَلَىّ (١).

٩- الدعوة إلى الفضيلة ونبذ الخرافات والدعوة لوحدة الأمة العربية :

قلنا فى كلام سابق إن العرب الجاهليين كان فيهم حكماء وأصحاب رأى وكانوا يستنكرون مايفعله أقوامهم من مساوىء. ويدعون إلى مكارم الأخلاق. ويحثونهم على نبذ العادات السيئة والخرافات الباطلة؛ وذلك بعد أن رأوا ما عليه أقوامهم من انحدار فى بعض الشرور. وامتلاء رؤوسهم بالخرافات ، والأوهام. الصادرة عن الجهل وسوء الفهم.

وكانت الحروب المستمرة بين القبائل. تشتت الأمة العربية، وتمزقها . وتؤرق كثيراً من هؤلاء الحكماء والمصلحين ، لذا وجدناهم يدعون أقوامهم إلى الفضيلة ونبذ الخرافات ، ويجدون فرصتهم عند لقاء وفود العرب برؤساء القبائل وملوك العرب. فيدعون إلى الوحدة العربية. وجمع شتات العرب. وربما كان يقع من ذلك شىء فى الأسواق التى كانت فرصة اجتماع ، تتلاقى فيه القلوب المتناحرة المتنافرة . وقد اشتدت الدعوة إلى الوحدة العربية قبيل البعث النبوى ، عندما اشتد طمع الأجنبى فيهم. وهاجمهم فى موضع تقديسهم. وحاول هدم الكعبة المشرفة.

ولعلنا نلاحظ الدعوة للوحدة العربية. فى الخطبة الذى ذكرناها فى باب التهنئة. والتى ألقاها عبد المطلب جد النبى (ﷺ) أمام سيف بن ذى يزن عندما ذهب اليه فى وفد من قريش بعد أن أجلى الحبشة عن بلاد العرب -

---

(١) الأمالى جـ ٢ صـ ٢٨٤.

وقد جاءت هذه الدعوة للوحدة العربية فى ثنايا المدح والثناء وكانت الدعوة جريئة وواضحة.

أما الدعوة إلى الفضيلة ونبذ الخرافات فتظهر واضحة فى كثير من خطب العرب الجاهليين.

انظر إلى هذا النموذج الرائع- خطبة قس بن ساعدة . وهى من أقرب النماذج إلى واقع الخطابة فى العصر الجاهلى :

" اسمعوا وعوا، انظروا واذكروا. أيها الناس، من عاش مات، و من مات فات، وكل ما هو آتٍ آت ، ليلٌ داج، ونهارٌ ساج، وسماءٌ ذات أبراج، ألا إن أبلغ العظات السير فى الفلوات ، والنظر إلى محلّ الأموات، إن فى السماء لخبرا ،وإن فى الأرض لعبرا، مالى أرى الناس يذهبون فلا يرجعون، أَرَضُوا بالمقام فأقاموا ، أم تُرِكوا هناك فناموا ؟ يامعشر إياد، أين الآباء والأجداد؟ وأين المريض والعُوّاد ؟وأين الفراعنة الشداد، أين مَنْ بنى وشيّد؟ وزخرف ونجّد؟ وغره المال والولد؟ أين من طغى وبغى؟ وجمع فأوعى؟ وقال : أنا ربكم الأعلى ؟ ألم يكونوا أكثر منكم أموالا ؟ وأطول منكم آجالا ؟

فى الذاهبين الأولين من القرون لنا بصائر

لما رأيتُ مواردا للموت ليس لها مصادر

ورأيت قومى نحوها تمضى الأصاغر والأكابر

لايرجع الماضى إلىّ ولا من الباقين غابر

أيقنت أنى لامحالة حيث صار الناس صائر

خطبة كعب بن لؤى

ومن الخطب المشهورة أيضا فى هذا الجانب خطبة كعب بن لؤى (وهو الجد السابع للنبى (ص))قال :

" اسمعوا وعوا، وتعلموا تعلموا، وتفهموا تفهموا، ليل ساج [١]، ونهار صاج [٢] والأرض مهاد، والجبال أوتاد، والأولون كالآخرين، كل ذلك إلى بلاء، فصلوا أرحامكم ، وأصلحوا أحوالكم ، فهل رأيتم من هلك رجع ، أو ميتا نشر، الدار أمامكم، والظن خلاف ما تقولون، زينوا حرمكم وعظموه، وتمسكوا به ولاتفارقوه ، فسيأتى له نبأ عظيم، وسيخرج منه نبى كريم ".

ألفاظ الخطابة وأساليبها ومعانيها :

الملاحظ على خطب العرب فى الجاهلية.أنها تختلف كثيرا فى معانيها وألفاظها وأسلوبها. عن الخطابة عند غيرهم .

وقد عرفنا قبل ذلك أن الخطابة ابنة البيئة ، والخطابة فى الجاهلية ابنة بيئتها . حيث نرى أن معظم المعانى التى ترددت فى خطب الجاهلية مستفادة من البيئة ، ومن المثل العليا التى تقدسها أو تتنازع عليها - وقد تجلى ذلك فى خطب المنافرة والمفاخرة.

---

(١) أى ساكن

(٢) من ضج القوم . أى صاحوا وأجلبوا.

المعنى والاسلوب :

كانت معانى الخطب الجاهلية - تأتى فطرية تنشأ عن اللمحة العارضة والفكرة الطارئة. وكانت تأتى عفو الخاطر - من غير كدّ للفكر. ولاتعمق فى النظر. لأنهم لم يكونوا أهل علوم. يسودهم التفكير المنظم. والتتبع لكل أشتات الموضوع .

وقد جاءت خطبهم غير متماسكة الأجزاء. وغير مسلسلة الأفكار. ومن خلال استعراضنا لخطب أكثم بن صيفى ، فسنجد أنها حِكم منتثرة ، بل هى درّ منثور غير منتظم فى عقد .

ولكن إذا اتحد الغرض فى الخطبة. جاء التماسك فى الجملة فى أجزا ئها . وكثيرا ما تكون الخطب التى على هذه الشاكلة موجزة كل الإيجاز ، كخطبة أبى طالب فى زواج النبى صلى الله عليه وسلم. فالخطيب الجاهلى لم يكن يهتم بالوصف كغرض قائم فى ذاته. وخطبة الجاهليين كشعرهم. لايطول فيها نفَس الخطيب إلى النظريات العامة والمبادئ الكبرى. التى تقتضى إسهابا. وتحليلا. وتعليلا موصولين. فهى كما قلنا تبدو متقطعة الأنفاس.ترد فى سياق متردد متكرر. ولا شك أن قصر نفس الجاهلى جاء نتيجة قصر نفسه الفكرى.

وكان الجاهلى يدخل لموضوعه مباشرة . وقلّما يعمد الى المقدمة ، وذلك لما طُبع عليه من جهارة وعنف فى الانفعال .

وكانت خطب الجاهلية تعتمد فى الغالب. على الحكم والأمثال والشعر كبيّنة وتأكيد لصحة ما يقول كما أنه كان يقدم لخطبته ببعض الأفكار العامة والحكم المثالية أو الواقعية . مظهرا جوانب الخير والشر ، مصوّرا الحق والباطل - متنازعا مع الأخرين فيما يرونه أو يراه .وكان الجاهلى يميل فى خطبته إلى التعميم والإطلاق. لأن خطبهم تصدر عن نفوس بدائية. يطغى عليها الانفعال والعنف فى مواضع الفخر - وقد كثرت من جراء ذلك صيغ

أفعل التفضيل. وهى الأداة اللغوية المباشرة لتأدية هذه المعانى، وقد أثّرت نزعة التعميم على أسلوب الخطبة الجاهلية. إذ ألزمتها بالجملة المحكمة الأداء. التى تقتصر على فكرة أو صورة واحدة كالبيت الشعرى - وإن كانت الخطبة فى مجملها أحكم ترابطا من القصيدة -

وأهم ما تمتاز به المعانى الخطابية عند العرب. صدقها ، وعدم وجود الإغراق والمبالغة فيها. وذلك لما فيهم من صراحة وحب للصدق وللحقيقة.

وقد ترى فى نصائحهم ووصاياهم. معانى اجتماعية وخلقية عالية. ولكنها ليست فى جملتها نتيجة دراسة وبحث - بل هى صورة لتجارب الحياة تجئ على الألسنة من غير كدّ للذهن ولاتعمق فى الدرس [1].

الألفاظ:

يمكن تلخيص الكلام عن ألفاظ الخطابة فى العصر الجاهلى فيما يأتى:

١- يلاحظ فى ألفاظ الخطب الجاهلية. أن فيها قوّة وجزالة. تصل أحياناً إلى الخشونة. وذلك بسبب قوة نفوسهم. واندفاعهم فى حماسة، وتأثرهم بالحياة فى الصحراء بيأسائها ولأوائها وشدتها -

كذلك فإن مثل هذه الألفاظ يمكن أن نقول عنها: إنها كانت مناسبة للموضوعات التى قيلت فيها . فأكثر خطبهم قيل فى دعوة لقتال. أو فى مفاخرة بنزال. أو فى وصف يوم كريهة. ونحو ذلك. وأنسب الكلام لهذه الموضوعات ما كان شديدا ليقرع الحس ويدفع النفوس إلى التضحية والفداء .

---

(١) الخطابة ص ٢٣٠.

٢- كان فى كثير من خطبهم كلمات حوشية غريبة. ويقول الإمام محمد أبو زهرة [(١)]: ولعل هذه كانت من لغة حِمْير التى طغت عليها لغة قريش حتى أخذت فى الاندثار. وبقى فى الخطب والشعر منها كلمات ثابتة . لأنها تعيش فى بيئتها منفردة عن أخواتها .

٣- يلاحظ فى ألفاظ الخطب الجاهلية أنها ألفاظ صريحة مباشرة. لايوجد فيها مجاز. حيث كانت ألفاظهم تستعمل فيما وضعت له. وذلك لإحاطتهم الكاملة بلغتهم . وعلمهم علما صحيحا بمدلولات الألفاظ ووجه دلالتها عليها، وقلة حاجتهم إلى استعمال لفظ فى مدلول آخر. ولذلك نلاحظ خلوّ ألفاظ وأساليب معظم الخطب من المحسنات اللفظية. كالجناس والتورية. وما إلى ذلك مما نص عليه علم البديع . وإن كان هذا لم يمنع أن يكون فى كلامهم الكنايات الرائعة. والأمثال السائرة. والتشبيهات المحكمة- وإن كان ذلك عندهم قليلا. لإرسالهم القول ارتجالا من غير تحضير وتهيئة .

الإيجاز والاطناب:

يقول الامام محمد أبو زهرة فى كتابه (الخطابة) [(٢)] لم نجد فى الكلام فى الأساليب العربية خطبة طويلة بل كلها موجز. ولعل الذى بين أيدينا جزء من خطبة طويلة عَلِق بالقلوب. وذهب أكثرُها فى ضلال نسيان الراوى. أو هو الخطب القصار حفظها الرواة لقصرها. وعجزوا عن ضبط الطوال لطولها. وذلك لأن أخبار العلماء والأدباء والرواة. تدلنا على أن العرب كانت لهم خطب طوال وأخرى قصار. ثم يقول [(٣)]: ففى خطب النكاح مثلا يطيل

---

(١) راجع فى هذا الموضوع : فن الخطابة وتطوره عند العرب ، ايليا حاوى من ص ٥٨:٦٣ والخطابة للشيخ محمد أبو زهرة من ٢٣٠ : ٢٣٥ .

(٢) صـ٢٣٤.

(٣) المرجع السابق.

الخاطب ويقصر المجيب . وفى خطب الصلح كانوا يطيلون .

قال الجاحظ :" والسنّة فى خطب النكاح أن يطيل الخاطب ويقصر المجيب ألا ترى إلى قيس بن خارجة بن سفان لما ضرب بصفيحة سيفه مؤخرة راحلتى الحاملين فى شأن حمالة (١) داحس والغبراء (٢). وقال: مالى فيها أيها العشمتان (٣). قالا : بل عندك. قال : عندى قرى كل نازل ورضا كل ساخط. وخطبة من لدن تطلع الشمس إلى أن تغرب .آمر فيها بالتواصل. وأنهى فيها عن التقاطع . قالوا :فخطب يوما إلى الليل فما أعاد فيها كلمة ولامعنى. فقيل لأبى يعقوب. هلا اكتفى بالأمر بالتواصل عن النهى عن التقاطع. أو ليس الأمر بالصلة. هو النهى عن القطيعة .

قال : أو علمت أن الكناية والتعريض لايعملان فى القول عمل الإيضاح والتكشف ؟ ويظهر أنهم يطيلون القول فى المفاخرات ، لأن الإنسان إذا مال إلى الشئ اكثر من ذكراه ، والفخر بالحسب والنسب ، وشريف الخصال من صفات العرب التى امتازوا بها.

وقد كانوا فى إطالتهم، وإيجازهم بلغاء ، أقوالهم محكمة ، وقد قال الجاحظ فى وصف الطوال منها: (ومن الطوال ما يكون مستويا فى الجودة ، ومُشاكلا فى استواء الصنعة ، ومنها ذوات الفِقَر الحسان والنُّتَف الجياد ، وقال فى وصف العرب بشكل عام : (ولم أجد فى خطب السلف الطيب، والأعراب الأقحاح ألفاظا مسخوطة ، ولامعانى مدخولة ، ولاطبعا رويّا ، ولاقولا مستكرها) .

---

(١) الحمالة : هى الدية.

(٢) داحس والغبراء : فرستان كانتا سببا فى حرب طاحنة .

(٣) العشمتان : واحدها عشمة وهى الطخ والشىء اليابس.

أشهر خطباء العرب فى الجاهلية وعاداتهم

كان الخطيب العربى فى الغالب زعيم القبيلة ، أو بطلها ، أو حكيمها ، أو قاضيها ، أو رجل من آحادها . ولكن يمتاز بميزة ليست فى دهمائها تجعله فى منزلة تسمح له بأن يدعو فيُجاب . وأن يُرشد فيسترشدوا به . ولذا كان الخطيب العربى من الذين اشتهروا برجاحة الفكر، وسداد الرأى ومن أحكمهم نظرا وأبعدهم مدى

والعرب الذين اشتهروا بالفصاحة وقوة التعبير وسلامة الفطرة. لايؤثر فيهم قول. ولاينال من قلوبهم كلام. مالم يكن المتحدث أكثر فصاحة وأسبق لسانا وبيانا- فلن يستمع هؤلاء الفصحاء والبلغاء إلى خطيب يخطب فيهم وهم أصحاب البيان. وفيه عيب بيانى. لايتفق مع فصاحة البيان وجودة النطق، ولاتتخيل خطيبا يقف وسط قوم تعتبر الكلمة الفصيحة حرفتهم. وقوة عاطفتهم التى أكتسبوها من البيئة تدفعهم إلى استلال الكلمات. واختيار الجمل. لاتتخيل هذا الخطيب وفيه عَىّ أو حصر، أو فأفأة. أو تمتمة - فالخطيب العربى كان فصيح العبارة . طَلِق اللسان . واضح اللهجة جيد الإلقاء .

وكما قلنا رجاحة الفكر أُولى مميزات الخطيب العربى فى قومه - فأكثم بن صيفى هو أحكم تميم. وقُسّ بن ساعدة من أقوى أهل الفكر عند العرب - كما أن كعب بن لؤى. كان شيخ كنانة فى عصره. وعبد المطلب بن هاشم كان زعيم قريش. وابنها، وأسدّها فكرا، وقد كان كل هؤلاء خطباء فى قومهم . بل إن شهرتهم جاءت بسبب تفوقهم فيها .

صفاتهم:-

كان الخطيب فى الجاهلية جريئا شجاعا مقداما - فقد عُرف أنه كان يحرّض قومه على ملاقاة الأعداء ، ويحضّهم على حربهم وقتالهم . وكانت الخطابة التى تتعلق بالشجاعة والبيان من أروع بيانهم - ولأن البدوى أخص صفاته البأس والقوة والبطش .

ورجل هذا شأنه لايصح أن تتنافى حاله مع ما يدعو إليه - لابد أن يكون جرئ القلب، قوى النفس، رابط الجأش، لاتعرُوه رِعدة ولا اضطراب فى موقفه، وإلّاضعف تأثيره وذهب كلامه هباء ، فخطيب الجاهلية كان شجاعا جريئا . ثابت الجنان ، رابط الجأش .

وكان خطيب الجاهلية أيضا جهير الصوت - صوته عال مرتفع - وكانوا يستحسنون ذلك حيث كان ارتفاع صوته وجهارته. دليلا على حماسته وإيمانه بما يدعو إليه . وقد قالوا فى وصف الخطيب المجيد : خطيب مصقع - من الصقع . وهو رفع الصوت

ولأن أكثر خطبه مرتجلة. فقد كان حاضر البديهة. فالذى يرتجل الكلام لابد أن تكون بديهته حاضرة حتى تسعفه بما يريد فى أوجز مدة .

كذلك فقد كان الخطيب العربى جميلا فى مظهره وشكله. من ناحية سلامة الأسنان والفم . وقوة الجثمان - واستقامة القناة - ولم يكن منفّرا فى شكله أو غير مُهتم بهندامه.

ولذلك قال الشاعر مادحا خطباء قبيلته :-

خطباء حين يقوم قائلنا   بيض الوجوه مصاقع لُسْن

عادات العرب فى الخطابة :-

يقول الشيخ محمد أبو زهرة [1] من عادات العرب فى الخطابة :-

أ- أن يقف الخطباء على مرتفع من الأرض .

ب- أن يكونوا على زى خاص فى العمامة واللباس تفخيما لعمله .

جـ - وأخذهم المخصرة [2] بأيديهم- ومن ذلك قول الشاعر:

يكاد يزيل الأرض وقع خطابهم إذا وصلوا أيمانهم بالمخاطر

ويقول الشيخ أبو زهرة أيضا [3]: وكانوا أحيانا يعتمدون على القِسىّ بدل المخاصر، ومنهم من كان يتخذ المخاصر فى خطب السلم، والقِسىّ فى خطب الحرب. إشعارا بما ينوى قوله. وليكون لسان حاله متفقا مع مقاله فى الدعوة إلى القتل والقتال.

د- ومن عاداتهم أيضا. رفع أيديهم، ووضعها، وتأدية كثير من أغراضهم بحركاتها- إن كان ثمت داع لذلك. ولم تذهب تلك الحركات بهيبة الخطيب ووقاره ورزانته.

وقد انتقلت كثير من هذه العادات إلى الخطابة فى العصر الإسلامى.

أشهر الخطباء فى الجاهلية :

نقل إلينا أسماء عدد غير قليل من خطباء الجاهلية - وقد اشتهرت بعض القبائل بكثرة الخطباء فيها. كإياد- وعبد القيس.

---

(١) الخطابة صـ ٢٣٧.

(٢) شىء يشبه العصى.

(٣) نفس المرجع السابق.

يقول الجاحظ [1] :

"وشأن عبد القيس عجيب. وذلك أنهم بعد محاربة إياد تفرقوا فرقتين. ففرقة وقعت بعُمان، وفيهم خطباء العرب، وفرقة دفعت البحرين. وشق البحرين. وهم من أشهر قبائل العرب. ولم يكونوا كذلك حين كانوا فى سرّة البادية- وفى معدن الفصاحة وهذا أعجب " ومن أقدم خطباء الجاهلية . كعب ابن لؤى (الجد السابع للنبى ﴿ﷺ﴾ وكان يخطب العرب عامة ويحض كنانة على البِرّ بوجه خاص.

ولما مات كعب. أكبر العرب موته. وأرّخوا به حتى عام الفيل ، ومن خطباء الجاهلية أيضا: ذو الإصبع العدوانى- وسمى بذلك لأن حيّة نهشت إبهام رجله فقطعته ، ومنهم أبو عمار الطائى خطيب مذحج.

ومن الخطباء أيضا النعمان بن المنذر- وخطباؤه عند كسرى. أكثم بن صيفى- وحاجب بن زرازة. وهما من تميم ، والحارث بن عبادة. وقيس بن مسعود ، وهما من بكر، وخالد بن جعفر وعلقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل ، وهم من بنى عامر.

كذلك من خطباء الجاهلية أيضا: عمرو بن الشريد السّلمى. وعمرو بن معد يكرب الزبيدى. والحارث بن ظالم المرى، وكلهم يشار إليه بالبنان فى العرب.

ومن الخطباء الجاهليين أيضا. عبد المطلب بن هاشم. جد النبى﴿ﷺ﴾ أبو طالب عم النبى وقس بن ساعدة الإيادى. خطيب عكاظ وداعى العرب إلى التوحيد. ومنهم عطارد بن حاجب بن زرارة - وقد أدرك النبى ﴿ﷺ﴾ وخَطب بين يديه.

ومع أن خطباء الجاهلية كثيرون كما رأينا، إلا أن المأثور من خطبهم قليل لايتناسب مع تلك الكثرة.

---

(١) نقلا عن كتاب الخطابة لأبى زهرة صـ ٢٣٨.

ولعل السبب فى عدم العثور إلا على القليل من خطبهم. أن معظم هذه الخطب كانت تلقى أمام الملوك. أو فى الاصلاح بين الناس. أو فى النكاح ويتم ذلك مشافهة وارتجالا من غير تدوين- وإذا انقضى المقام حفظه من حفظه، ونسيه من نسيه. بخلاف الشعر الذى كان يسهُل على المستمع إليه استيعابه.

وقد جاء فى صبح الأعشى: إن ماتكلمت به العرب من أهل المدر والوبر. من جيد المنثور. ومزدوج الكلام. أكثر مما تكلمت به من الموزون. إلا أنه لم يحفظ من المنثور عشره وضاع من الموزون عشره.

حتى قال :" ولولا أن خطبة قُسّ بن ساعدة كان سندها مما يتنافسه الأنام- وهو أن النبى ﴿ﷺ﴾ هو الذى رواها عنه- فأطار ذكرها- ولولا ذلك ما تميزت عن سواها. ونستطيع أن نقول: إن أسباب عدم وصول كل خطب وأشعار العرب الجاهليين. يمكن تلخيصه فيما يأتى :

١- أمّية العرب: فلم يكتب العرب على الرقوق. أو ينقشون على الأحجار كما كان يفعل غيرهم من الأمم أصحاب الحضارات.

ولو فعلوا ذلك لوجدنا آثارهم ناطقة بخطبهم. ومحاوراتهم التى تشتمل على القول البليغ والبيان الرائع الآخذ بالألباب.

٢- يصعب على الإنسان استيعاب كل ما يسمعه . ونقله بنصه ولفظه. وخاصة النثر. أما الشعر فإن الوزن يجعل الآذان تنشط لسماعه. والقلوب تميل إلى حفظه.

ومهما يكن من الأمر فما بقى يعطينا صورة للخطابة فى الجاهلية . وإن لم تكن كاملة،كذلك فإننا نستطيع أن نتبين حالها. وإن لم يكن البيان شافيا وافيا.

ثانياً : الخطابة فى صدر الإسلام

تمهيد :

بعد ظهور الاسلام فى الجزيرة العربية ، بدأ الدين يتغلغل فى كل شيء، وصار العرب يعتبرونه الأساس الذى يحرك كل عمل من أعمالهم- وكانوا كلما جد شأن أخذوا حكمه من الدين. إما بنص عليه. أو بتأويل يُردّ إليه. والإسلام كما نعرف دعا إلى الفضائل. وحث الناس عليها، تربية للنفس وتزكية لها. وقد بطلت كثير من العادات الجاهلية. وبدأ العربى المسلم ينظر إلى الحياة نظرة أخرى، لأنه يعرف أن كل عمل من أعماله أو تصرف من تصرفاته يجب أن يكون محدودا بحدود الشريعة الإسلامية . غير مناقض أو مخالف لحكم من أحكامها ، وبعد أن كانت كل فضائل العربى فى الجاهلية شخصية ، إذا بالإسلام يوجهه إلى الفضائل الإجتماعية ليلتئم مع سواه، وبعد أن كانت الشجاعة فى المبارزة والمناضلة للمفاخرة. صارت فى الجهاد فى سبيل الله. لرفع كلمته والصمود برايته، وبعد أن كان الجود من العربى مقصودا به الفخر، صار فى إمداد المجاهدين وسد حاجة المعوَزين. وإعطاء السائل المحروم؛ ابتغاء لمرضاة الله، وحنانا وعطفا على بنى الإنسان.

وكان شيئا طبيعيا أن يطرأ على الخطابة فى الإسلام التغيّر، بسبب تغير الدواعى والأغراض، وبسبب ماطرأ على النفس العربية من تغيّر فى مظاهرها وأحوالها الدينية والاجتماعية والسياسية.

ونستطيع أن نقول : إن العصر الإسلامى كان عصر انقلاب فكرى واجتماعى، والمعروف أن عصور الانقلابات الفكرية والاجتماعية والسياسية تسود فيها الخطابة. حيث يصطدم القديم والجديد. والمألوف مع غير المألوف. ويستغرق الناس بعض الوقت فى تقبل الجديد غير المألوف، حيث تدهش له العقول فى البداية. وتتحيّر بسببه بعض الألباب أمداً طويلاً أو قصيراً.

ويدور صراع نفسي عند المستمع للجديد، بسبب ما ألفه من قديم. وما عرفه من جديد – وينكر الحق كثيرا ممن يرون أن مصلحتهم العاجلة فى التمسك بالقديم والأخذ بأهدابه– كذلك فإن أصحاب النفوس الصافية والقلوب الزاكية يدركون الصواب. ويحاولون دحض الباطل وتمحيص الحق.

والذين يرون مصلحتهم العاجلة فى التمسك بالقديم، يحاولون الدفاع عن مصالحهم بأساليب مختلفة أو حجج كثيرة متعددة ، ويحاولون إبعاد العامة عن الاقتناع بما يدعو إليه أصحاب الجديد مع أنه حق ، ويزيّنون لهم باطلهم بكل الأساليب والوسائل، كذلك أصحاب الجديد. وبخاصة إذا كان حقا واضحا وصوابا مؤكدا. يحاولون الدفاع عما يعتقدونه ويؤمنون به. ويحاولون اجتذاب الجماعة إلى طريقه. وهؤلاء وأولئك يتخذون من وسائل الإغراء مايقنع العامة. وذلك بلسان ذَربْ وبيان رائع ، وبلاغة واصلة إلى أعماق القلوب .

والعصر الاسلامى كما قلنا: كان عصر انقلاب فكرى واجتماعى وسياسى. وقد جاء الاسلام ليدعو إلى ترك كثير من القديم . وبخاصة عبادة الأصنام والأوثان، ويجمع الناس على إله واحد. ويدلّهم على مكان العادات الإسلامية التى يجب أن تحلّ محل عاداتهم الجاهلية ، فكان لابد أن تُفك الألسنة من عقالها. وتندفع هذه الألسنة تنطق بعبارات ملتهبة. وتوقظ القلوب الحائرة.

وإذا كانت الثورة الفرنسية ، وقبلها الثورة الإنجليزية ، قد أطلقت الألسنة بخطب قوية. وألفاظ نارية. فازدهرت الخطابة بهذه الانقلابات التى حدثت فى فرنسا وانجلترا، وكذا بسبب الثورة الأمريكية أيضا، وثورات وانقلابات أخرى قديما وحديثاً، فإن ظهور الإسلام. ودعوة محمد﴿ﷺ﴾ إلى هذا الدين الحق. كان انقلابا سياسيا ودينياً واجتماعياً وفكرياً، ليس فى العرب وحدهم بل فى كل العالم. ولم ير التاريخ له نظيرا . ولابدّ مع هذا أن تكون قد صحبته حركة بيانية خطابية لم تعرف فى أمة من قبل– وكذلك كان – فإنه بمجرد أن صدع النبى ﴿ﷺ﴾ بالحق ودوّى صوته الرهيب الكريم فى بلاد العرب

فأرجاء السهول والجبال- بمجرد أن كان هذا تحرك بعض من العرب (يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم) ، ويصدون الناس عن الهداية بتلبيسهم وتنميق بيانهم، وتزيينهم لمن آمن برسالة الحق والهدى ومعهم رسول الله (ﷺ) وهو الفصيح القرشي، ذو البيان النبوي الكريم، يجادل ويناضل، ويدافع ويصاول، وليس له إلا لسان أيده روح القدس، وحق أوحى الله سبحانه به.

وإذا عرفنا أن الحجة التي كان يُدلي بها برهانا على رسالته ، وحجة لدعوته، هي نوع من الكلام، لكنه أُوحى إلى النبي من فوق سبع سموات، وكلام من عند الرسول الكريم الذي قال فيه ربه : (وما ينطق عن الهوى) وفي القرآن وكلام النبي، المثَل الكامل للبلاغة . إذا عرفت ذلك وعلمت أن العرب قوم اشتهروا بالفصاحة والبيان، علمت أيَّ مقدار من البلاغة قد استفادته الخطابة العربية بالدعوة المحمدية ، وبالرسالة الإسلامية.

أسباب إزدهار الخطابة في العصر الإسلامي وعوامل رقيها

وجدت الخطابة في البيئة الإسلامية عوامل رقي وأسباب تقدم، وكان في أساسها الأول كما قلنا هو التبدل السياسي والديني والاجتماعي، على أساس أن الدعوات الجديدة بحاجة دائمة للخطباء، الذين يقرّبون تعاليمها إلى الناس.

وقد كان النبي (ﷺ) وهو صاحب هذه الدعوة يستعمل الخطابة للإقناع والتبشير والوعظ ، ويؤم الناس عليها في الجمع، والأعياد، ومجالس الرأي، وفي الحشود ، وقد أثبتت لنا الأصول القديمة خطباً له في دعوة بني قومه إلى الإيمان برسالته ، وفي مناسبات أخرى متعددة ، سنشير إلى بعضها في هذا الكتاب إن شاء الله.

ونستطيع أن نقول إن القرآن الكريم،والسنة النبوية المطهرة، قد أثريا الخطابة الإسلامية ثراء كبيرا ؛ فقد كان الخطباء المسلمون يقتبسون كثيرا من القرآن الكريم، إلى حد أن الخطبة التي لاتتضمن آيات من القرآن الكريم

كانوا يسمونها شوهاء[1]، ويقول الجاحظ فى البيان والتبيين[2]:(كانوا يستحسنون أن يكون فى الخطب يوم الحفل، وفى الكلام يوم الجمع ، آى من القرآن الكريم، فإن ذلك مما يورث الكلام البهاء ، والوقار، والرقة ، وحسن الموقع) .

وحين جاء القرآن الكريم هز النفس العربية، وأصاب شغفها، وقد تحدى الله به أعاظم البلغاء من العرب، وهم الذين اشتهروا بالبلاغة والفصاحة، فعجزوا عن أن يأتوا بسورة واحدة منه ولو مفتراه.

وكان العربى المسلم، يستعمل فى خطابته كثيرا من الآيات القرآنية، ليستدل بها على صدق ما يقول، وإذا كان القرآن قد أثر كثيراً فى المناوئين لدعوة الإسلام، حتى قال الوليد فيه وهو المشرك الذى كان يكيد لمحمد «ﷺ» وما يدعو إليه : (إنّ له لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإن أوله مثمر وآخره مغدق، وأنه يُعلى ولا يُعلى عليه) .

إذا كان القرآن قد أثر فى المناوئين كما قلنا. وأصابهم بتحير ودهشة وعجز، فكيف يكون أثره فى الآخذين بهديه ، المقتبسين من نوره؟ لقد أثر القرآن الكريم فيهم أبلغ تأثير ، وأفادت الخطابة منه أعظم فائدة، وجنت منه أكبر الثمرات ، وكانت فائدتها من ثلاث نواحى :

(١) ما اكتسبته اللغة من القرآن من سعة *فى المعنى*، حيث وجد العرب فى القرآن لغة جديدة لم يألفوها ، فقد عُرف عنهم أنهم كانوا قوما حسّيين ولغتهم حسّية ، فجاء القرآن الكريم فأحسن فى وصف النفوس، وصوّر تقلبات القلوب، وخلجات النفس، وما يؤثر فى المشاعر، فدعا ذلك المسلمين إلى الاغتراف من منهله العذب ، وشاعت بينهم الأقوال فى الأمور المعنوية ، وسمت اللغة العربية بهذا القرآن الكريم، وارتفعت إلى مستوى ما كان يتهيأ

---

(١) راجع البيان والتبيين للجاحظ جـ ٢ صـ ٦.

(٢) المرجع السابق جـ ١صـ ١١٧.

لها بغير القرآن الكريم ، وكان لأثر هذا القول فى الأمور المعنوية وحسن تصويرها بالألفاظ أثراً كبيراً فى الخطابة، واضحا جليا لايحتاج إلى تبيان.

(٢) *البعد عن الخشونة* : الأمر الذى اكتسبته اللغة من القرآن الكريم، أن ألفاظه جاءت سهلة متينة خالية من الألفاظ الخشنة الجافة، توصل إلى الغرض بسهولة ويسر، وقد أعجب ذلك قارئيه وسامعيه. فحاكوه فى نهجه. وإن لم يسمو إليه فى قدره، وعرف العرب بعد دخول الإسلام. العبارات السهلة، والأساليب الرقيقة، والتعبيرات المهذبة.

ونستطيع أن نقول: إن ألفاظ اللغة قد استأنست، وتعطرت، وتجملت ألفاظها، بعد أن علّمها القرآن نوعا من التعبير لم تنهجه من قبل، فكان فتحا جديدا فى اللغة بألفاظه وأساليبه كما كان فتحا جديدا فى العالم كله بهديه وتقويمه وتأديبه.

وقد أثّر ذلك ولاشك فى ألفاظ الخطابة تأثيرا كبيرا.

(٣) *ظهور طرق الاقناع الخطابى*: الناحية الثالثة التى اكتسبتها اللغة من القرآن الكريم، نَهْجُ الخطباء لمنهج القرآن الكريم فى الاستدلال، فقد وجدوا فى كتاب الله أبلغ طرق الإقناع الخطابى، لأن أدلة القرآن الكريم اجتمع فيها مالا يمكن أن يجتمع فى أدلة سواها، كيف وهو كلام رب العالمين، وإذا حاولنا أن نقيسه بمقياس العقل والمنطق، وجدنا فى أدلته استقامة المعنى، ووجدنا المقدمات وقد تلاءمت مع نتائجها، وتوافرت فيها شروط الإقناع بالإضافة إلى جمال اللفظ وجودة الأسلوب، ومخاطبة الإحساس وإثارة الرغبة - ففى ألفاظ القرآن الكريم نجد الدقة المنطقية وجمال اللفظ، وقد اجتمعت مع حسن الإيجاز، فتعالت كلمات الله رب العالمين.

وكان لابد لخطباء المسلمين أن يتأثروا بطريقة القرآن الكريم، الذى يرون فى

قراءته وحفظ آياته عبادة تقربهم من رب العالمين ، وأن يروا فى الاقتباس من عباراته فضلا ودليل فهم وعلم. ولذا وجدنا معظم خطباء المسلمين يقتبسون من عباراته ، ويشيع بينهم الاقتباس منه، حتى كان من مزايا الخطبة أن تكون مشتملة على شىء من القرآن الكريم- وقد قلنا قبل ذلك إن الخطبة التى لم توشع بالقرآن وتزين بالصلاة على النبى(ﷺ) كان العرب يسمونها بالشوهاء.

وقد وجد الخطباء المثل الأعلى فى الكتاب العزيز، فنهجوا نهجه فى الإقناع وإقامة الحجة، واقتبسوا من لفظه ، واستعانوا بروحه.

الخطابة والحديث النبوى الشريف

لقد تأثرت الخطابة تأثرا كبيرا بكلام النبى (ﷺ) وعباراته وألفاظه، فكلامه صلوات الله عليه، يلى منزلة القرآن الكريم احتراما وإجلالا- وقد اجتمعت فيه فصاحة اللفظ وجودة المعنى وحسن الأداء- وبلغ من البلاغة الذروة – ووصل من الروعة إلى القمة – لانقول: هو من جوامع الكلم، وإنما هو جوامع الكلم – وفيه روائع الحكم- هو القول الفصل- لافضول فيه ولاتزيّد- وصدق الله القائل : ﴿وما ينطق عن الهوى﴾ فقد كان لكلامه (ﷺ) جلال لاتجده فى سواه ، يقول الشيخ محمد أبو زهرة : [1](لكلامه جلال لاتجده فى سواه، وتحيط به هالة روحية تحس منها بشعاع النبوة، ولو أن كلامه عُرض عليك منسوبا لغيره لأنكرت النسبة ، ورددت الحق إلى نصابه، وقد أثار ذلك روح العجب والإعجاب فى أصحابه، حتى قال له أبو بكر رضى الله عنه : لقد طفت فى العرب وسمعت فصحاءهم، فما سمعت أفصح منك ؟ فمن أدبك؟ فقال عليه الصلاة والسلام :(أدبنى ربى فأحسن تأديبى).

(١) الخطابة صـ ٢٦٢ .

ويستطرد الشيخ أبو زهرة فيقول: (وقد قال الجاحظ فى وصف كلامه ﴿ﷺ﴾: (هو الكلام الذى قلّ عدد حروفه، وكثر عدد معانيه، وجلّ عن الصنعة ونزّه عن التكلف) وكان كما قال الله تبارك وتعالى:

{ قل (يا محمد) وما أنا من المتكلفين } فكيف وقد عاب التشديق وجانب أصحاب التقعير- استعمل المبسوط فى موضع البسط- والمقصور فى موضع القصر، وهجر الغريب الوحشى، ورغّب عن الهجين السوقى ..الخ.

أثر الحديث النبوى فى اللغة العربية :

لقد أضاف الحديث النبوى الشريف إلى اللغة العربية ثروة من المعانى وثروة من الأساليب، وسمع الناس من رسول الله ﴿ﷺ﴾ ألفاظا وأساليب لم تكن معروفة عندهم من قبل، فهى تُعدّ من ابتداعه وابتكاره، مثل قوله ﴿ﷺ﴾:

(حمى الوطيس)وقوله:(المضعف أمير الركب) وقوله:(مات حتف أنفه) وقوله : (هدنة على دخن) وقوله :- (لاينتطح فيه عنزان) وقوله لمن ساق إبلا بعنف وعليها نساء (رويدك، رفقا بالقوارير)(١).

ونستطيع أن نقول : إن الحديث النبوى الشريف قد هذّب اللغة العربية تهذيبا قريبا من القرآن الكريم، إذ سهّل ألفاظها، ورقق أساليبها، فكان لكل هذا أثره فى الخطابة. لأنها شعبة الأدب الأولى فى ذلك العصر بل أعظم شعبه وأظهر مظاهره.

وكما كان الخطباء المسلمون يوشحون خطبهم بالقرآن الكريم ، وينهجون نهجه فى الاستدلال، ويعتبرونه معلما لطرق الإقناع ، فقد كان كثير من الخطباء يرطب ألسنتهم فى خطبهم بشىء مما أثر عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ تيمنا بقوله، واسترواحا للسامعين، بالإضافة إلى إكساب كلامهم روعة، واستشهادهم بكلام النبى ﴿ﷺ﴾ والمعروف أن أكثر خطب ذلك العصر كانت

(١) يراجع كتاب الخطابة - أبو زهرة صـ ٢٦٣.

تدور على مبادىء الدين، وكان المسلمون يحتنون عناية فائقة برواية أحاديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ والاستشهاد بها فى خطبهم ، وإذا صح الحديث عندهم كان فيه فصل الخطاب وبخاصة إذا اعتقد المستمعون أن الخطيب بروايته يتحرى الصواب.

اختلاط المسلمين بالأمم الأخرى :

كسبت الخطابة الإسلامية كثيراً وارتقت بسبب اختلاط المسلمين بالأمم الأخرى، فقد عرف أولئك البدو حضارة وتقدما لم تكن موجودة عندهم فأكسبتهم تلك الحضارة سهولة فى التعبير لم تكن فيهم ، إذ هذبت من طباعهم ، وقللت من جفوتهم وخشونتهم ، وبدأت عباراتهم تلين من غير ضعف أو ابتذال. كما تسببت هذه الحضارة فى سعة خيال العربى وفى غزارة المعانى ومعرفته بما تقتضيه الأحوال.

ولكننا نستطيع أن نقول: إن حضارة الأمم الأخرى لم تستول عليهم استيلاء تاما، وإنما أخذوا منها مايتناسب مع تعاليم دينهم وعقيدتهم، فاجتمعت فيهم قوة البدوى ونخوته، وبعض دماثة الحضرى ورقته، وقد عرف عن العرب أنهم ذووا ذكاء فطرى، وفراسة قوية. بالإضافة إلى معرفتهم معرفة كبيرة بأحوال النفوس، وقد استخدموا كل ذلك فى خطبهم، فبدت هذه الخطب غزيرة المعانى متنوعة الموضوعات ، وافية فيما يقصد إليه الخطيب من غرض وما يتجه إليه من هدف ومرمى.

التنظيم الحكومى والخطابة :

كان من أسباب وعوامل رقى الخطابة الإسلامية وازدهارها بالإضافة إلى ما سبق، تكوين الحكومة الإسلامية ، حيث أصبحت عاملا عظيما من عوامل

اتساع موضوعات الخطابة ، لأن الخطابة كما هو معروف ، هى أداة اتصال الحاكمين بالمحكومين - وقد اتصل الخلفاء بالشعب فى خطبهم العامة ، وكانت هى الأداة التى يُعرض بها أسلوب ووجهة نظر الحكام فى حل القضايا والمشكلات، ولإقناع الناس بصلاحيتهم للحكم، وأحقيتهم لهذا المنصب الجليل الخطير.

وبالخطابة أيضا. اتصل الولاة فى الأقاليم بمن يحكمونهم، وكانوا يبينون لهم ـ من خلال خطبهم ـ ما يجب أن يكون عليه المحكومون من طاعة فى الحق، وإرشاد للحاكم، من غير تمرد أو عصيان، ومن خلال الخطابة أيضا يهددون ويتوعدون، أو يعدُون ويبشرون.

الوعظ الدينى :

وإذا كانت الخطابة فى العصر الإسلامى تعتمد على بعض آي القرآن الكريم ، ويزيّن بعض الخطباء خطبهم بالصلاة على النبى «ﷺ»، إلا أن كثيرا من هذه الخطب لم تكن خاصة بما يسمى فى هذا العصر بالوعظ الدينى، لأن هناك خطبا كثيرة يمكن أن تدخل تحت المسميات والتقسيمات الحديثة للخطبة، كالخطبة السياسية والعسكرية، وغيرها من الخطب الأخرى.

إلا أن خطب الوعظ الدينى والتى قصد بها ترقيق القلوب ودعوتهم إلى مكارم الأخلاق، كان لها الشأن الأول فى الخطابة الإسلامية، لأن الدين هو أساس وحدتهم وجامع كلمتهم ومكون دولتهم- ولذلك كان له الاعتبار الأول- وقد عرف المسلمون أن الدعوة للإسلام هى فريضة على كل مسلم،يجب على القادر عليها أن يقوم بها- وكان المسلمون الأوائل يرون أنهم مطالبون جميعا بالأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويعرفون أن الإسلام قد حث عليه، وجعله قوام علو الأمة، ومناط عزها، وطريق ارتقائها- ولذلك استعمل كثير من المسلمين الوعظ الدينى والخطابة الدينية ، كأسلوب من أساليب الأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر- امتثالا لقوله سبحانه :

(كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر) بالإضافة إلى أن الإسلام قد جعل الخطبة فرضا فى صلاة الجمعة، وفى العيدين، وفى صلوات أخرى كصلوات الاستسقاء وغيرها- ولذلك كان للخطابة من ذلك المبدأ الدينى السامى، مبدأ التواصى بالحق، والتناهى عن الشر، رقيًا أى رقى، وسمّوا عظيما، إذ جعلها الإسلام من شعائر الدين ومظاهره، القويمة.

الفرق بين الخطابة فى الجاهلية والإسلام :

لقد ذكرنا فيما سبق أن ألفاظ الخطابة فى العصر الإسلامى قد صفت وسهلت، ورقت وعذبت، وذلك لتأثرهم بالقرآن الكريم،واقتفائهم طريقه،والسير على منهجه فى التعبير والاستدلال، وتعلّم طرق الإقناع، مع الإقتباس من عباراته- بالإضافة إلى تأثر الخطبة فى العصر الإسلامى ، بكلام النبى الذى اجتمعت فيه فصاحة اللفظ وجودة المعنى- وحسن الصنعة والتنزيه عن التكلف.

أما فى العصر الجاهلى، فقد عرفنا أن البيئة التى كان يعيشها العرب الجاهليون، وحياة التمزق التى دعتهم دائما إلى خوض الحروب المستمرة، بالإضافة إلى حياتهم الصحراوية، وشدة بأسهم وقوة نفوسهم، قد أثّرت كثيرا على ألسنتهم، فاندفعت هذه الألسنة بكلمات تتناسب مع قائليها وأحوالهم وظروفهم، ولذا كانت كثيرا من كلمات خطبهم جاسية شديدة، لأنها كانت تُقال فى الغالب،إما دعوة إلى قتال، أو فى مفاخرة بنزال، أو فى وصف يوم كريهة. كذلك كانت فى كلماتهم ألفاظ غريبة بسبب عدم اعتمادهم على لغة واحدة.

ولما جاء الإسلام وهذب النفوس كما قلنا، ورأى المسلمون مظاهر الترف، وعاشوا شيئا من هذا الترف، وذاقوا النعيم بعد أن أورثهم الله ملك كسرى

وقيصر، وجاءتهم الغنائم من هنا وهناك، لانت ألفاظهم وسهلت عباراتهم، لأن الألفاظ صورة لما يألفه القائل ويعرفه المتكلم- ولذلك ذهب من الألفاظ الغريب الحوشى، باجتماع العرب على لغة واحدة هى لغة قريش . كما أن الخطابة فى الاسلام، اختلفت عنها فى الجاهلية ، فقد كان عماد الخطبة هو المألوف المكشوف، لأن الغاية عندهم كانت تختلف عن الغاية عند العرب الجاهليين، فقد كانت عند الجاهلين كما عرفنا منافرات ومفاخرات وغير ذلك- أما الغاية فى الإسلام، فكانت إما لإفهام السنن والأحكام والشرائع، وإما للحث على الجهاد ، وإما للمشاورة وإبداء الرأى والنصيحة للإمام، وكل هذا يقتضى الوضوح والسهولة، وكانوا بمقتضى تعاليم الإسلام أبعد الناس عن التشادق والتفيهق. والابتعاد عن الإغراب والتوعر.

فقد قال ﴿ﷺ﴾ : (**أبغضكم إلىّ الثرثارون المتفيهقون**) لذلك كان المسلمون يميلون إلى التكلم فى خطبهم بكلام يشبه الكلام العادى فى سهولته وعدم تكلفه، مع انسجام فى التعبير.

المعانى :

جاءت معانى الخطب الجاهلية كما عرفنا عفوية من غير كدّ للفكر، ولا تعمق فى النظر، ونتيجة لفكرة طارئة أو لمحة عارضة- وقد قلنا إنه لذلك جاءت خطبهم غير متماسكة أو مسلسلة الأفكار- كما أنها كانت موجزة فى الغالب الأعم- أما الخطابة فى صدر الإسلام، فقد سلكت مسلكا يتفق مع الحياة الإسلامية فى مظاهرها- هذه الحياة هى التى وجهت الخطابة وجهتها، وهى التى استوحت الخطابة منها معانيها.

وبالإضافة إلى كون هذه المعانى دينية حتى فى خطب الحرب والشورى وغيرها، على أساس أن الدين هو قطب الرحى وعليه يدور كلامهم وهو المسيطر على ضمائرهم، فقد كان الخطباء يسلكون فى الاستدلال الخطابى،

الطريق المنطقى، والطريق الوجدانى، متأثرين بطريق القرآن الكريم فى الاستدلال- آخذين من معانيه مسترشدين من هديه.

من هنا كانت المعانى قوية التأثير فيمن يخاطبون، إذ توافرت فيها شروطه، وتكاملت أسبابه- وهما الدقة فى الفكر، والاستنباط، وإثارة العاطفة ، وإنها من العزيمة.

وكانت المعانى مسلسلة متصلة الأجزاء، محكمة الأواصر- ولم تكن منتشرة كما كانت فى العصر الجاهلى- ونرى ذلك الإحكام والتماسك واضحا كل الوضوح، فى أكثر خطب ذلك العصر، خصوصا خطب الإمام علىّ (رضى الله تعالى عنه).

وزيادة على تماسك أجزاء الخطبة فى العصر الإسلامى، فإننا لانجد فى هذه الخطب شيئا من المبالغة والإغراء، لأن الخطباء الإسلاميين من العرب، امتازوا بالصراحة والصدق- بالإضافة إلى امتيازهم باستقامة الفكر وسلامة النفس- لأنهم كانوا يعرفون أن الإغراق ليس إلا مظهرا للشطط الفكرى، ومجاوزة حد الاعتدال البيانى، فهو نوع من التفيهق الذى نهى عنه الدين- ولهذا باعدوه وتجافوا عنه.

الأسلوب :

لما كانت الخطابة عند الجاهليين تأتى نتيجة اللمحة العارضة،والفكرة الطارئة ، ويُلقيها الخطيب عفو الخاطر، من غير كدٍّ للفكر، ولاتعمق للنظر- جاءت كما قلنا غير متماسكة الأجزاء أو الأفكار- ولذا لم يكن فى هذه الخطب حسن افتتاح أو تنسيق للموضوع، أو تجزئة له، مع عدم اهتمام بالاختتام ومحاولة تحسينه، لأن ذلك يأتى حين يُحبّر الخطيب خطبته، ويجهز كلامه ويُهيؤه ويُعدّه- وعدم تماسك الخطبة وتنسيقها يؤثر كثيرا على أسلوبها لأن المعنى مرتبط بالأسلوب.

إلا أن الإسلوب الخطابى فى صدر الإسلام، بلغ من الإحكام مبلغا ندر أن يحاكيه فيه عصر من عصور اللغة - أو يصل إليه خطباء أي زمن سابق أو لاحق لذلك العصر.

فالخطبة صارت مجزأة ومقسمة ، وكل قسم يرتبط بما سبقه، وتبتدىء الخطبة بمقدمة. فيها يحمد الخطيب الله سبحانه وتعالى، ويثنى عليه بما هو أهله- ويصلى على النبى ﴿ﷺ﴾. ثم يدخل على الموضوع فيقدم ما يراه دليلا لدعواه. وبرهاناً لما يراه- وبعد أن يتم القول فيه ، يتوجه إلى الله سبحانه يدعوه أن يوفقه إلى الرشاد ويلهمه السداد.

ولاشك أن هذا الأسلوب هو من أفضل الأساليب وأحكمها، وبخاصة أننا عرفنا قبل ذلك، أن أكثر الخطباء كانوا يقتبسون من القرآن الكريم والحديث النبوى الشريف، وفيهما من البلاغة،والفصاحة،والروعة،والأسلوب الرائع المحكم، مالا يستطيع أحد أن ينكره- فقد اكسب اقتباس الخطيب منهما فى خطبته طلاوة وحلاوة، وقوة تأثير ورنينا فى الآذان، وارتفعت الخطبة بالاقتباس منهما إلى الذروة من البيان والقمة من التأثير، بالإضافة إلى بلوغ المقصد من أقصر طريق.

الإيجاز والاطناب :-

وإذا كنا قد قلنا في الخطابة الجاهلية أنه لم يوجد فى المأثور عن العرب الجاهليين خطبة طويلة ، وكانت كلها خطبا موجزة. وقلنا إنه ربما كان الذى قد وصل إلينا هو جزء من خطبة طويلة عَلِق بعضها بالقلوب، وذهب أكثرها فى ضلال النسيان للراوى.

فإن عصر صدر الإسلام يتفق مع العصر الجاهلى فى هذه الناحية ، لأن أكثر الخطب المروية عن هذا العصر قصير لاطويل، ويظهر فى هذه الخطب الإيجاز أكثر من الإطناب، ويمكن أن نعلل السبب فى ذلك بنفس الأسباب

التى قيلت فى الخطب الجاهلية، أى أن هذا الذى وصل إلينا هو جزء من خطبة طويلة حفظها الرواة ، وتبعثر الباقى فى الأسماع- أو لعل الموجز من الخطب هو الذى استطاع أن يحفظه الراوى ، لسهولة حفظه وجودته أكثر من سواه - إذ لم تكن الكتابة قد انتشرت أيضا فى صدر الإسلام كما كان فى العصر الجاهلى، بالإضافة إلى أن خطباء هذا العصر أيضا لم يعمدوا إلى كتابة خطبهم- ولم يعمد الناس إلى كتابتها لعدم اعتيادهم ذلك.

وهذا لايعنى أنه لاتوجد خطب طويلة فى عصر صدر الإسلام - فقد وصل إلينا خطب طويلة كخطبة الوداع المنسوبة إلى النبى ﴿ﷺ﴾، وكثير من خطب الإمام علىّ (رضى الله عنه) والتى صحت نسبتها إليه، وبعض خطب الخليفة عثمان (رضى الله عنه) عندما اندلعت نيران الفتنة ، وخطب أخرى للفاروق عمر (رضى الله عنه) - كخطبته فى أرض سواد العراق.

وكلُّ هذا يثبت أن خطب ذلك العصر كان فيها القصير والطويل ، وإن كانوا أميل إلى الإيجاز أخذا بآداب الدين، وتمسكا بأوامره- ولايطيلون إلا عندما تضطرهم الحاجة إلى الإطالة.

يُروى أن عمار بن ياسر رضى الله عنه تكلم يوما فأوجز، فقيل له : لو زدتنا ؟ فقال : أمرنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ بإطالة الصلاة وقصر الخطبة. كذلك ورد فى وصية أبى بكر ليزيد بن أبى سفيان حين وجهه لفتح الشام قال :-

(إذا وعظت جندك فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضا) [1].

---

(١) راجع هذا الموضوع فى كتاب الخطابة الإمام أبو زهرة من صـ ٢٤٧: صـ٢٧٣.

هدى النبى صلى الله عليه وسلم فى خطبه

لقد عرف عن النبى ﴿ﷺ﴾ أنه كان يخطب على الأرض، وعلى المنبر، وعلى الناقة ، وكان منبره ﴿ﷺ﴾ ثلاث درجات. ولم يكن المنبر فى وسط المسجد ، وإنما كان يقع فى الجانب الغربى من المسجد قريباً من الحائط . وكان بينه وبين الحائط قدر ممر الشخص.

وكان النبى ﴿ﷺ﴾ إذا خطب احمرت عيناه ، وعلا صوته ، واشتد غضبه كأنه منذر جيش يقول: صبحكم ومساكم، ويقول بعثت أنا والساعة كهاتين ، ويقرن بين أصبعيه السبابة والوسطى ، ويقول :

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدى هدى محمد . وشر الأمور محدثاتها ، وكل بدعة ضلالة ، وكل ضلالة فى النار . ثم يقول :

" **أنا أولى بكل مؤمن من نفسه ، من ترك مالاً فلأهله ، ومن ترك ديناً أو ضياعاً فإلىّ وعلىّ** ".

وكان لايخطب خطبة إلا افتتحها بالحمد لله، ويخالف ابن القيم الجوزية [1] مايقوله كثير من الفقهاء من أنه كان يفتتح خطبة الاستسقاء بالاستغفار، وخطبة العيدين بالتكبير ، ويرى أن ذلك لم يثبت عن النبى ﴿ﷺ﴾ وأن سنته تقتضى خلافه وهو افتتاح جميع الخطب بالحمد لله [2].

وكان ﴿ﷺ﴾ يتشهد فى خطبه بعد الحمد والثناء ، ويذكر نفسه باسمه العلم [أى باسم محمد ﴿ﷺ﴾]. وكان يقول بعد الثناء والتشهد: أما بعد.

---

(١) راجع زاد المعاد ابن القيم الجوزية ، ص ١٨٦ جـ ١ ، وقد رواه مسلم فى باب تخفيف الصلاة والخطبة والنسائى جـ٣ ص١٨٨.

(٢) المرجع السابق .

وكان يختم خطبته بالاستغفار. وكثيراً ماكان يخطب بالقرآن ففى صحيح مسلم عن أم هشام بنت حارثة قالت :

" ما أخذت " **ق والقرآن المجيد** " إلا عن لسان رسول الله ﴿ﷺ﴾ يقرؤها كل يوم جمعة على المنبر إذا خطب الناس " (١).

وكان يُكثر من ذكر الله ، ويختار الكلمات الجامعة ، وكان يقول فى خطبه :" أيها الناس إنكم لن تفعلوا كل ماأمرتم به، ولكن سددوا وأبشروا ".

وكان يعلّم أصحابه فى خطبه قواعد الإسلام وشرائعه ، ويأمرهم وينهاهم فى خطبته إذا عرض له أمر أو نهى .

دخل سليك الغطفانى وهو يخطب فجلس ، فقال له : قم ياسليك ، فاركع ركعتين وتجوّز فيهما (أى خفّف فيهما) .

ورأى رجلاً يتخطى رقاب الناس فنهاه عن ذلك وأمره بالجلوس .

وكان أحياناً يقطع خطبته إن عرض عارض. أو كانت هناك حاجة لقطعها، بل كان يجيب من يسأله من أصحابه وهو فوق المنبر ثم يعود ﴿ﷺ﴾ إلى خطبته فيتمها. بل ربما نزل عن المنبر للحاجة ، ثم يعود فيكمل الخطبة ويتمها.

ورد أن الحسن والحسين رآهما النبى ﴿ﷺ﴾ - وهو فوق المنبر - يعثران فى قميصين أحمرين فقطع كلامه ، ثم نزل من فوق المنبر فحملهما ، ثم عاد إلى منبره ، ثم قال :(صدق الله العظيم ، " **إنما أموالكم و أولادكم فتنة** " ، رأيت هذين يعثرين فى قميصيهما فلم أصبر حتى قطعت كلامى) .

وكان النبى ﴿ﷺ﴾ ينادى الرجل وهو فى خطبته ويقول :" **تعال ، اجلس يافلان صلّ يافلان**" وكان يأمر الناس بالدنو منه ، والإنصات إليه، ويخبرهم أن الرجل إذا قال لصاحبه : انصت فقد لغا، (أى عدل عن الصواب)

(١) رواه مسلم فى الجمعة : باب تخفيف الصلاة والخطبة ٨٧٣ ، كذلك رواه أبو داوود ١١٠٢ والنسائى ١٥٧/٢.

ويقول : " من لغا فلا جمعة له ".

وكان النبى ﴿ﷺ﴾ يأمر بمقتضى الحال فى خطبه ، ويحض الناس على مايرى فيه مصلحتهم من أمر أو نهى .

وكان النبى ﴿ﷺ﴾ يشير بأصبعه السبابة فى خطبته عند ذكر الله ودعائه ، ولم يكن يأخذ بيده سيفاً أو خلافه ، وإنما كان يعتمد على عصا أو قوس قبل أن يتخذ المنبر.

وكان النبى ﴿ﷺ﴾ يخطب فى الجمعة قائماً ووجهه قبل الناس (أى فى مواجهتهم).

وكان بعد خطبته الأولى يجلس جلسة خفيفة. ثم يقوم فيخطب الثانية ، فإذا فرغ منها أخذ بلال فى الإقامة.

أما خطبته فكان يقصرها أحياناً ، ويطيلها أحياناً أخرى بحسب حاجة الناس.

وكانت خطبته العارضة أطول من خطبته الراتبة .

وكان يخطب النساء على حدة فى العيدين، ويحرضهن على الصدقة. وكان يبدأ فيهما بالصلاة قبل الخطبة. فيصلى أولاً ثم يقوم مقابل الناس وهم جلوس فيعظهم ويوصيهم ويأمرهم وينهاهم.

وكان النبى ﴿ﷺ﴾ إذا رقى المنبر أخذ بلال فى أذان الجمعة.ولم يكن إلا أذان واحد، فإذا أكمله أخذ النبى ﴿ﷺ﴾ فى الخطبة. ولم يثبت أن أحداً من الصحابة كان يقوم ليركع ركعتين كما هو معروف الآن بعد الأذان.

أما خطبته ﴿ﷺ﴾ فقد كانت بياناً لأصول الإسلام ، من الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ولقائه وذكر الجنة والنار. وما أعده الله لأوليائه وأهل طاعته ، وما أعده لأعدائه وأهل معصيته ، فيملأ القلوب ـ من خطبته ـ إيماناً وتوحيداً ومعرفة بالله وأيامه.

ولو رجعنا إلى خطب النبى ﴿ﷺ﴾ ودققنا فى موضوعاتها لوجدنا أنها تختلف كثيراً عن خطب كثير ممن يصعدون المنابر اليوم ، الذين لاهمّ لهم إلا النوح على الحياة والتخويف بالموت ، لأن هذا لايمكن أن يملأ القلب إيماناً بالله ولا توحيداً له ، ولامعرفة خاصة به ، ولذا لم يفعله النبى ﴿ﷺ﴾ ، كما أن السامعين لأولئكم الذين ينوحون على الحياة.ويكثرون من التخويف بالموت والعذاب. سيخرجون من المساجد ولم يستفيدوا شيئاً. إلا أن يعرفوا أنهم يموتون وتقتسم أموالهم ، ويُبلى التراب أجسامهم، ولن يحصل إيمان بهذا على الإطلاق [1].

موضوع الخطابة النبوية :

عرفنا أن الخطابة هى أسلوب من أساليب الدعوة الإسلامية ، بل هى الفن الذى اعتمدته الدعوة الإسلامية وسيلة أولى للنشر والتبليغ، ذلك لأن الخطابة هى الوسيلة المثلى للتأثير والاستمالة ، وقد عرفناها قبل ذلك بأنها (فن مشافهة الجماهير وإقناعه واستمالته). ولذا فقد اتخذها النبى ﴿ﷺ﴾ منهجاً له فى كثير من الحالات ، ولم تكن خطب النبى ﴿ﷺ﴾ مقصورة على المسجد وحده ، ولا أيام الجمع فقط، وإنما كان يخطب أيام الجمع وأيام الأعياد ، وفى المجتمعات ووسط الجنود، وأمام المتخاصمين.

وقد دارت الخطابة النبوية فى موضوعات كثيرة من أهمها ما يأتى :

١- الدعوة إلى الإسلام

تدور أغلب الخطب النبوية فى دعوة الناس إلى الدخول فى دين الله ، وترك

---

(١) (راجع هدى النبى ﴿ﷺ﴾ فى خطبته فى كتاب زاد المعاد لابن القيم الجوزيه الجزء الأول ص ١٨٤- ١٩١.

عبادة الأصنام باعتبار أنه صاحب دين جديد . ولذا فقد بدأ ينادى الناس عند بداية جهره بالدعوة ، وكانت خطبته الأولى المشهورة. حين وقف على الصفا ينادى قومه ويدعوهم إلى الإستماع إليه، والإيمان بما جاء به من دين يدعو إلى الوحدانية. وينهى عن عبادة الأصنام والأوثان.

وكان النبى ﴿ﷺ﴾ يستقبل الوفود . ويخطب فيهم. ويختار من الألفاظ ما يستثير به حماسهم ، ويستجلب به وُدّهم ، ويستولى به على عواطفهم ، ويُقنع به عقولهم.

وإذا كان قد عرف أن العرب قوم صناعتهم القول، وحديثهم الخطابة فإن رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان أكثر العرب بلاغة، وأقواهم حجة ، وأصدقهم حديثاً.

وكان يأتى من يدعوهم من حيث يؤتون ، ويخاطبهم من حيث يتأثرون ويفهمون ، ونستطيع أن نقول: إن موضوع الدعوة إلى الإسلام شغل غالب الخطابة النبوية فى العصر المكى، فقد كان النبى ﴿ﷺ﴾ يدعو إلى الأصل والأساس لهذه الدعوة الكاملة الشاملة ، ولذا كان يرتكز على جانب العقيدة والدعوة إلى التوحيد. فى هذه الفترة التى طالت إلى ثلاثة عشر عاماً، بل نستطيع أن ندعى: أن الخطابة النبوية فى هذا العصر. لم يتخط موضوع الدعوة إلى الإسلام إلى غيره من الموضوعات الأخرى. لأنه هو الهدف الأساسى. الذى كان يجب أن يركز عليه فى هذه الفترة، وكان العرب يأتون إلى مكة من شتى البقاع حاجين أو متاجرين. وكان رسول الله ﴿ﷺ﴾ ينتهز هذه الفرصة ويخطبهم ، ويدعوهم إلى الدخول فى دين الله .

ونلاحظ أن النبى ﴿ﷺ﴾ كان يبدأ كل خطبه بالحمد لله والتشهد والصلاة على النبى ﴿ﷺ﴾. وتلك هى أساسيات الدعوة الإسلامية أى أننا نستطيع أن نقول إن خطب النبى ﴿ﷺ﴾ فى الفترة المكية كانت تعتمد على جانب العقيدة.أى الجانب العقدى باعتباره الأصل والأساس.

ويمكن أن يُرد بهذا على المستشرقين الذين ادعو أن رسول الله ﴿ﷺ﴾

تغيرت دعوته فى المدينة عنها فى مكة. حيث كان متفرغاً فى مكة للدعوة إلى دين إبراهيم، وفى المدينة انشغل بقضايا دنيوية أخرى. طغت على دعوته إلى التوحيد. وأصبح مشغولاً بالحروب ، حريصاً على أن يجمع الأسلاب والغنائم (هكذا قالوا).

والحقيقة أن النبى(ﷺ) بدأ بالأصل والأساس الذى تنبنى عليه دعوته الكاملة الشاملة. ثم بدأ بعد ذلك فى التركيز على مايتفرع عن هذا الأساس. كالجوانب الاجتماعية. والسياسية. والاقتصادية .. إلى آخره.

٢- التشريع

بعد هجوة النبى (ﷺ) إلى المدينة المنورة.واستقرار المسلمين فيها وقيام الدولة الإسلامية المنظمة.كان لابد من وضع القواعد والتشريعات لهذه الدولة. والتى تعتبر هذه التشريعات جزءاً أساسياً فيها، أو هى التطبيق العملى لدعوة التوحيد، وكان لابد من أن تصل هذه التشريعات للناس جميعاً. من خلال النبى (ﷺ)، ومن خلال أصحابه الذين يأمرهم رسول الله (ﷺ) بتعليم الناس إياها.

وخطب النبى (ﷺ) التشريعية. هى جزء من دين الله ، الذى يجب على النبى أن يدعو الناس إليها، وأن يعلّمهم إياها، وأن يشرح لهم بالقول والعمل حقيقتها، وكانت خطب التشريع النبوية بياناً للقرآن الكريم. عن طريق التقسيم والشرح والبسط.

وهناك خطب كثيرة لرسول الله (ﷺ) من هذا النوع ، وتعتبر خطبة الوداع وخطبة تبوك من خطب هذا النوع التشريعى.

٣- الدعوة إلى الجهاد

المعروف أن الجهاد ركن من أركان هذا الدين، وأن المسلمين مطالبون بالدفاع عن أنفسهم وعن دينهم وعن دعاتهم. وقد كتب الله عليهم القتال، وأمرهم بإعداد القوة. والاستعداد لمن يفكر فى غزوهم أو الاعتداء على دينهم وعقيدتهم.

والإنسان بطبعه يكره الحرب، ويتمنى عدم ملاقاة العدو، ولذا فإن رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان يعرف أن المسلمين فى حاجة إلى خطباء ووعاظ يخطبون الجنود ، ويحرضونهم على القتال والجهاد فى سبيل الله. حتى لاتستباح ديارهم وأموالهم ، ولكى يتمكنوا من نشر الدعوة فى حرية وأمان، ولذا وجدناه ﴿ﷺ﴾ يخطب فى المسلمين يحضهم على القتال والجهاد فى سبيل الله. بالإضافة إلى اختياره لعدد ممن اشتهروا بهذا اللون (الخطابة العسكرية).

واستمر الأمر على ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين. الذين كان فى عهدهم وعاظ مبرزون. وخطباء معروفون. يقومون بدور كبير فى تقوية الروح المعنوية فى الجيوش المحاربة ، وكان من أشهر هؤلاء الوعاظ. ثلاثة من صحابة النبى ﴿ﷺ﴾ هم :-

- المقداد بن الأسود الذى كان يتلو على الجنود سورة الأنفال.
- أبو هريرة الذى كان يروى للجنود أحاديث النبى ﴿ﷺ﴾ فى فضل الجهاد وفضل الشهادة فى سبيل الله.
- أبو سفيان بن حرب الذى كان يقص على الجنود القصص الحربية للأبطال الحربيين.

٤- التعليم والوعظ

وصلت إلينا كثيراً من خطب النبى ﴿ﷺ﴾ فى هذا الموضوع ، ووجدنا كثيراً من خطبه تدعو العرب إلى ترك نخوة الجاهلية وتفاخرها بالآباء. ودعوتها إلى اكتساب المال. وصرفه فى المصرف الحلال، ودعوته إلى الاتحاد والتعاون والتناصر بين المسلمين ، مما يدل على أن هذا الجانب الدعوى. كان من بين موضوعات الخطابة التى استعملها رسول الله ﴿ﷺ﴾ مع أصحابه. وكأنها لفتة من النبى ﴿ﷺ﴾ لأتباعه من بعده أن يركّزوا هم أيضاً على هذه القضايا وأن تتضمنها خطبهم ومواعظهم.

٥- الموضوعات الاجتماعية

الإسلام دين الحياة ، بل هو الحياة كلها بجميع دقائقها وتفاصيلها، وإذا كنا نقول بأن الإسلام نظام إلهى كامل، شامل لكل نواحى الحياة ، وأنه بالإضافة إلى الجانب العقدى يشتمل على الجانب الاجتماعى والسياسى والاقتصادى، فمما لاشك فيه. أن الخطابة يجب أن تتضمن كل هذه الأمور، وقد تميزت الخطابة النبوية. بأنها كانت تشارك الناس فى حياتهم ونشاطهم. فلم يكن النبى ﴿ﷺ﴾ بعيداً عن الناس ومشكلاتهم. وقضاياهم العامة والخاصة. ولذا فإن النبى﴿ﷺ﴾ كان يخطب الناس. ويتعرض فى كلامه لمشكلاتهم، ويقدّم لهم الحلول المناسبة لهذه المشكلات. ولايتصور أن يكون الناس فى جانب، ورسولهم الذى جاء من عند ربه برسالة يصلح بها دينهم ودنياهم فى جانب آخر، يحرص على قضايا بعيدة عنهم. أو يتحدث فى أمور لاتهمّهم أو تعنيهم، وإذا كان قد ثبت أن رسول الله ﴿ﷺ﴾ كان يضمّن معظم خطبه كثيراً من آى القرآن الكريم. أو يقرأ عليهم سوراً بأكملها فى خطبه الشريفة. فقد كانت هذه الآيات وهذه السور. تتضمن كثيراً من قضايا الناس ويستطيع العربى أن يفهم معانيها ومغازيها. حتى من غير أن تشرح له ، أو

يعلق عليها.

ونستطيع أن نقول : إن الخطبة النبوية اشتملت على كافة الأغراض. لأنها جميعاً لاتخرج عن إطار الرسالة الإلهية ، والإسلام كما قلنا: دين ودنيا، فقد اشتملت كثير من خطب الرسول ﴿ﷺ﴾ على قضايا الزواج. والطلاق. والبيوع. والرهان. وكل ما يتعلق بحياة الناس الإجتماعية. على مستوى الأسرة والدولة ، وصدق النبى ﴿ﷺ﴾ حين قال :" **إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق** ".

وقد اختفت - بعد ظهور الإسلام - الخطب التى تدعو إلى التنافر والتفاخر، ولم تكن الخطابة النبوية مجال مباهاة. أو موضوع افتخار. أو مصدر تشدق وتيه ، وإنما كانت حرباً على ذلك كله ، ولذا جاءت خالية من الثرثرة والتطاول والسفسطة وأصبحت بحق مثالاً للخطبة الملتزمة بهدفها، المنطقية فى حقيقتها، الأمينة فى جميع صورها وكافة ألوانها، مما جعلها النموذج الأمثل للخطبة الواجبة الاتباع.

٦- *التذكير بالآخرة*

لم تخل خطب النبى ﴿ﷺ﴾ من تذكير الناس بالآخرة ، لأن من شروط الإيمان.الإيمان بالبعث. والدار الآخرة هى محرّكة النشاط الدنيوى، لأن التصور الحقيقى للصلة بينهما. هو أن الدنيا معبّرة للآخرة ، وهى دار الابتلاء والاختيار، وإذا كنا قد وجدنا أن النبى ﴿ﷺ﴾ كان يركز على هذا الموضوع فى خطبه. فلا يعنى هذا أنه كان يذكّرهم بالآخرة عن طريق التخويف والترهيب فحسب. كما يفعل بعض الناس فى هذا العصر، وإنما يذكرهم بما ينتظر المؤمنين منهم فى الآخرة من نعيم مقيم وفضل عظيم ، وما ينتظر الناس جزاء ما قدموا من عمل صالح لترغيبهم فى أعمال الخير، والبعد عن سفاسف الأمور.

خصائص الخطبة النبوية

تميزت الخطبة النبوية بخصائص يمكن لنا تحديدها فيما يأتى:-

١- الإيجاز

تميزت خطب النبى ﴿ﷺ﴾ بالإيجاز غير المخلّ، أى الإيجاز المشتمل على المعنى بدقة. فقد أوتى النبى ﴿ﷺ﴾ جوامع الكلم. وقد تمكن النبى ﴿ﷺ﴾ من ذلك بسبب اهتمامه بالموضوع الذى يخطب فيه، ومع أنه ﴿ﷺ﴾ كان نبيّاً مرسلاً ملهماً. كلامه وحى، ولسانُه ينطق بالصدق، يلقى الله عليه الألفاظ التى قد لا يستطيع عامة الناس أن ينطق بها، ولا أن يضاهيه فى ذكر مثلها. إلا أنه ﴿ﷺ﴾ كان بالرغم من ذلك. يشغل نفسه بإعداد خطبته. واختيار الألفاظ المناسبة لها. لأنه يعلم أن صحابته سيتداولون حديثه، وسيلتزمون بمنطقه، ونص كلامه، يعلم أن كل ما سيقوله هو شرع لأمته، باقٍ على الزمن كله.

وقد كان هذا الاهتمام من النبى ﴿ﷺ﴾ يجعل كلامه وافياً بالغرض،مع هذا الإيجاز المتقن الجامع للمعنى، المشتمل على كل ما يقصده ويريده. فقد كان النبى ﴿ﷺ﴾ يقتصد فى ألفاظه. ويقلل من كلامه. مكتفياً بإحاطته بالمعنى. وكان ذلك بسبب غلبة فكر النبى﴿ﷺ﴾ فى موضوعه، وحين يلقى النبى﴿ﷺ﴾ كلامه فإن المستمع إليه يحس وكأن ألفاظه ﴿ﷺ﴾ حركات نفسية. وليست حروفا منطوقة، ولولا أنها تُسمع. لقلنا إنها نوع من نجوى القلب، وإلهام الروح، وليس كل الناس يستطيع أن يوجز مع الإتقان الجامع للمعنى، فالإيجاز ظاهرة بلاغية تدلّ على الإعداد الدقيق. لأن الإيجاز هو قوة فى التعبير، وهو امتلاء فى اللفظ، وشدة فى التماسك، وهذه صفات تلازم قوة العقل وقوة الروح وقوة الشعور. وكان ذلك دائماً وأبداً عند رسول الله ﴿ﷺ﴾ الذى كان يستحضر هذه القوى فى الإيجاد والتعبير، وإذا كان الذى يتمكن من ذلك. يدلّ على قدرة صاحبه على دلالة الإيجاز، ومقدار اعتنائه بموضوعه،فمن

يضاهي رسول الله «ﷺ» أو يساويه في هذا القدر،وهو الذي قال فيه ربه :

" وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحى ويوحى ".

انظر مثلاً إلى قوله«ﷺ» في أول خطبة خطب فيها قومه: (إن الرائد لا يكذب أهله) ثم انظر إلى قوله في هذه الخطبة أيضاً : (والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم).

حين قال النبى لهم :(**إن الرائد لايكذب أهله**) خاطبهم بالتأكيد الذى يستعمله العرب للتصديق على من ينكر، ثم بين لهم في هذه الجملة القصيرة قضايا كثيرة، بين لهم منزلته منهم ، فهم أهله، والأهل هم أولى الناس بالاتباع، ولأنه ابنهم ومنهم. فهو أول من يقصدهم بالخير الموجود عنده ، وهو بالنسبة لهم جالب المنفعة لأنه رائدهم، والآخذ بيدهم إلى المنافع والمصالح.

وأما قوله :(**والله لو كذبت الناس جميعاً ما كذبتكم**) فالذى ينظر إليها يرى فيها القَسَم. وفيها بيان حبه لهم. وحرصهم الشديد عليهم. أكثر من حرصه على سائر الناس.

وعلى هذا النمط أكمل النبى خطبته الأولى. التى كانت مع قصرها مشتملة على تأكيد عدد من القضايا. ذُكرت في كلمات قصيرة موجزة ، إذ بين لهم أن الموت لاحِقٌ بهم لامحالة. وهو كالقوم، وبيّن لهم أنهم مبعوثون يوم القيامة للسؤال والحساب ، وشبه ذلك بالاستيقاظ من النوم ، ثم بين لهم أنه مرسل لهم من الله خاصة. وإلى الناس كافة.

لقد كان هدف هذه الخطبة هو إخبار العرب برسالته ليؤمنوا به، ويدخلوا فى دين الله . وقد قدّم لهم فى هذه الخطبة القصيرة الموجزة. بيان صدقه، وكرر ذلك وأكده ، ثم ذكر لهم ما جمعهم من أجله ، ولذلك أسقط فى أيديهم، ولم يجد معارضة من أحد. وعلى نمط هذا الإيجاز جاءت غالب الخطب النبوية.

أما ما ورد منها مطولاً فقد كان له دواعيه. كخطبة تبوك. لأنها كانت قبيل المعركة ، وقد أراد النبى «ﷺ» أن يرفع معنويات الجنود، وأن يدفعهم

للاستعداد النفسى للقتال. بالإضافة إلى ذكر مجموعة من الأمور التشريعية ، وكذلك أيضاً خطبة الوداع. التى تمثل أسساً تشريعية. فقد أطال النبى فيها على غير عادته ، حيث خطبها ﴿ﷺ﴾ فى الجمع الحاشد لحجاج عام الوداع.

ولذلك يسميها البعض. خطبة التشريع. أو خطبة البلاغ.

ومع تنوع أقسامها . فإن الخطبة كانت ذات موضوع واحد .

٢- السمو الجمالى

تتميز الخطبة النبوية بالنزعة الجمالية الواضحة فى كلماتها وألفاضها ، وفى موسيقاها ، بل فى حروف الكلمات ذاتها ، وفى تأثير هذه الكلمات والمعانى فى النفوس، وعلى الرغم من أنها كانت تبدأ بالحمدلة والتشهد. إلا أن هذه البدايات كانت تتمثل فى سمة رائعة ، وصورة أخاذة مشرقة مبهرة ، حيث نشاهد الأسجاع القوية المتواترة. المتآلفة المبدعة. حتى يخيل لمن يسمعها . أنها تأخذ مكاناً وسطاً بين القرآن الكريم. والنثر الأدبى الخطابى. بل بلغت ألفاظ وكلمات وخطب النبى﴿ﷺ﴾ مبلغاً جعلت كثيراً من المسلمين لايستطيعون التفريق بسهولة بينها وبين آى القرآن الكريم .

وربما كان هذا من أسباب منع النبى ﴿ﷺ﴾ صحابته من كتابة ما يلقيه من كلمات، وما يخرج من فمه من قضايا وأحكام. حتى لايختلط كلامه بكلام القرآن.

وإذا نظرنا إلى مقدمة من مقدمات خطبه ﴿ﷺ﴾ كمقدمة خطبة الوداع مثلاً لوجدنا فى هذه المقدمة مع الموسيقى اللفظية المؤثرة، الأداء الذى يتضمن المعانى الإنسانية العميقة. بالإضافة إلى المحافظة على مقدمة الخطبة الوعظية. استمع إلى قول النبى ﴿ﷺ﴾ فى هذه المقدمة وهو يقول:

" إن الحمد لله ، نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا " ولم يكن السمو الجمالى وقفاً على تقديم الخطبة إنما اشتمل على بقية أجزائها .

والمتصفح لخطب النبى ﴿ﷺ﴾ يرى ذلك بوضوح، ويجد الموسيقى اللفظية المتضمنة للمعانى العميقة. وكان النبى ﴿ﷺ﴾ يبدأ بعض خطبه بالاستفهام، ويستعمل كثيراً من المثيرات النفسية. من استفهام. وتخصيص. وتقريع. وتذكير بنعم الله ، إلى إقرار بالمزية والفضل، وكل ذلك فى روعة جمالية ، وسموّ لفظى جميل.

يتضح ذلك جيداً فى خطبته ﴿ﷺ﴾ فى الأنصار حين أعطى النبى ﴿ﷺ﴾ مغانم حنين لقبائل العرب ولقريش. ولم يعط الأنصار شيئاً، فحزنوا فى أنفسهم وظنوا أنهم هانوا على رسول الله ﴿ﷺ﴾ حتى قال قائلهم : لقى والله رسول الله قومه ، فدخل سعد بن عبادة على رسول الله وقال : يا رسول الله ، إن هذا الحى من الأنصار قد وجدوا عليك فى أنفسهم. لما صنعت فى هذا الفىء الذى صنعت، حيث قسمت فى قومك، وأعطيت عطايا عظاما فى قبائل العرب ، ولم يكن فى هذا الحى من الأنصار شىء. قال : فأين أنت من ذلك يا سعد ؟

قال : يا رسول الله ما أنا إلا من قومى. فقال النبى﴿ﷺ﴾ : فاجمع لى قومك ، فلما جمعهم أتاهم وخطبهم. فحمد الله وأثنى عليه بالذى هو أهل له. ثم قال :

(**يا معشر الأنصار، مَا قَالَةٌ قد بلغتنى عنكم؟ وموجدة قد وجدتموها فى أنفسكم ؟ ألم آتكم ضلالاً فهداكم الله ، وعالة فأغناكم الله ؟ وأعداء فألف الله بين قلوبكم** ... إلى آخر هذه الخطبة الرائعة التى انتهت بفهم الأنصار لموقف رسول الله. ومعرفتهم أنه ما منعهم من أخذ شىء من الغنائم لهوانهم عليه وقال لهم : **أفلا ترضون يا معشر الأنصار. أن يذهب الناس بالشاة**

وبالبعير وترجعون برسول الله إلى رحالكم؟ والذى نفس محمد بيده، لولا الهجرة لكنت امرءاً من الأنصار، ولو سلك الناس شعباً، وسلك الأنصار شعباً، لسلكت شعب الأنصار، ثم دعا لهم وقال : اللهم ارحم الأنصار، وأبناء الأنصار، وأبناء أبناء الأنصار".

وتعد هذه الخطبة من روائع الخطب النبوية، بما ملكت من وسائل التأثير، وتنويع الأسلوب، وما تضمنته هذه الخطبة من مناقشة، لايخرجها عن إطار الخطبة، لأن المناقشة لم تكن فى موضوع الخطبة ، وإنما كانت بعيدة عنها .

وهؤلاء الذين حزنوا فى أنفسهم وظنوا أنهم هانوا على رسول الله ﴿ﷺ﴾ بعد أن استمعوا إلى خطبة النبى ﴿ﷺ﴾ وما تضمنته من معانى، بكوا حتى اخضلت لحاهم وقالوا فى النهاية :

" رضينا برسول الله قَسْماً وحظاً ".

٣- قوة الإقناع

تتميز الخطبة النبوية بالإقناع القوى من أقصر طريق وأيسره ، وقد قلنا إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ قد أوتى جوامع الكلم ، واقتناع المستمعين بسهولة بما يقوله النبى ﴿ﷺ﴾ لم يكن لمجرد أنه نبى، فكثير من المستمعين إليه، لم يكونوا ممن يؤمنون برسالته ، ولكن الإقناع القوى فى خطب النبى ﴿ﷺ﴾ كان يرجع إلى سهولة ألفاظ الخطبة، ووضوح المعانى التى تتناولها ، مما يجعل المستمع إليها يتابعها ويفهمها، بلا بحث فى لفظ عويص، أو معنى خفى، هذا بالإضافة إلى أن هذه السهولة فى الخطبة النبوية صاحبت صدقاً حاراً، وإخلاصاً قوياً، وإيماناً ثابتاً بالموضوع، وتفانياً مستمراً فى إيصال الرسالة إلى الناس.

وقد رأينا كيف أن خطبة الجهر بالدعوة، أى الخطبة الأولى للنبى ﴿ﷺ﴾ تناولت مع قصرها هذه القوة الإقناعية ، فألزمت المستمعين بما ورد فـيـهـا،

ولا أتصور أن كلماتها قد غابت عن سامعيها. لأنهم يعرفون أن الرائد لايكذب أهله، وقد نبههم إلى ذلك حين خطبهم، ويعرفون أيضاً أن القَسم. دليل صدق المقسِم فيما يُقسِم عليه. وخطبة النبى فى الأنصار التى تحدثنا عنها آنفاً. هى أكبر دليل على هذه المزية. فالنبى ﴿ﷺ﴾ واجد بهذه الخطبة الأنصار الغاضبين، ولو لم تكن عند الخطيب فى هذه الحالة - حالة مواجهة الغاضبين - قوة إقناع ما قبلوا كلامه. وما سهل عليهم النزول عن رأيهم ، والرضوخ لقول الخطيب أياً كانت مكانته.

لقد استعمل النبى ﴿ﷺ﴾ مع الأنصار الغاضبين الوضوح التام ، ووسائل الإقناع الدقيق، فما انتهى النبى ﴿ﷺ﴾ من كلامه. إلا والأنصار يعلنون رضاهم عن رسولهم قَسْماً ونصيباً. بل إنهم من قوة إقتناعهم وتأثرهم بكوا حتى ابتلت اللحى من الدمع المنهمر.

كما أن تطبيق رسول الله ﴿ﷺ﴾ ما يعظ الناس به على نفسه أولاً. كان أيضاً من أسباب اقتناع الناس بما يقول، وهذا هو المفروض فى الخطيب ، لا يأتى ما ينهى الناس عنه ، ولايخالف قوله عمله.

فى خطبة الوداع وضع الربا، ووضع الثارات الجاهلية. وبدأ فى ذلك بنفسه فوضع ربا عمه العباس. ووضع دم ربيعة بن الحارث بن عبد المطلب ، ومن المعلوم أن الوعظ بالعمل. أقوى تأثيراً من الوعظ بالقول فقط.

كذلك نستطيع أن نقول: إن من أسباب قوة الإقناع النبوى. أن الخطب النبوية كانت تعالج مشكلات الناس، أى كان النبى ﴿ﷺ﴾ يتعرض لما يهمّ الناس ويعنيهم، فهاهو - كما رأينا - يخطب الأنصار فيما وجدوه عليه فى أنفسهم، وإذا تكلم أصحابه فى أمر. كان يجمعهم ويقول لهم :**ما بال أقوام يقولون كذا... ، ويخطب مبيناً حكم الله فيما يقوله الناس.**

وبإجمال يمكننا أن نلخص أسباب هذه القوة الإقناعية فيما يلى :

(أ) اختيار ما يهم الناس ويعايشهم.

(ب) الصدق والإخلاص فى الموضوع

(جـ) وضوح اللفظ والمعنى

(د) الدعوة بالعمل والقول

٤- توافقها مع الأصول الخطابية :

المعروف عن الخطبة أن لها أصولاً يجب أن يلتزم الخطيب بها. وقد وضع العلماء قواعد الخطبة الصحيحة، وترتيب أجزائها، وكيف تبدأ بالمقدمة ثم الموضوع ثم الخاتمة.

والخطبة النبوية الشريفة هى نوع من السنّة التى أوحى الله بها إلى رسول الله ﴿ﷺ﴾ وتدخل أيضاً تحت قوله سبحانه :" **وما ينطق عن الهوى**" لذلك نرى خطب النبى ﴿ﷺ﴾ دقيقة فى إقناعها وتأثيرها فى الناس. وما كان هذا إلا لأنها جاءت متفقة مع الأصول العلمية للخطبة ، بل نستطيع أن نقول: إنه على الرغم من ظهور علم الخطابة قبل الإسلام. ووضع هذه القواعد لهذا العلم قبل مولد المصطفى ﴿ﷺ﴾ بقرون ، وعدم اطلاع الرسول ﴿ﷺ﴾ وهو الأمى، على القواعد العلمية التى جمعها أرسطو. ووضعها فلاسفة آخرون سبقوه. نستطيع أن نقول : إن توافق خطب النبى ﴿ﷺ﴾ مع هذه الأصول الخطابية. ليست فقط من أدلة نبوته، وإنما استطاع العلماء أن يأخذوا منها قواعد وأصولاً جديدة. أضافوها إلى الأصول التى وُضعت للخطابة قبل الإسلام، ووجدوا أنها كانت ضرورة لاستكمال هذه الأصول التى لابد لكل خطيب أن يعرفها ، وأن يلتزم بها ، حتى تؤتى خطبته ثمارها ، وتؤدى الغرض منها.

ونلاحظ على خطبة النبى ﴿ﷺ﴾ أنها كانت دائماً تذكر الله فى بدايتها. حمداً وثناء. وتشهّداً. ثم تتبع ذلك بالصلاة على النبى ﴿ﷺ﴾، وبعد المقدمة تبدأ الخطبة فى ذكر الموضوع. مع مراعاة تقسيم الأفكار. رغم ما بينها من وحدة.

ففى خطبة الوداع مثلاً. يمكن أن نعتبر الموضوع الأصلى لها. وهو بيان فساد العادات الجاهلية ، ومع التزامها بهذا الموضوع نجدها تورد الأفكار مرتبة، وتنتقل من الفكرة إلى ما بعدها. حيث تتحدث عن حرمة الدماء والأموال ، وعن أداء الأمانات إلى أصحابها، وعن تحريم الربا. وعن وضع الثأر، وعن حكم القتل عمداً، وعن دية غير العمد، وعن النساء. مالهن، وما عليهن، وعن الأخوّة الإنسانية - تتحدث عن هذه الأفكار. وتتنقل بينها بتقسيم مرتب ، ونظام مترابط.

وإذا كانت الأصول العلمية للخطبة. تفضل أن يركز الخطيب على موضوع واحد يوفيه حقه، فإن النبى ﴿ﷺ﴾ بين لنا فى هذه الخطبة التى هى خطبة تشريعية كما قلنا، لها ظروف خاصة ، وتتعرض لقضايا كثيرة . كيف يمكن جمع الخطيب - عند الضرورة- بين جزئيات متعددة. يمكن إدخالها تحت موضوع واحد، ويمكن أن يخرج المستمع إليه بفهم واضح وسديد.

وهكذا جاءت الخطبة النبوية. متفقة مع الأصول العلمية للخطبة، ولا عجب فى ذلك فهى صناعة إلهية، جعلها الله على مستوى البشر ولفائدتهم.

٥- التزامه ﴿ﷺ﴾ بالقواعد العلمية لما يجب أن يتصف به الخطيب.

القواعد العلمية. تشترط فى الخطيب بالإضافة إلى وضوح الموضوع فى ذهنه. وضرورة تدرج كلامه من المعلوم إلى المجهول. وتشويق المستمعين وبراعة الاستهلال للخطبة - ضرورة اتزان النبرات ، وعدم تكلّف الهدوء والأناة، حيث يمطط الكلام مما يدفع على تبليد الأذهان.وإثارة الإستياء العام.

وقد كانت عظمة النبى﴿ﷺ﴾ كخطيب. تدفعنا إلى القول بأنه ﴿ﷺ﴾ كان أعظم الخطباء. فقد امتاز صوت النبى ﴿ﷺ﴾ بالفخامة والإفادة ، وتلك هبة إلهية أمدّه الله بها. ليملك القدرة التامة فى التأثير والإقناع. يروى الحسن

ابن على رضى الله عنهما أنه سأل هند بنت أبى هالة عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ ـ وكان وصّافاً ـ وقال له : صف لى منطقه.

فقال :" كان رسول الله متواصل الأحزان، دائم الفكرة. ليس له راحة ، ولا يتكلم فى غير حاجة. طويل السكوت يفتتح الكلام ويختمه بأشداقه [1] ويتكلم بجوامع الكلم ، فصلاً لافضول فيه ولاتقصير.[2] دمثاً ليس بالجافى ولا المهين [3].

إذا أشار أشار بكفه كلها، وإذا تعجب قلّبها، وإذا تحدث اتصل بها، فضرب بإبهامه اليمنى راحته اليسرى، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه، جُلّ ضحكه التبسّم ، يفتر عن مثل حب الغمام ".

وهكذا نستطيع أن نقول إن رسول الله ﴿ﷺ﴾ جمع مزايا الخطيب الممتاز. حيث كان يلامس بخطبه عقول الناس وعواطفهم، ويتخير المناسبات ، ويتكلم فيها. ولايكثر منها. مراعاة لعدم قدرة أصحابه على تحملها. ولذلك ورد أنه ﴿ﷺ﴾ كان يتخوّل أصحابه بالموعظة مخافة السآمة عليهم، وكان ينصح بتقصير الخطبة. لأن التطويل يؤدى إلى النسيان والانصراف عن الموضوع، كما كان يقسّم خطبته ويراعى هذا التقسيم، ويقف عن الكلام قبل وبعد كل فقرة. مساعدة للسامع فى استيعاب مافات ، والاستعداد لما هو آت.

وكان يطيل سكوته فى بعض الأحيان إذا اقتضى الأمر ذلك ، وكان يخرج كل حرف من مخرجه، وبذلك أرشده النطق الصحيح. على الإرشاد السليم، وكان أيضاً يستعين فى خطبته بالإشارة والحركة ، فإذا أشار،أشار بيده، وإذا تعجب قلبها، وإذا غضب أعرض وأشاح، وإذا فرح غض طرفه،

---

(1) يستعمل جميع فمه للتكلم ، ولايقتصر على تحريك الشفتين وذلك من قوة المنطق والصوت والمعنى.

(2) يفصل المقاطع بلا زيادة حشو ولاتقليل ألفاظ.

(3) الدمث: السهل الخلق ، الجافى : الغليظ ، المهين : المسيىء.

وبالإضافة إلى تمسكه (ﷺ) بأخلاقه العظيمة أثناء خطبته. فلايعيب ولايشتم. ولايجابه فردا بأمر خاص ، وإذا أراد مخاطبة إنسان أخطأ. يقول : **ما بال أقوام يفعلون كذا.**

صلوات الله وسلامه عليك يا رسول الله.

ثالثا: الخطابة في العصر الأموي

كان العصر الأموى هو العصر الذى تألقت فيه الخطابة العربية بصفة عامة. والسياسية بصفة خاصة. وبلغت فيه غاية بعيدة من الرقى والازدهار، وتألق فى هذا العصر نجم طائفة من أبرز خطباء العرب المفوّهين . أمثال زياد بن أبيه. وعتبة بن أبى سفيان- والحجاج بن يوسف الثقفى وغيرهم.

وكان للأحداث السياسية أثرها الكبير فى الخطابة الأموية - وتاريخ العصر الأموى يسجل صراعا متصلا بين الفرق والأحزاب المختلفة- ومدار هذا الصراع على الخلافة. وفى سبيل الظفر بها ظهرت فرق وأحزاب، وقامت صراعات حربية ولسانية، لم تهدأ ثائرتها طوال هذا العصر- وكان النزاع القبلى صورة من صور هذا النزاع السياسى- فقد شهد هذا العصر تجدد الخصومات القبيلية التى استطاع الإسلام إخماد جذوتها فترة قصيرة- وانضمت إلى العصبية القبلية، عصبية أخرى جديدة، تمخضت عنها الفتوح الإسلامية - هى عصبية الأمم التى أظلها لواء الحكم الإسلامى- بالإضافة إلى لون آخر من الصراع شهده هذا العصر، هو الصراع الحربى من أجل توسيع رقعة البلاد الإسلامية.

وكان من شأن هذه الأحداث كلها. أن ازدهرت الخطابة السياسية فى هذا العصر إزدهارا لم تحظ به فى أى عصر آخر- لأن الخطابة استخدمت كسلاح قوى إبان هذا الصراع السياسى العنيف.

ولن نتحدث هنا عن الأحداث التى حدثت فى عصر الخليفة الثالث

عثمان بن عفان . وطوال مدة الخليفة الرابع. علىّ بن أبى طالب مع أن العصر الأموى كان ثمرة هذه الأحداث. أو إن شئت فقل إنه امتداد لبعض

الحوادث التى كانت فى عصر الإمام على. أو صدى لما كان فيها. لأن الدعوة إلى الأخذ بدم عثمان كانت هى الفكرة التى نبت منها السلطان للأمويين، واستمر نحو تسعين سنة وسط السيوف والرماح المشرعة، ولكننا نقول فقط: بأن الدولة الأموية قد استمرت بعد قيامها فى نزاع دائم يشتد تارة ويسكن أخرى- خوارج يخرجون. بعضهم يمتشق السلاح، وآخرون يدعون بدعايتهم قولا. والخلفاء يبيحون دماءهم - وعلويون يسكنون تارة- ويخرجون محاربين تارة أخرى - وملوك الأمويين يقفون فى وجه هؤلاء وأولئك يدفعونهم مرة بالسيف. وأخرى بالخديعة. وثالثة بإلقاء بذور الشرّين هؤلاء الخصوم.

وفى وسط تلك الزوبعة ظهرت الخطابة. ووجد القول آذانا تسمع وقلوبا تميل إلى ما تسمعه ، ونفوسا تتأثر بهذا أو ذاك.

وفى وسط هذا الاختلاف. وتحت ظل الأمويين قامت العصبية الجاهلية التى سترها الإسلام، ودعا إلى محوها من القلوب - وفى صدر الدولة الأموية اشتد النفور بين القحطانيين والحجازيين- وبين الربيعيين والمضريين- وكثير من حروب هذا العصر وفتنته. كانت العصبية دافعاً له. وإن سُترت بستار من دعوة دينية . أو نزوع إلى طاعة . أو تشيعٌ لآل البيت.

المظاهر الاجتماعية فى عصر بنى أمية :-

كانت المظاهر الاجتماعية تختلف من بلد إلى بلد آخر، ففى المدن الحجازية وُجد ترف لأن الدولة الأموية منعت زعماء القبائل من الخروج للأقاليم، حتى لاينازعوا السلطان. وأعطتهم كثيراً من الأموال فانشغلوا بذلك عن الخروج على الأمويين.

أما فى العراق ففتنة دائمة وقلق مستمر. وحياة اجتماعية غير محكمة الصلات - والسبب وجود طوائف من أجناس مختلفة سكنوها فى عصر الخلفاء والأمويين - منهم العرب - وأغلبهم مضريون - ومنهم النبط. ومنهم الفرس. ومنهم آراميون- ولكل طائفة عادات وتقاليد، وإن كانوا جميعاً مسلمين ، إلا أن الإسلام لم يجمع أهواءهم أو يوحد إحساسهم.

أما الشام حيث البيت الأموى، فقد كان الترف سائدا. وإن كان فى احتشام فى أكثر الأحيان. ليحتفظ الخلفاء بمهابتهم . وليحفظوا لهم صفتهم الدينية، وأيضا لئلا تتألب عليهم العرب وأكثرهم متدين - وفى قصور الخلفاء كانت كل وسائل الترف، من قيان. وغناء. ولكن لايظهرون بشىء من ذلك أمام العامة - وكان الأوائل من خلفاء بنى أمية يستمع إلى غناء المغنين من وراء حجاب.

ولأن الشام كانت مقرا للحكم، فقد كان الناس يفدون إليها من كل ناحية . ويأتونها أفواجا. ويتجادلون القول مع الخلفاء ، فكانت ميدانا للمباراة فى تملق الخلفاء ومدحهم، والتزلف إليهم بالخطب أحيانا، وبالشعر أحيانا، وفيها كانت المفاخرات والمنافرات بين أيدى الخلفاء، وتحت سمعهم وبصرهم.

الأحوال الدينية :

فى صدر هذه الدولة عاشت طائفة من أصحاب الرسول وعاش التابعون أكثر مدة هذه الدولة فى مدارسة الدين وتعليم أحكامه. والخلفاء يرون فى تمسكهم بالدين وحمايتهم له ضرورة تحتمها رغبتهم فى إقناع الناس بحكمهم. وإن كان فيهم من يخالف- كعبد الملك بن مروان - الذى كان يهدد العلماء أحيانا كثيرة - ولم يستمر الناس على التدين. ولكن خفّت حرارة الإيمان. وحلت العصبية فى بعض النفوس محل الدين - وانتشرت فى بعض الجهات فسوق ومفاجر.

الشعراء والهجاء المقزع :

بدأت تظهر فى عهد بنى أمية شتائم لاذعة وتنتشر بين الناس- وفى عهدهم أيضا كان ضعف أخلاق، وفساد نفوس، وضعف روح الدين.

حتى بلغ يزيد بن معاوية أن دفع بشاعر نصرانى ليقول فى الأنصار:

ذهبت قريش بالمكارم كلها والللؤم تحت عمائم الأنصار

دواعى الخطابة فى العصر الأموى

١- الفتن :

كان مع سيوف كل طائفة خطب قوية. وعبارات شديدة. تدفع إلى الموت - إما رجاء مثوبة أو طمعا فى سلطان.

وكانت الفتن معينا للقول وحافزا إليه، فالمعترضون يرمون بنى أمية بالخروج على الدين، واجترائهم على ذوى الحق، ويذكّرونهم بما فعله أسلافهم مع النبى (ﷺ) والسابقين .

والأمويون يرمون أولئك بالنفى والخروج على الطاعة.

٢- السياسة :

كان الخلفاء وولاتهم يحاولون توضيح سياستهم للناس. ويحاولون إثبات عدالة حكمهم وإحسانهم إلى الجماهير. إن أطاعوا. وتهديدهم. إن خرجوا عليهم- فقد كنت ترى الترهيب فى العراق والحجاز. والترغيب فى الشام- وخطبة زياد المسماة بالبتراء. بالبصرة - وخطب الحجاج فى العراق - وكذا خطبة عبد الملك بعد قتل مصعب بن الزبير - أكبر دليل على ذلك.

٣- الفتوح الاسلامية :-

لم تنقطع الفتوح فى العصر الإسلامى،وقد وجه الأمويون الجيوش إلى كثير من بلدان العالم- وإذا كان بعض المؤرخين يرى أن الأمويين قد أكثروا من الفتوحات، لأنهم وجدوا فيها شاغلا للعرب، يمنعهم من التفكير فى أمرهم والانقضاض عليهم فوجهوهم إلى هذه البلدان، لكى لايكون بأسهم بينهم - فإن هذه الفتوح،بصرف النظر عن أهدفها وأسبابها،كانت تحتاج إلى الخطابة والبيان، حيث تحتاج الجيوش إلى خطب تدفع همم الجند، وتحرضهم على الجهاد فى سبيل الله .

بالإضافة إلى إثبات التزام الأمويين بنشر دعوة الإسلام فى كل بلاد الدنيا ولذا فقد فتحت فى عصر معاوية بلاد فى شمال افريقيا، والسند،وبعض أفغانستان، وفى عهد عبد الملك وابنه الوليد تم الاستيلاء على شمال إفريقيا والأندلس، وامتد السلطان الإسلامى إلى بلاد البنجاب فى الهند - كما استولى مسلمة بن عبد الملك على آسيا الصغرى - وفى عهد سليمان بن عبد الملك حوربت الإستانة - وكل هذه الحروب تحتاج كما قلنا إلى الخطابة والبيان.

٤- الوعظ الدينى :-

كانت الخلافات بين بنى أمية ومناوئيهم، سببا من أسباب انصراف بعض العلماء عن خوض المعارك الكلامية ، السياسية أو الحربية ، والانصراف إلى العبادة والنسك ، وإرشاد الناس ووعظهم، ودعوتهم من الابتعاد عن هذه الخلافات ، ودعوتهم إلى وحدة الأمة وتماسكها ،وإلى إرشادهم لأمور دينهم ودنياهم، من غير تعصب لجماعة ، أو الإنضمام إلى طائفة محددة - وقد كان دافع هؤلاء، سيطرة الدين على نفوسهم ، وبعضهم انصرف إلى دراسة العقائد والتعمق فى بحثها، وكوّن له رأيا فيها دعا إليه وحث عليه - ومنهم من

عكف على مناقشة الخارجين على الإسلام الهادمين لبنائه ، والرد عليهم بتقديم الحجج والأدلة- ومن هؤلاء وأولئك الحسن البصرى - وواصل بن عطاء - ومطرف بن عبد الله الحرشى - وبكر بن عبد الله المزنى - ويزيد بن أبان الرقاشى - ومالك بن دينار - وذلك ولاشك كان سببا من أسباب ظهور الخطابة ودواعيها - وموضوعا من موضوعاتها .

٥ - مجالس المباراة فى الخطابة :-

عرف فى عصر بنى أمية عقد مجالس يتبارى الخطباء فيها، ويسابق بعضهم بعضا- وفى بعض الأحيان ، وفى حضور مجلس يجتمع فيه عدد من الناس، كان يدعى واحد من الجالسين إلى القول مفاجأة ، ليختبروا مقدار بيانه وقوة جنانه- وحضور بديهته ونهوض حجته- وقد روى المؤرخون[١] أن عبد الله بن عمر بن عبد العزيز والى العراق، عقد مجلسا للخطابة تبارى فيه خالد بن صفوان وشبيب بن شيبة، والفضل بن عيسى وواصل بن عطاء- وقد نال فى ذلك المجلس واصل بن عطاء قصب السبق - وقال فيه بشار مادحه بتلك الخطبة :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا   وحبّروا خطبا ناهيك من خطب

فقام مرتجلا تغلى بداهته   كمرجل القين[٢] لما حف باللهب

وجانب الراء لم يشعر به أحد   قبل التصفح[٣] والإغراق فى الطلب

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة نقلا عن سرح العيون صـ ٧٧ [٤] :-

وقد كانت مجالس معاوية تشتمل على شىء كثير من هذا النوع من

---

(١) راجع هذه القصة وقصص أخرى من هذا النوع فى كتاب الخطابة للشيخ أبو زهرة صـ ٢٢٩: ٣٠٠ نقلا عن سرح العيون صـ ٧٧.

(٢) القين : الحداد.

(٣) التصفح : النظر .   (٤) نفس المرجع السابق.

المباراة، وما كانت خطبة سحبان التى كانت من صلاة الظهر إلى ان قامت صلاة العصر ، إلا من ذلك النوع ، فإنه يروى أن وفدا من خراسان، فيهم سعيد بن عثمان، قدم على معاوية ، فطلب سحبان ، فلم يوجد فى منزله، فاقتضب من ناحية اقتضابا ، وأدخل عليه، فقال تكلم، فقال : انظروا إلى عصا تقوّم من أودى، قالوا: وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين.

قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه، فضحك معاوية ، وقال : هاتوا عصا ، فجاءوا بها إليه، فرجلها برجله، ولم يرضها ، وقال: هاتوا عصاى فأخذها وتكلم من صلاة الظهر إلى أن قامت صلاة العصر، وما تنحنح، ولاسعل ، ولاتوقف، ولاابتدأ فى معنى، فخرج منه ، وقد بقى عليه منه شيء، فما زالت تلك حاله، حتى أشار معاوية، فأشار إليه سُحبان أن لاتقطع على كلامى، فقال معاوية : الصلاة : قال هى أمامك، ونحن فى صلاة وتحميد، ووعد ووعيد، فقال معاوية : أنت أخطب العرب، فقال سُحبان : والعجم والإنس والجن [1] .

٦- *الوفادة* :- كثرت الوفادة على الخلفاء والأمراء برفع شكاة أو إعلان النصرة والتأييد. وأحيانا كان الخليفة يدعو بعض الوفود ليسدى إليهم يدا ،أو يتقرب إليهم ، أو يعاتبهم على سابقة منهم -والوفود عادة ما تكون من كبار المتكلمين، الذين يجيدون إلقاء الكلام فى أسلوب محكم وقول حكيم - وإذا اعترض عليهم استطاعوا أن يجيبوا ويردوا بأحسن الخطاب- فالوفد عادة ما يكون من أرباب اللسان ، والوفادة روحها اللسان والجنان- لذلك كانت كثرة الوفادة فى ذلك العصر، عاملا من عوامل انتشار الخطابة وموضوعا من موضوعاتها.

---

(١) سرح العيون صـ ٧٧.

٧- المدح والتهنئة والعزاء:-

تستعمل الخطابة وتقال فى بعض الموضوعات التى كان يقال فيها الشعر وكان من الخطباء من تكون كل خطبتهم مدحا فى خليفة أو تهنئة بولاية أو تعزية لفقد عزيز كريم- وقد تشتمل الخطبة على التهنئة والتعزية معا حين يتولى ابن الخليفة الخلافة- فيجمع الخطيب فى خطبته بين التعزية والتهنئة.

ذهب عبد الله بن همّام السلولى إلى يزيد بن معاوية يعزيه فى وفاة معاوية ويهنئة بالخلافة فقال [1] :-

يا أمير المؤمنين، آجرك الله على الرزيّة، وبارك لك فى العطيّة - وأعانك على الرعيّة، فلقد رُزئت عظيما، وأعطيت جسيما، فاشكر الله على ما أُعطيت، وأصبر له على ما رُزئت- فقد فقدت خليفة الله - ومُنحت خلافة الله، ففارقت جليلا، ووُهبت جزيلا: إذ قضى معاوية نحبه، فغفر الله ذنبه، ووُلّيت الرياسة، فأعطيت السياسة، فأوردك الله موارد السرور، ووفقك لصالح الأمور، وأنشد :

فاصبر يزيد فقد فارقت ذا ثقة	واشكر حباء الذى بالملك أصفاكا
لارزء أصبح فى الأقوام نعلمه	كما رزئت ولا عقبى كعقباكا
أصبحت والى أمر الناس كلهم	فأنت ترعاهم والله يرعاكا
وفى معاوية الباقى لنا خلف	إذا نُعيت، ولا نسمع بمنعاكا

(١) الخطابه لأبى زهرة ص ٣١٨.

عوامل رقى الخطابة وعوامل ضعفها فى ذلك العصر

ارتقت الخطابة فى عصر بنى أمية (الصدر والوسط) للأسباب السابقة وقد ساعد على ذلك القرآن والسنة الشريفة . والحضارة وغيرها. وكان لها أثرها فى ذلك العصر كما كان لها أثرها فى العصر السابق- وقد زادت الخطابة رفعة ونهوضا للأسباب التالية :

١- **المجادلات** التى كانت تقوم بين الفرق السياسية المختلفة والتى ظهرت فى ذلك العصر، خصوصا ما كان بين الخوارج وغيرها- وكنت تجد فى تلك الخطب الجدلية روحا عالية ودقة فى التفكير، وسلامة فى التعبير، وحرصا على وزن العبارات فى ميزان دقيق، ومثال ذلك (خطبة أبى حمزة الشارى التى يدافع فيها عن الخوارج الإباضية - وخطب قطرى بن الفجاءة.

٢ - وكان هناك خطباء من علماء الكلام ، يعظون ويدافعون عن مذاهبهم فى أصول الاعتقاد مثل الحسن البصرى- وواصل بن عطاء وغيرهما.

٣ - كذلك كان الخلفاء فى صدر الدولة يحثون على الخطابة، ويدعون إليها، ويعملون على ترويجها، وكانت قصورهم منتديات يتبارى فيها أبلغ الخطباء وأهل اللسان والبيان، وبخاصة إذا جاء وفد.

٤ - أما صغار النشىء فكانوا يحرصون على استماع البلغاء من الخطباء، ليحاكوهم ويتعلموا عنهم- وقد دفعهم التفاخر بالخطابة إلى الإعداد لها، وتهيئة ما يقولونه، ووضع كثير من دروب التحسين فى خطبهم، أى كان فيها صناعة لفظية ، وإلا لم تكن بادية التكلف. رغم عوامل الرقى الخطابى التى ظهرت فى ذلك العصر .

إلا أنه ظهر بجوارها مظاهر ضعف نسبى، مثل اللحن الذى بدأ يظهر عند

بعض الخطباء.

فقد كان الحجاج يفتح إن فى موضع الكسر- وكان الوليد بن عبد الملك كثير اللحن فى الخطبة وفى الصلاة أيضا- ومن اللحانين البلغاء خالد بن عبد الله القسْرى وخالد بن صفوان- وقيل إن الحسن أحيانا كان يغلط فى بعض حروف القرآن.

لكن لم يكن اللحن يظهر بسبب بلاغة المتكلمين .

ومن عوامل تراجع الخطابة إلى الخلف و عدم تأثيرها.

١-عودة العصبية الجاهلية التى عاد معها التفاخر بالأحساب والأنساب، وكثر ذلك فى الخطابة.

٢ ـ كما كثر المدح الكاذب والتملق والنفاق- ولذا ضعف تأثير الكلام الجيد فى القلوب.

٣ ـ وكان أكثر خطباء الأمويين فى ذلك العصر إما منافقين أو مستبدين- أو جلادين-وهؤلاء لاتصل كلمتهم إلى أعماق القلوب لأنها لم تخرج منها.

٤ ـ ومن أسباب ضعف تأثير الكلام فى القلوب كثرة التشادق بسبب حبّ شهوة الكلام والرغبة فى الحجاج واللجاج- والمعروف أنه إذا كثر الكلام قلّ التأثير .

٥ ـ وفى آخر العصر الأموى ، ضعفت الدواعى إلى الخطابة لقلة الخروج على الخلفاء علنا ، ولقلة الخطب التى كانت تلقى بين أيدى الخلفاء، بسبب قلة الوفود،وقلة الخارجين،واستغناء الخلفاء عن استمالة القلوب.فضعفت الخطابة نسبيا.

الألفاظ والأساليب والمعانى:-

١- الألفاظ- كانت صافية لا خشونة فيها،وكانت جزلة قوية، كما كانت

فى العصر السابق، وذلك لما اكتسبته من القرآن والسنة، والحضارة التى لم تفسد النفس.

٢- المعانى : تختلف باختلاف الخطباء- خطب الخوارج سادتها المعانى الدينية، وكانت تشبه خطب العصر الإسلامى- إلا أن خطب الخوارج كان فيها شىء من الاندفاع وقذفا لكثيرين، وكان ذلك من أسباب عدم تأثيرها كما ينبغى.

خطباء الوعظ:-

اشتهر عدد كبير بالخطابة الوعظية كالحسن البصرى والشعبى- وابن سيرين وواصل بن عطاء، وكانت كخطب السلف الصالح من كل الوجوه- غير أنه زيد فيها القصص والوعظ به وضرب الأمثال الكثيرة ، وذكر أخبار الماضين ليتعظ بها السامعون لهم - وكان ذلك واضحا فى خطب الحسن البصري.

أما خطباء الأمويين ومن لفّ لفّهم وسايرهم فى أعمالهم: فقد امتازت بالآتى:-

١- كانت معانى تهديدية- يكثر فيها الإرعاد والتهديد ، وبخاصة إذا كانت من الوالى أو الخليفة لقوم عندهم سخط على الأمويين وحكومتهم (زياد والحجاج).

٢- كان أكثرها فى الفخر ، وبخاصة إذا كانت من خطباء القبائل المناصرة لهم.

٣- كانت تشتمل على السبّ والإقذاع أحيانا (خطبة الحجاج)

٤- المبالغة والإغراق- لكثرة النفاق والخداع والملق والمدح.

الأسلوب:

كان الأسلوب في عصر بني أمية يشبه الأسلوب في عهد الراشدين في الاقتباس من القرآن والسنة ، وتجميل الخطبة أحيانا ببعض أبيات من الشعر، وتقسيم الخطبة إلى مقدمة تشتمل على حمد الله والثناء عليه وموضوع وخاتمة.

كذلك كثر الازدواج- أي أن الخطبة كانت مقسمة إلى فقرات متناسقة، وإن لم تكن ذات قواف متحدة.

وكثر الإجتهاد في تحسين الخطب وتجميل الكلام- وإن كانت السليقة قد سترت ذلك التكلف ولم تظهره- وقد دفعهم ذلك إلى وضع أصول للخطابة وتلقينها للشباب.

طول الخطبة وقصرها :

كانت خطب الخوارج تميل إلى الطول لما اشتملت عليه من الحجج والأدلة والمآخذ على حكم الأمويين وإعلان مساوئهم.

أما خطب الوعاظ والزهاد ، كالشعبي، وابن سيرين، والحسن البصري ، فكانت تميل إلى الإيجاز، أخذا بمذهب الخلف الصالح، لنهي النبي صلى الله عليه وسلم عن طول الخطبة، ولخوفهم من أن تكون الإطالة ثرثرة وتفهيقا وتشادقا، وكل أولئك قد نهى عنه النبي (ﷺ).

أما خطب الأولين ومن على شاكلتهم، فقد كان فيها طول مفرط في الطول، وفيها أيضاً المتوسط، وفيها القصير المفرط في القصر.

ومثال الخطب الطويلة ، خطبة سحبان بين يدي معاوية- والتي تحدثنا عنها قبل ذلك.

وأما خطب الحجاج وزياد بن أبيه كانت بين الطول والقصر- وخطب الذين

ارتج عليهم فى الخطبة كانت قصيرة جدا- ومن ذلك خطبة خالد بن عبد الله القسرى ، حين ارتج عليه. فاعتذر قائلا : (أيها الناس إن الكلام يجىء أحيانا فيتسبب سببه، ويعذب أحيانا فيعز طلبه، فربما طولب فأبى وكوبر فعصى، فالتأنى لمجيبه أصوب من التعاطى لأبيّه.

وبعض الخطباء كان يعمد إلى الإيجاز من غير ضرورة (يزيد بن المقفع والبيعة ليزيد) وكان يدفعهم التطويل المفرط والقصر المفرط ، قصد التفنن وبيان البراعة وإثبات القدرة.

ومع ذلك كان يراعى فى التطويل والإيجاز مقتضى الحال غالبا، وإن كان حرصهم على الاشتهار بالبراعة، كان لايقل عن حرصهم على ملاحظة المقام لأن القول صار غرضا لذاته فى ذلك العصر.

أشهر خطباء العصر الأموى :-

١- **من آل البيت** - عبد الله بن الحسن - وزيد بن على بن الحسن وكانا أقوم أهل زمانهما لسانا وحجة.

٢- **ومن خطباء الأمويين** :- معاوية - ويزيد - وعبد الملك بن مروان- ومعاوية بن يزيد - وعمر بن عبد العزيز- وزياد بن أبيه.

٣-ومن الذين نازعوا بنى أمية الخلافة- عبد الله بن الزبير ومصعب أخوه وكثيرون من أسرتهما.

٤- **ومن الخوارج** :- قطرى بن الفجاءة - وعمران بن قحطان - وأبو عبيد الإباضى وأبو حمزة الشارى.

٥- **ومن خطباء المجالس**:- خالد بن يزيد بن معاوية- وأيوب بن القربه- وحسن البصرى،ومطرف بن عبد الله الحرشى،وبكر بن عبد الله المزنى،ومالك بن

دينار.

٦- من الموالى: الحسن البصرى - وطارق بن زياد.

رابعا : - الخطابة فى العصر العباسى

تمهيد

لعلنا نعرف كيف آذى الأُمويون آل البيت. وكثر القتل الذريع فيهم وفى أنصارهم، كما أن تعصب الأمويين للعرب والعربية، أحْنق الفرس عليهم.

وأدى ذلك إلى خروج أهل البيت عليهم - كذلك ملّ الناس مظالمهم، ونفروا من حكمهم، وشاعت مقالة السوء عنهم- فوجد الفرس مبررا للخروج والانتصار لآل البيت.

وقد حصر آل البيت دعوتهم فيهم، لذا دبر العباسيون الأمر فى وسط فارس ، حتى لاحت لهم الفرصة فانتهزوها ، وأبعدوا الأمويين عن عرش المسلمين، وتولوه هم باعتبار أنهم أقرباء النبى الأولون، وورثته المستحقون للخلافة.

خرج عليهم أبناء على، لأنهم أصحاب البلاء، ولأن العباسيين وصلوا على كراهلهم ، وابتزوا الخلافة منهم، واشتد النضال بالكلام وبالسيف، وكل يدعو إلى نفسه، وقد أفاد ذلك الخطابة إفادة كبيرة.

وقد شغل ذلك النضال أكثر مدة أبى جعفر المنصور، حتى تم له الانتصار عليهم بالسيف، وإن كان أهواء الكثيرين من أنصاره مع أبناء على.

وكان العباسيون يسيئون الظن بالعرب،لأنهم أنصار الأمويين، وهم شديدوا الثقة بالفرس لأنهم أنصارهم، ومقيموا دولتهم- ولذلك كان كبار رجالات الدولة منهم.

وقد انتهزها العباسيون لنشر فكرهم، وسلطانهم وثقافتهم ، وإحياء مجدهم القديم .

ولذلك اصطبغت الحياة الإسلامية بكثير من العادات الفارسية .

وكان الفكر الفارسى مصبوغا بالفكر اليونانى والفلسفة اليونانية، ولذا فقد كان سببا فى كثرة العلوم الفلسفية وانتشارها بين المسلمين.

وكنت ترى المناظرات والمناقشات فى كل مكان، وتعقد المباريات الكثيرة فى هذه العلوم ، ويمكن أن نقول إنها قد أثرت بعد ذلك على الخطابة تأثيرا كبيرا.

الدعوة فى عصر العباسيين :

المعروف أن الخلافة العباسية قد استمرت فى الحكم أكثر من خمسة قرون، فقد استمر حكمهم من عام ١٣٢هـ إلى عام ٦٥٦هـ والمؤرخون يقسمون العصر العباسى إلى قسمين ، هما العصر العباسى الأول من عام ١٣٢ إلى٤٤٧، والعصر العباسى الثانى من عام ٤٤٧ حتى عام ٦٥٦.

ويرى المؤرخون : أن العصر الأول كان أرقى من العصر الثانى- واعتبروا العصر الأول عصر التقدم العلمى والأدبى- وكان عصرا متقدما أيضا فى مجال الحكم والسياسة، ولذلك فهم يطلقون على العصر الأول عصر الخلفاء العباسيين العظام- أما العصر الثانى فهم يعتبرونه عصر تراخ وذهول ،وانصراف عن مصالح الأمة الحقيقية- ولذا فإن هذا العصر ضَعُف فيه سلطان الخلافة، وذهبت مهابته، وتفرقت دُوله ، وانفجرت أهواؤه براكين قضت عليه فى النهاية ، واسقطته تحت أقدام التتار فى منتصف القرن السابع الهجرى، بعد حياة طويلة مليئة بالغفلة والتفريط.

ورغم ذلك كله، فقد شاء الله تعالى أن يَبقى العمل الشعبى للإسلام وخدمة أهدافه، ولم يتطرق إليه الوهن والفساد، الذى كان على المستوى الرسمى والسياسى، ومع أن المنطق يقول :- إن الدعوة للإسلام ، والنشاط العلمى الخاص به ، كان لابد أن يتأثر بالأوضاع السياسية وبفساد الحكام وضعفهم. إلا أن كتب الطبقات والتراجم، تبين لنا عكس ذلك تماماً- فهى

توضح كيف ارتقت الحركة العلمية والحديثية والدعوية فى بغداد فى ذلك الوقت ، وكيف كان التيار الدينى والثقافى قائماً على قدم وساق - ولعل ذلك كان بسبب عدم كراهية الخلفاء العباسيين وحبهم لهذا النشاط العلمى ، ولعدم وقوفهم فى وجه العلماء والدعاة ، كما يحدث الآن من بعض حكام المسلمين فى هذا العصر- ولذلك كانت المساجد والمدارس مليئة بالراغبين فى العلم ، الذى كان لاينقطع دويّه- فالدروس تُلقى، والقرآن يُتلى ، والأحاديث تُروى ، والمواعظ لاتتوقف- والناس يستمعون ويُقبلون على ذلك بكل نَهَم.

وربما كان الفساد الموجود لدى الحكام من أسباب لجوء الناس إلى الدين والتدين ، ومن أسباب كثرة العلماء الذين وجدوا ، أن تغيير المجتمع يمكن أن يتم من خلال تربية الناس وتعليمهم، حتى يمكنهم بعد ذلك تولى شئون أنفسهم وإعادة الحكام إلى رشدهم وصوابهم ،والالتزام بأحكام الدين الحنيف.

ويحدثنا التاريخ أن بعض علماء الدين فى هذا العصر ، كانت شعبيتهم وتعلّق الناس بهم يفوق كثيرا شعبية الخلفاء العباسيين أنفسهم.

وتروى كتب التاريخ [1] هذه القصة :-

" حدث أن قدم الرشيد الرَّقة، فانجفل الناس خلف ابن المبارك ، وتقطعت النعال وارتفعت الغبرة، فأشرفت أم ولد لأمير المؤمنين من برج لها، فقالت : ما هذا ؟- قالوا عالم من أهل خراسان قدم . قالت والله هذا هو الملك ، لاملكُ هارون الذى لايجمع الناس إلا بشُرط وأعوان ".

وكان بعض خلفاء العباسيين لايتبعه فى جنازته إلا العدد القليل من الناس، أما إذا مات واحد من علماء المسلمين أو أئمتهم ، تخرج بغداد كلهُا عن بكرة أبيها ، ويُذكر أن الإمام أحمد بن حنبل لما مات ، شُغل بتشييع جنازته الألوف المؤلفة من الناس ،لدرجة أنهم لم يدركوا صلاة العصر إلا فى

(١) تاريخ بغداد جـ ١٠ صـ ١٥٦ ، ووفيات الأعيان جـ ٣ صـ ٣٣ ، وأعلام النبلاء جـ ٨ صـ ٣٨٤ .

آخر الوقت.

وهذا هو الفرق بين من يملكون القلوب ومن يملكون الدنيا الفانية

الحركة العلمية في هذا العصر وأشهر العلماء فيه:

قلنا إن العهد العباسي كان بالنسبة للنشاط الإسلامي والدعوة الإسلامية. أفضل من العهد الأموي، رغم ماعرف عن معظم خلفاء بني العباس من حبهم للدنيا، وشدة رغبتهم فيها، ومعارضتهم لبعض الوعاظ المخلصين للدعوة- وذلك لأن العباسيين كانوا أحسن حالا من الأمويين على العموم - في معاملة العلماء، وحب العلم والبذل في إحيائه ونشره ، كذلك فقد عُرف عنهم أنهم كانوا وراء إنعاش الأدب والثقافة والفلسفة.

ولهذا كان عصرهم عصرا ذهبيا للعلم.

ففي العصر العباسي- تم تدوين العلوم الدينية ، من فقه وحديث وتفسير- وتم كذلك تصنيف العلوم اللسانية، من نحو وصرف، وبلاغة، وشعر، وأدب.

كذلك تم ترجمة كثير من العلوم العقلية ، من حساب، وجبر ، وهندسة ، ومنطق ، وفلسفة، ولقد شرُف هذا العهد وجود كثيرين من أئمة السلف وفطاحل العلماء، بخاصة في صدر الدولة العباسية ، وقد زاد هذا العهد تشريفا وجود الأئمة الأولين أبي حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل، وكذا البخاري ومسلم وغيرهم من كبار العلماء والفقهاء.

وقد نشطت في القرن الثاني والثالث، حركة التصنيف في علوم الدين واللغة، من حديث، وفقه، وتفسير، وتاريخ، وسيرة- ومن أشهر كتب الفقه في ذلك العصر، الموطأ للإمام مالك، والخراج لأبي يوسف.

وبالإضافة إلى الأئمة الأربعة الذين كانوا من مفاخر هذا العصر- وكذا الإمامين الجليلين، البخاري ومسلم-نجد أيضا من علماء السنة باقي أصحاب

الكتب الستة.

البخارى (٢٥٦) ومسلم بن الحجاج القشيرى (٢٦١) وأبو داود السجستانى (٢٧٥) وأبو عيسى الترمذى (٢٧٨) والنسائى (٣٠٣) وابن ماجه (٢٧٥).

كما عاش فى هذا العصر من النحاة: عيسى بن عمرو الثقفى (١٤٩) وأبو عمر ابن العلاء (١٥٤) والخليل بن أحمد (١٧٥) والأخفش (١٧٧) وسيبويه (١٨٠) والكسائى (١٨٣). ومن المفسرين أبو جعفر الطبرى (٣١٠)

ومن علماء التاريخ والسير : ابن اسحق (١٥٢) وابن هشام (٢١٨) والواقدى (٢٠٧) وابن سعد (٢٣٠) والبلاذرى (٢٧٩) وغيرهم كثير.

الوعظ والخطابة:

ازدهرت الخطابة الدينية والوعظ الدينى فى العصر العباسى الأول ، وقد كان الخلفاء يشاركون العلماء فى هذا المجال ، ويجمعون بين الولاية والصلاة ، وكان الوعظ الدينى فى هذا العصر، هدفا يرمى إليه الخطباء ، ومقصدا يقصدونه - وبالنسبة للخلفاء ، فإنهم كانوا يعتقدون فى أنفسهم أنهم قادة الأمة فى دينهم ودنياهم، بل كان بعض هؤلاء الخلفاء يرى أنهم أقدر على فهم أمور الدين من عامة الناس- يُروى أن أحد المصلين اعترض على المنصور وهو يخطب على المنبر، وأراد أن يذكّره الله قائلا : أيها الانسان أذكّرك من ذكرت به ، فردّ عليه أبو جعفر المنصور ، وقال له ضمن كلام آخر : (وإياك وإياكم **معشر الناس وأختها ، فإن الحكمة علينا نزلت ، وعندنا فصّلت ، فردوا الأمر إلى أهله تُوردوه موارده**، وتصدروه مصادره [1]- ولا شك أن هذا الكلام يبين كيف أن بعض خلفاء بنى العباس كانوا يضعون أنفسهم موضع المرشدين ،

(١) الخطابة - محمد أبو زهرة صـ ٣٢٥ .

القادة في الدين والدنيا جميعا- ويزعمون أنهم أعلم الناس بأمور الدين، وقد وصلتنا نصوص كثيرة لبعض خلفاء بني العباس، تبين إلى أي حد كانوا يهتمون بالوعظ الديني ، ودعوة الناس إلى التعلق بالآخرة ، وعدم الإفتتان بالدنيا- فمن خطب هارون الرشيد ما جاء في العقد الفريد [1] :

(عباد الله: إنكم لم تخلقوا عبثا، ولم تتركوا سدى ، حصنوا إيمانكم بالأمانة، ودينكم بالورع ، وصلاتكم بالزكاة، فقد جاء في الخبر ، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال :- " **لاإيمان لمن لاأمانة له ، ولادين لمن لاعهد له ، ولاصلاة لمن لازكاة له** " إنكم سُفْر مجتازون، وأنتم عن قريب تنقلون، من دار فناء إلى دار بقاء، فسارعوا إلى المغفرة بالتوبة ، وإلى الرحمة بالتقوى، وإلى الهدى بالإنابة - فإن الله تعالى ذكره ، أوجب رحمته للمتقين - ومغفرته للتائبين - وهداه للمنيبين) وقد وردت لنا أيضا عظات لبعض وعاظ هذا العصر كانوا يعظون بها الخلفاء والأمراء،وكانت تظهر آثارها على هؤلاء الحكام.

يروي الطبري [2] في تاريخه أن ابن السّماك وهو من أشهر دعاة هذا العصر،وقد عرف بأنه واعظ الرشيد ، كان يلقي على الرشيد بعض المواعظ فيبكيه بكاءا شديدا - ومما يؤثر عنه، أنه دخل على الرشيد يوما فقال :

(عظني : فقال : يا أمير المؤمنين ، اتق الله وحده لاشريك له - واعلم أنك واقف غداً بين يدي الله ربك، ثم مصروف إلى إحدى منزلتين لاثالث لهما، جنة أو نار) فبكى هارون حتى اخضلت لحيته -

وقد امتازت الخطابة في هذا العصر عن عصر بني أمية وصدر الإسلام ، بأن ألفاظها وإن تشابهت معهما، إلا أنها زادت عذوبة مع الفخامة والقوة أحيانا، والسبب في ذلك كما يقول العلماء : أن الحضارة كانت قد تمكنت من

---

(١) جـ ٤ صـ ١٠٢ .

(٢) تاريخ الطبري ج ٦ ص ٥٣٨ .

النفس العربية، وتغلغلت فى ثناياها، وسهّلتها وألاَنتها - ولم يعد للصحراء أثر قوى فى نفوس خطبائهم ، فكانت الألفاظ موائمة لما صدرت عنه، وموائمة لما اقتضاها- أما المعانى فهى وإن كانت قد قاربت المعانى فى العصر الأموى إلا أنها زادت عنه فى المبالغة والتهويل- والمعروف أن المبالغة تسود حيث تكثر صناعة الكلام ومحاولة إجادته، بالإضافة إلى زيادة التفنن فى المعانى ، والبحث عن دقيقها، والغوص وراء عميقها، وذلك لكثرة الترجمة - وسيادة البحوث العلمية . ولاشك أن ذلك قد أفاد الدعوة كثيرا، وأثّر ما اقتبسوه من ترجمات ابن المقفع وأمثاله من حِكم وصلوا به خطبهم التى جعلتها عميقة الفكرة محكمة المعنى [1] . وعلى كل حال، فإننا نستطيع أن نقول إنه رغم الخلل الملحوظ الذى أصاب القيادة فى هذا العهد، ورغم الانحراف الواسع الذى عمّ هذا العصر ، إلا أن العمل للإسلام ظل مستمرا والحمد لله ، على مستوى الأفراد والجماعات، وانطلق الدعاة والمربون يؤدون واجبهم، حتى أسلم ثلث الهند، وجمهور كبير من أهل الصين - لكن الذى يجب أن نعرفه ، هو أن المدّ الاسلامى لم يستمر نشطا قويا فى هذا العهد، كما كان فى عهد الدولة الأموية.

بل يمكن أن يقال إنه توقف فى فترات كثيرة من تاريخها، مع أن الإمكانات التى كانت متاحة للدولة وسعة ملكها ، كان يمكنها من أن تفعل كثيرا لخدمة الدعوة - إلا أن العباسيين صرفتهم صوارف عدة عن البروز فى هذا المجال ، وأهم هذه الصوارف ، ماكان ينتاب الجبهة الداخلية من تفسخ وتمزق - وقد وقف نشاطهم فى فترات كثيرة على مجرد الاحتفاظ بما تحت أيديهم من بلاد ، والاكتفاء بتأمين حدودهم - بل إن هذه الحدود قد تعرضت للإغارة ، والانتقاص منها فى أكثر من مكان ، مما اضطرهم إلى بناء العواصم والثغور على الحدود ، ليحتموا فيها من عدوهم، وليستعينوا بها على صدّ

---

(١) راجع كتاب الخطابة لأبى زهرة صـ ٣٣٦ .

غاراته وهجومه - وقد اضطر العباسيون إلى اتخاذ ما يسمى بنظام الصوائف والشواتى ، وهى الحملات المنظمة فى الصيف والشتاء ، والتى كانوا يقومون بها على حدود الدولة ؛ ليظهروا للغير قوتهم وقدرتهم على حماية بلادهم - ويوقعوا فى خلدهم ، أو يوهموهم ، أنهم مازالوا أقوياء - وإذا كنا قد قلنا فى بداية الحديث عن بنى العباس ، بأن خلفاءهم وحكام ولاياتهم ، كانوا يحترمون العلماء ويقدرونهم ، فإنما عنينا بذلك الحكم على غالب هؤلاء الخلفاء ، فقد ثبت أن بعض العلماء والأئمة من الفقهاء قد أوذوا فى هذا العهد ، وسجل التاريخ لبعض الخلفاء العباسيين اضطهادهم لبعض الدعاة وكبار الأئمة - وقد قاسى الأمام أحمد ابن حنبل فى عهد المأمون الكثير ، حيث سُجن وضرب ، بسبب امتناعه عن القول بخلق القرآن . كما يقول المعتزلة ، الذى كان المأمون يعتنق فكرهم - ولذلك لبث فى السجن تسع سنين ثم أُفرج عنه ، وخرج من السجن فى عهد الخليفة المتوكل ، الذى اعتذر له وأكرم مثواه ، والتاريخ يخبرنا أن هارون الرشيد ، لما قدم على المدينة حاجا ، بلغه أن الإمام مالكا عنده الموطأ يقرؤه على الناس، فأرسل إليه البرمكى، يخبره برغبة الخليفة فى أن يذهب إليه ومعه الكتاب، ليقرأه عليه- فلما طلب البرمكى ذلك من مالك، قال له مالك: (قل له إن العلم يُزار ولايزور،وإن العلم يُؤتى ولايأتى)٠

فأتى البرمكى إلى الخليفة، فأخبره، وبينما هم كذلك. إذ دخل مالك على الخليفة فسلم وجلس. فقال : يا أمير المؤمنين - أخبرنى الزهرى عن خارجة بن يزيد بن ثابت عن أبيه قال :

كنت أكتب الوحى بين يدى النبى (صلى الله عليه وسلم) فكتبت :

(لايستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون)

وكان ابن أم مكتوم عند النبى فقال يا رسول الله إنى رجل ضرير وقد أنزل الله فى فضل الجهاد ما علمت ، فقال النبى (صلى الله عليه وسلم): لا

أدرى؟ وقلمى رطب ماجف، حتى ثقل فخذ النبى (ﷺ) علىّ ثم أغمى عليه، ثم جلس فقال : يا زيد؟ اكتب (غير أولى الضرر)[1]- يا أمير المؤمنين، حرف واحد تعب فيه جبريل والملائكة مسيرة خمسة آلاف عام ، ألا ينبغى لى أن أعزّه وأجلّه، فإن الله رفعك وجعلك فى هذا الموضع فلا تكن أول من يضع عز العلم، فيضع الله عزك، فقام الرشيد فمشى مع مالك إلى منزله يسمع منه الموطأ، وأجلسه معه على المنصة.

فلما أراد أن يقرأه على مالك ، قال الرشيد : فيخرج الناس حتى أقرأه عليك- قال مالك : إن العلم إذا مُنع من العامة لأجل الخاصة لم ينفع الله به الخاصة- فأمر أن يقرأه (معن بن عيسى) ، فلما بدأ بالقراءة قال . مالك: يا أمير المؤمنين ؛ أدركت أهل العلم ببلدنا، وإنهم ليحبون التواضع للعلم ، فنزل الرشيد عن المنصة فجلس بين يديه [2].

ورغم هذا التكريم للإمام مالك من الخليفة هارون الرشيد ، إلا أنه ذكر أيضا بأن جعفر بن سليمان بن على.والى المدينة. أمر أن يجرد الإمام مالك، وأن يضرب بالسوط وأن تمد يده حتى خلعت كتفه. لأنه أفتى بعدم لزوم الإيمان فى البيعة. لأن يمين المكره باطلة . ويلاحظ أن كثيرين من علماء هذا العصر وفقهائه. كتبوا فى الشعر. ولبعضهم دواوين مثل: الإمام الشافعى الذى كانت له أشعار كثيرة فى الأخلاق، والحكمة ، والأدب. وكان الشافعى يقول :

ولولا الشعر بالعلماء يزرى   لكنت اليوم أشعر من لبيد

كذلك فمن الشعراء الذين حولوا الشعر إلى الوعظ والإرشاد. أبو العتاهية الشاعر الزاهد، ومنهم أيضا على بن الحسن (زين العابدين)- كذلك يوجد شعر وعظى، نُسب إلى أمير المؤمنين الراضى بالله أبو العباس محمد بن المقتدر. المولود سنه ٢٩٧ هـ.

---

(١) تاريخ بغداد جـ ١٠ ص١٥٦، ووفيات الأعيان جـ٣ ص ٣٣ وأعلام النبلاء جـ٨ ص ٣٨٤.
(٢) الخطابة محمد أبو زهرة صـ ٣٣٥.

وقد ظهر فى العصر العباسى كثير من الأدباء الذين مزجوا الأدب بالوعظ والإرشاد. كأصحاب المقامات، بديع الزمان الهمذانى، وأبى القاسم الحريرى. والزمخشرى وغيرهم - وممن سلكوا مسلك الوعظ بالشعر وأبلى فيه بلاء حسنا (عمر بن المظفر الوردى) فى قصيدته المشهورة. المسماه (لامية ابن الوردى).

وقد اتهم خلفاء بنى العباسى بأنهم هم الذين صرفوا وجهة العلماء من الوعظ إلى الأدب والثقافة. كما صَرف الأمويون الأنظار من الوعظ إلى القصص- وهذا هو السبب فى انتهاج أكثر الوعاظ لمنهج الوعظ بالأدب والشعر.

ولم يكن ذلك مقصورا على الوعاظ والدعاة العرب وحدهم . وإنما سلك أبناء البلاد المفتوحة هذا المسلك أيضا مع أقوامهم. فوعظوهم بالأشعار بلغاتهم. وعُرف ذلك على وجه الخصوص بين الدعاة الفارسيين والهنود والسودانيين.

أشهر الوعاظ فى هذا العصر

قلنا إن الخطابة قد ازدهرت كثيرا فى هذا العصر. وبخاصة الخطابة الدينية - وكان للخطباء دور عظيم فى إرشاد الناس وتوجيههم فى المساجد. وقد ترك الخطباء أنفسهم على سجيّتها. فى الخطب المنبرية الشاملة لأحوال المجتمع.

أما الوعاظ فإنهم كانوا يجلسون لمواعظهم داخل المسجد أو خارجه- وكانوا يجلسون أيام الجمع بعد الصلاة فى أيام رمضان ولياليه- ويكون إقبال الناس على مجلس الواعظ بقدر فصاحته. وقدرته على إقناع الجماهير. واستثارة عواطفهم. وكانوا يهتمون بهندامهم. ويتفننون فى إلقاء المواعظ. واستدراج الناس إليهم برقة كلامهم. وحسن أصواتهم. ومن مشاهير وعاظ

بغداد فى العصر العباسى الثانى: أبو الحسن بن على(الواعظ المصرى) وكان مجلس وعظه يحضره الرجال والنساء- وقد قيل إنه كان يضع على وجهه برقعا حين يعظ النساء حتى لايفتتن به. وذلك لجمال وجهه [1] ومن الوعاظ الذين اشتهروا فى هذا العصر أيضا (أبو الحسن بن سمعون) وكان يأكل أطيب الطعام .ويلبس أحسن الثياب- ولما قيل له: كيف ذلك وأنت تدعو إلى الزهد فى الدنيا ؟ أجاب : كلّ ما يصلحك لله فافعله. وإذا صلح حالك مع الله فالبس ليّن الثياب. وكل أطيب الطعام فلا يضرك شىء بعد ذلك. وقد توفى [2] (٣٩٤)هـ أما أشهر وعاظ هذا العصر فهو الإمام المحدث أبو الفرج الجوزى- والمؤرخون على أنه أعظم واعظ خلد التاريخ مواعظه- وكان له فى الوعظ أساليب مبتكرة. ويُروى أن مجلس وعظه كان يحضره مائة ألف إنسان [3].

ولم يكن الوعظ مقصوراً على الرجال فقط وإنما كان هناك نساء أيضا يقمن بدور الوعظ فى المساجد للنساء. ومن هؤلاء الواعظات.إمرأة تسمى (ميمونة بنت ساقوله) التى كانت زاهدة عابدة.

هذا وقد زاد فى هذا العهد حفظة القرآن الكريم.وانتشروا فى جميع الأقاليم الإسلامية . كذلك فقد كان هناك كثير من العلماء الذين اهتموا بدراسة القرآن ورواياته وتفسيره. وقد عُرف علم القراءات فى هذا العهد، وظهر القراء الذين برزوا فى هذا العلم . كنافع الذى ظهر بالمدينة وهو من الموالى- وقد قرأ على تلاميذ ابن عباس. وتوفى سنة ١٦٧هـ ومن أشهر من روى عنه . عيسى بن مينا الملقب بقالون المتوفى سنة ٢٠٥. وأبو سعيد عثمان بن سعيد المصرى الملقب بورش، المتوفى سنة ١٩٧ هـ. وهو الذى يقرأ له أكثر أهل المغرب، وفى البصرة كان أبو عمر بن العلاء المازنى الذى توفى سنة ١٥٤، وروى عنه أبو

---

(١) تاريخ الدعوة الإسلامية د/ جمعة الخولى صـ ٢٠٤.

(٢) نفس المرجع السابق . (٣) نفس المرجع السابق .

عمرو حفص بن عمر الدروى المتوفى سنة ٢٤٦.

وفى دمشق كان أبو الوليد هشام بن عمار الدمشقى المتوفى سنة ٢٤٥. الذى روى عن ابن عامر. وفى الكوفة . كان أبو بكر عاصم بن أبى النجود. الذى توفى فى نهاية عهد بنى أمية سنة ١٢٨. إلا أن تلاميذه الذين رووا عنه كانوا كثيرين. وأشهرهم عباس الكوفى المتوفى سنة ١٩٣. وحفص بن سليمان المتوفى سنة ١٨٠.وهو الذى يقرأ المصريون والسعرديون وأكثر البلاد الإسلامية بقراءته- وقد ظهر فى هذا العصر أيضا حمزة بن حبيب الزيات . وأبو الحسن على بن حمزه الكسائى- وهؤلاء هم المعروفون باسم القراء السبعة الذين فاقوا غيرهم فى الإتقان والضبط- وقد أدى ذلك إلى اعتبار القراءات علما من العلوم الدينية وشرع العلماء يؤلفون فيها الكتب المتعلقة بأدائها وروايتها.

موضوعات الخطابة ودواعيها :-

يتشابه صدر الدولة العباسية مع صدر الدولة الأموية ووسطها، فالدولتان قامتا وسط فتن هو جاء - والخارجون عليهما من كل ناحية، والخلفاء الأوائل فى كلتا الدولتين . كانوا ذوى بيان ولَسن.

ولذا فإن موضوعات الخطابة فى عصر بنى العباس تكاد تكون متقاربة مع عصر بنى أمية- لأن دواعى الخطابة فى العصرين خاصة فى بداية تأسيس الدولتين كانت متشابهة.

فمثلا:-

١- الدعوة العباسية : قامت على أساس إثبات حق آل البيت فى الخلافة ولذا قامت دعوتهم على ذلك، وعلى بيان مظالم الأمويين. واعتسافهم، وما ارتكبوه من حرمات وبخاصة قتلهم للحسين وأحفاده.

٢- بيان سياستهم ليوازن الناس بين حكمهم وحكم الأمويين. وكان بعضهم يحاول أن ينهج فى ذلك منهج الخلفاء، ويبين أنه يقيم الحدود. وينفذ أحكام الله ، ويعلن سلطانه - وكان الخلفاء يحاولون الاتصال بالعامة ويذكروهم بالعهود، كلما جدّ أمر أو حدث شأن من الشئون.

٣- الفتن- خروج العلوين عليهم والدعوة لأنفسهم- وكان كل جماعة يحاولون إثبات أحقيتهم للخلافة بالأدلة والبراهين- وإبطال دعاوى خصومهم من أبناء عمهم، وكان ذلك حافزا للبيان وموضوعا من موضوعاته.

ولم يكن الخروج مقصورا على العلوين، وإنما خرج فى عهد المهدى، المقنع الخراسانى ، وكانت أيضا الفتنة بين الأمين والمأمون مرتعا خصْبا للخطابة.

وكل ذلك كان عاملا من عوامل نهوض الخطابة

٤- الوفادة وإن كانت أقل من عصر بنى أمية وأشهر هذه الوفادة- وفادة أهل الشام الذين جاءوا للمنصور يعتذرون.

٥- المجالس: كانت تعقد المجالس ليتسابق الخطباء فيها، وكان أولوا السبق فى تلك المجالس، المعتزلة أصحاب الكلام، وأشهر منهم عمرو بن عبيد. وبشر بن المعتصم. وأبو الهذيل والنظّام.

ألفاظ الخطابة ومعانيها وأسلوبها:-

تشابهت الخطابة فى معظمها فى عصر بنى أمية- وتقاربت ألفاظها وأساليبها ومعانيها مع الخطابة فى العصر الأموى، وذلك لتشابه الأسباب التى دفعت الألسنة إلى البيان- وإذا كان بينهما بعض فروق، فإن ذلك كان بسبب تباعد الزمن واتساع نطاق الحضارة.وكثرة المعارف والعلوم. بالإضافة إلى تدوين هذه العلوم، وهو الأمر الذى امتاز به العصر العباسى عن عصر بنى أمية وصدر الإسلام.

الألفاظ :-

من ناحية الألفاظ نستطيع أن نقول إنه لايوجد فرق كبير بين ألفاظ الخطابة فى العصر العباسى وعصر بنى أمية وصدر الإسلام . إلا أنها قد زادت عذوبة مع الفخامة والقوة أحيانا .

وإذا كنا قد قلنا إن الخطابة فى عصر بنى أمية قد تحسنت عن صدر الإسلام بسبب اطلاعهم على حضارات الأمم الأخرى. فإننا هنا نقول إن الحضارة فى عصر الدولة العباسية كانت قد تمكنت من النفس العربية وتغلغلت فى ثناياها فسهلتها وألانتها. ولم يعد للصحراء أثر قوى فى نفوس خطبائها .

وقد قلنا قبل ذلك إن الألفاظ تأتى موائمة لما صدرت عنه، ومطابقة لما اقتضاها (وكل إناء بما فيه ينضح) .

المعانى :-

والمعانى أيضا فى العصر العباسى كانت تقارب المعانى فى العصر الأموى. لكنها زادت عليها زيادة يمكن أن نقول عنها. إنها من أسباب ازدهار الخطابة ورقتها فى صدر الدولة العباسية.

فمثلا:- وجدنا معانى الخطب فى العصر العباسى فيها زيادة مبالغة وتهويل. وبخاصة فيما يتعلق بمنصب الخلافة ومنزلة الخلفاء- فقد بالغ الخطباء فى خطبهم فى إثبات إستحقاق خلفاء بنى أمية للخلافة. بسبب نسبتهم إلى النبى ﴿ﷺ﴾ وبالغوا فيما ينبنى على ذلك النسب من استحقاق للاستعلاء، لأن انتسابهم للنبى يجب أن يكون مناطا للعزة وسببا للرفعة.

والمعروف أن المبالغة تسود وتكثر، حيث تكثر صناعة الكلام ومحاولة إجادته- ومما امتازت به الخطابة فى العصر العباسى أيضا، زيادة التفنن فى

المعانى ، والبحث عن دقيقها ، والغوص وراء عميقها ، وذلك لكثرة الترجمة وسيادة البحوث العلمية.

وقد استطاع كثير من الخطباء أن يقتبسوا مما ترجم ابن المقفع وأمثاله عن حِكَم فزينوا بها خطبهم، بالإضافة إلى تزيينها بالقرآن والسنة - فبدت كثير من هذه الخطب عميقة الفكرة مُحكمة المعنى.

كذلك فقد كثرت المعانى الدينية على ألسنة الخطباء، وبخاصة الخلفاء من بنى العباس، لأنهم استولوا على الخلافة باسم الدين ، وادعوا أحقيتهم بها لقرابتهم من النبى الكريم، وبتهويلهم فى مظالم الأمويين، وإثبات خروج الأمويين عن جادة العدل.

وما دام خلفاء بنى العباس يريدون تأييد دعوتهم بالدين، فلابد أن تنحو خطبهم منحى دينيًا، إذ يدافعون عن أعمالهم بوصلها بالدين، وبيان أنها صادرة عنه وواردة إليه- وربما كان ذلك واضحا أكثر عند خلفاء صدر هذه الدولة، والذين كانوا يقومون بأنفسهم بإمامة الناس فى الصلاة وإلقاء الخطب عليهم.

انظر إلى ما قاله أبو جعفر المنصور فى إحدى خطبه . قال :-

أيها الناس : (**إنما أنا سلطان الله فى أرضه. أسُوسكم بتوفيقه وتسديده وتأييده - وأنا خازنه على فيئه، وحارسه على ماله. أعمل فيه بمشيئته، وأقسمه بإرادته-وأُعطيه بإذنه- قد جعلنى الله عليكم قفلاً- إن شاء أن يفتحنى لأعطياتكم وقسْم فيئكم فتحنى - وإن شاء أن يقفلنى أقفلنى**) .

وكانت المعانى فى بعض الأحيان عنيفة شديدة ، وذلك عند خطاب قوم يتوقع الخليفة خروجهم عليه- أو لم يتعود نصرتهم له- وإنما عَرَف أنهم من المناوئين له الرافضين لحكمه كأهل للشام- حين ذلك ترى الخطابة الحجَّاجية على أتم ظهورها ووضوحها.

الأساليب :-

كانت الأساليب فى العصر العباسى تقارب فى جملتها أساليب الخطابة الأموية- ففى خطبهم كنت ترى الاستشهاد بالقرآن الكريم، والاقتباس من الآية- أو من حديث نبوى شريف- وكذلك الاستشهاد بالشعر العربى المناسب- لكن هذه الأساليب زادت فى أمور لم تكن موجودة فى الخطابة الأموية أو صدر الإسلام- فمثلا:- كان فى أساليبهم مبالغة فى تنسيق الخطب وإحكام تقسيمها، وكان بعضهم يضمّن مقدمته إشارة إلى موضوعها- لأن الخطابة فى هذا العصر بدأت تُعرف كعلم له قواعد وأصول- وعنى بعض الناس بنشر بعض أصولها وتعليم قواعدها- وقد دفع ذلك كثيرا من الخطباء إلى الالتزام بقواعد وأصول هذا العلم فى خطبهم ، وبأن تكون موافقة لقواعد النقد، التى كانت مقاييس وموازين لوضع الخطب فى مواضعها الأدبية.

كذلك لوحظ على أساليب الخطابة فى العصر العباسى ، كثير الكلام ذى الفقرات القصيرة المختومة بكلمات ذات رنين قوى- ومع أن الكلام الخطابى فى هذا العصر كان فيه المرسل المزدوج المقسّم إلى فقرات قصيرة ، وكان فيه أيضا السجع، إلا أن المرسل كان أقلها، والمزدوج كان أكثرها.

ويرى الشيخ أبو زهرة :- (١) أن السبب فى قلة الإرسال فى هذا العصر عن سابقه ، أن إعداد القول قد كثر، وحيث كان ذلك، قلّ الكلام المرسل- وأيضا لكثرة الخطباء من الموالى، وهؤلاء من دأبهم محاولة التحسين والتكليف، وليعوضوا به ما نقصته سليقتهم اللغوية .

الإيجاز والإطناب :-

وصل إلينا من هذا العصر خطب طويلة وخطب قصيرة ، وكان لكل مقام ما

---

(١) راجع الخطابة صـ ٣٣٨.

يقتضيه، إلا أن العباسيين كانوا يميلون إلى طول الخطبة أكثر ممن سبقهم، ويختارون مواضع البسط والإطناب، ويكررون المعنى الواحد بعبارات مختلفة الألفاظ والأساليب، مرة بالاستفهام، وأخرى بالتقرير، وأخرى بالنفى- يقول الشيخ أبو زهرة :- (١)

(كانوا يحاولون بذلك أن يثبّتوا المعانى فى نفوس سامعيهم ليكون الغرس بعيد الغور، فيثمر أطيب الثمرات ، وأدناها جنى، وهم فى ميلهم إلى الطويل من الكلام دون قصيره يشبهون بنى أمية- وينهجون نهجهم) .

أسباب قوة الخطابة فى ذلك العصر وأسباب ضعفها

أولا: أسباب القوة :-

قويت الخطابة فى صدر الدولة العباسية ، وارتفع شأنها وازدهرت ، كما كانت فى صدر الدولة الأموية ، وأسباب ذلك يمكن أن تلخص فيما يأتى :-

(١) إحاطة الدولة بنطاق من الفتن والثورات والخروج على الحكام، فكانت الحاجة ماسة إلى الخطب القوية الرائعة، التى يدافع بها الخلفاء عن أنفسهم، ويقاومون بها خصومهم- ويثبتون بالحجة أحقيتهم فى الخلافة- والفتن كما هو معروف تحرّك الألسنة وتدفعها إلى القول- إذ يلتبس الحق بالباطل ويكون الغلب لمن هو أقوى بيانا وأكثر حجة.

(٢) كان خلفاء صدر الدولة ممن اشتهروا بالفصاحة والبلاغة وقوة الحجة لأنهم من بنى هاشم ، الذين اشتهروا بالفصاحة واللسن، وكانوا كما قلنا: هم الذين يخطبون الناس، ولاينيبون أحدا غيرهم فى الصلاة ، مما كان يشجع الآخرين على تقليد خلفائهم ومحاكاة أمرائهم ، والناس ملوكهم تبع.

(١) المرجع السابق صـ ٣٣٩.

(٣) كانت جمهرة الأمة فى صدر الدولة ممن يفقهون مرامى العبادات ومعانى الكلمات- ولم تكن العُجمة قد غلبت. أو النعرة العربية قد خبت، وكان من القوم من يحسن الإستماع ، ومن الزعماء والقواد من يجيد البيان - أما بعد ذلك، وبعد المائة عام الأولى من حكم العباسيين- فقد غلبت العجمة. وماتت النعرة العربية.

ثانيا : أسباب الضعف :

نستطيع أن نلخص أسباب ضعف الخطابة بعد المائة سنة الأولى من حكم العباسيين بما يأتى :

أولاً :- أن الدواعى إلى القول قد ضعفت- فقد ثبتّت دعائم الدولة العباسية وقُضى على معظم الخارجين عليها- وقلّ خلاف العباسيين فيما بينهم- ومعروف أنه إذا ضعف الداعى إلى الخطابة ، وقلّت الحاجة إليها، ضعف أمرها وهان شأنها.

ثانياً :- تمرد الخلفاء عن الخطابة ، وإنابة غيرهم منابهم فى الصلاة ، جعل الناس يستهينون بمواقف الخطابة تقليداً لخلفائهم - وقد تبع استهانة الناس بالخطابة، استهانتهم بالخطيب، وقلّة احترامهم له، وبهذا ضعفت الرغبة فى القول.

ثالثاً : ضَعْفُ أمر العرب ، وذهاب سلطانهم، وضياع نفوذهم كان أيضا من الأسباب ، لأنه بضعف العرب وهم أهل الفصاحة والبيان، ضعفت الخطابة، لأنهم أقدر الناس عليهما- وليس المتعرب كالعربى.

رابعا :- كان الجند وهم حماة الدولة، ممن تغلب عليهم العُجمة، وهؤلاء ولاشك لايثيرهم القول العربى البليغ- وإنما تثيرهم عصبياتهم الجنسية ، التى كان لها السلطان الأكبر فى ذلك العصر- فذهب من الخطابة داع من أعظم دواعيها، وموضوع من أكثر موضوعاتها، وهو حث الجند على الجهاد، وإيقاظ

نفوسهم بهذه الخطابة.

خامسا :- فى عصر بنى العباس، عُرفت الكتابة ، وحلّت محل الخطابة ، واتسعت موضوعات الكتابة، وتعددت أغراضها، حتى صار الخليفة أو الوالى أو القائد، إذا أراد أن يدعو مَنْ هُمْ تحت إمرته إلى شىء، أناب كتابه عن خطابه- فأرسل إليهم كتابا يقرأ- وليرجعوا إليه بين وقت وآخر- وبذلك استغنى عن الخطابة فى أخص موضوعاتها.

وإذا كانت الخطابة فى العصر العباسى قد ركدت أو تخلفت بعد المئة الأولى لهذه الأسباب التى ذكرناها- فقد خلفها فنّ آخر من القول، صاحبها ردحا من الزمان، ثم انفرد بعدها بالسلطان - وذلك الفن هو المناظرة.

وإن كانت المناظرة تتفق مع الخطابة فى الارتجال، ومحاولة الغلب بالبيان، والسبق باللسان، إلا أنها تخالف الخطابة فى الموضوع.

وقد سادت المناظرات ذلك العصر، لأن الحياة العقلية كانت لها السيادة، وعظُم أمر العلم، وكثرت مساجلات العلماء فيما بينهم ، وصارت مجالس العلم ميدانا للمسابقة الكلامية والجدلية ، بين زعماء الفرق الإسلامية - ومع ذلك فقد كان المتكلمون يحرصون على بلاغة الكلام، وإيضاح البيان، والتأثير بالاقناع بعد الإفحام [1].

أشهر الخطباء فى هذا العصر :-

إذا كنا قد تحدثنا فى المبحث السابق عن أشهر الوعاظ فى هذا العصر، وذكرنا أسماء عدد من العلماء، الذين خدموا الإسلام والدعوة الإسلامية ، فإننا هنا نذكر أشهر الخطباء فى عصر بنى العباس، بصرف النظر عن نوع الخطابة التى كانوا يُلقونها على الناس.

---

(١) راجع هذا الموضوع فى كتاب (الخطابة) للشيخ محمد أبو زهرة من صـ ٢٣٧ : ٢٤٢.

وإذا كان خطباء عصر بنى العباس، قد امتازوا بالكثرة، وعُرفت أعداد كبيرة منهم، فإننا هنا نكتفى بمجرد ذكر نماذج فقط من أشهر خطباء هذا العصر، وأقواهم بيانا وأشدهم تأثيرا- من الهاشميين (العباسيين والعلويين) ومن غير الهاشميين أيضا.

يقول الشيخ محمد أبو زهرة فى كتابه الخطابة:- (١)

امتاز بالخطابة عدد عظيم من رجال هذا العصر، أقواهم بيانا وأشدهم تأثيرا، وأقدرهم على الإدلاء بالحجة. خطباء الهاشميين، (عباسيين وعلويين)، ومن خطباء العباسيين، داوود بن على بن عبد الله بن عباس، وعبد الله بن على، وصالح بن على، وابنه عبد الملك بن صالح، وسليمان بن جعفر، الذى قال فيه البصيرون بالكلام من أهل مكة عندما وليها: إنه لم يَرِد عليهم أمير منذ عقلوا الكلام، إلا وسليمان أبْيَن منه قاعدا، وأخطب منه قائما.

ومن خطباء العلويين، محمد بن عبد الله بن حسن الملقب بالنفس الزكية- وأخوه إبراهيم، وجعفر الصادق، والعباس بن الحسين، وكان مقربا من الرشيد والمأمون، حتى قال فيه المأمون: من أراد أن يسمع لهوا بلا حرج، فليسمع كلام العباس.

ومن عرف بالخطابة من غير الهاشميين، خالد بن صفوان، وابن عمه شبيب، والفضل بن عيسى، وابنه عبد الصمد، وهما من الموالى، ومن الموالى أيضا جعفر بن يحيى البرمكى والفضل بن سهل، وأخوه الحسن، وطاهر بن الحسين، وابنه عبد الله بن طاهر وغير هؤلاء كثيرون.

---

(١) نقل هذا الكلام بنصه من الكتاب المذكور ص ٣٤٣.

خامساً : الخطابة فى العصر الحديث :ـ

الواقع أن كثيراً من خطباء المساجد فى هذا العصر ليس لديهم من الثقافة أو القدرة أو الوعى مايمكّنهم من القيام بهذا الدور، فكثير منهم يعتمدون على الخطب المنبرية المطبوعة، يحفظونها عن ظهر قلب، ويلقونها كالببغاوات ، وماأكثر الخرافات التى ينقلها كثيرون من هؤلاء الخطباء، من الكتب الصفراء المليئة بالإسرائيليات، والتى تسىء إلى العقل والدين معاً، وقد أصبحت الخطابة عند كثيرين من هؤلاء، مجرد وسيلة لكسب العيش، فهى مهنة احترفوها لايهمهم إلا أن يعملوا من خلالها كموظفين محترفين دون نظر إلى النتيجة .

أسباب تخلف الخطبة فى هذا العصر :

المعروف أن الخطابة الدينية متخلفة فى جميع البلاد الإسلامية ولاتتناسب مع ظروف العصر- ومع أن مصر تعتبر من أقل هذه البلاد تخلفاً فى هذه الناحية، لأنها من الدول القليلة جداً التى تهتم بالدعاة والوعاظ مادياً وعلمياً ، ولهم فيها معاهد متخصصة يتخرجون منها ، إلا أننا سنتحدث برغم ذلك عن أسباب تخلف الخطبة الدينية فى مصر، ومانقدمه من علاج لهذا التخلف، ليكون ذلك طريقاً للعلاج فى بلاد أخرى أشد حاجة فيها للإصلاح - حيث لايوجد فى بعضها معاهد لتخريج الدعاة المتخصصين، وحيث لايوجد فى بعضها الحافز المادى لتشجيع الطلاب على الالتحاق بهذه الدراسات المتخصصة - وحيث لايوجد فى معظمها المرتب المناسب لخطباء المساجد والوعاظ ليتفرغوا تماماً للدعوة دون أن يفكروا فى مشاكلهم الأسرية

أو حاجاتهم الطبيعية وليظهروا بالمظهر اللائق بهم وبالإسلام .

ولقد كانت الدراسة القديمة فى الأزهر (قبل التطوير) سبباً من أسباب ظهور أمثال هؤلاء الخطباء المحترفين ، وكانت طريقة تأليف الكتب وتدريسها مسئولة أيضاً،وإلى حد كبير،عن هذا التخلف والجمود ، كذلك نوع الكتب وعدم ملاءمتها لظروف العصر ، فقد احتفظ العلماء بطريقة سلفهم الأزهرى فى التأليف،وهو أن يكون الكتاب مؤلفاً من شرح وحاشية وعند زيادة البيان تضاف إليه التقارير: ولذلك ظهر دعاة لإصلاح الأزهر، يدعون إلى تغيير طريقة التأليف والتدريس،ويعيبون على علماء الأزهر إيثارهم العزلة وجهلهم بالعلوم الحديثة، وقد كان الشيخ محمد عبده يرى أنه لاسبيل إلى الإصلاح فى الأزهر إلا بتغيير هذه المناهج وطريقة تأليفها وتدريسها ، ويرى أن عكوف العلماء على كتبهم المألوفة فى التدريس ضياع للشريعة نفسها [1] .

أما الشيخ الظواهرى، وهو أيضاً من الذين نادوا بالإصلاح فى الأزهر وساهموا بالفعل فى هذا الإصلاح ، فقد عاب على علماء الأزهر إيثارهم العزلة وجهلهم بالعلوم الحديثة ، واقتصارهم على الوعظ والإرشاد،وكان يرى فيما يدرس بالأزهر من كتب – القصور والجمود والتخلف ، ووصف الكتب بأنها كتب الشقاء وسوء الحظ على طلاب العلوم الإسلامية بل وصف الطريقة التى تدرس بها بأنها سفه مابعده سفه [2].

ولو رجعنا إلى محاولات الساعين للإصلاح فى الأزهر ابتداء من رفاعة الطهطاوى حتى الآن، لوجدناهم جميعاً يؤكدون أنه لاإصلاح بغير إصلاح طريقة التدريس، والتخلص من الكتب العتيقة المعقدة ، وتأليف كتب جديدة مشوقة سهلة مع ضرورة الحرص على الأمانة العلمية .

---

(١) راجع تاريخ الإمام ص ٦٢١.

(٢) الأزهر تاريخه وتطوره ص ٢٦٢ مطبوعات وزارة الأوقاف وشئون الأزهر سنة ١٩٦٤.

تطوير الأزهر ضرورة لتطوير الدعاة :

لهذا كان تطوير الأزهر ضرورة ملحة تقتضيها ظروف العصر باعتباره الهيئة العلمية الإسلامية الكبرى التى تقوم على حفظ التراث الإسلامى ودراسته وتجليته ونشره ، وتحمل أمانة الرسالة الإسلامية إلى كل الشعوب، فالأزهر يعمل على تزويد العالم الإسلامى والوطن العربى، بالمختصين وأصحاب الرأى فيما يتصل بالشريعة الإسلامية، والثقافة الدينية والعربية ، لغة القرآن ، حيث يعمل على تخريج علماء عاملين متفقهين فى الدين ، يجمعون إلى الإيمان بالله، والثقة بالنفس، وقوة الروح كفاية علمية وعملية ومهنية، لتأكيد الصلة بين الحياة والربط بين العقيدة والسلوك ، وتأهيل عالم الدين للمشاركة فى كل أسباب النشاط والإنتاج والريادة والقدوة الطيبة - وعالم الدنيا للمشاركة فى الدعوة إلى سبيل الله بالحكمة والموعظة الحسنة .

وربما كان من أسباب عدم تمكن خطباء المساجد كما قلنا من القيام بالدور الذى يجب أن يقوموا به، وانعزالهم عن مجتمعهم الذى يعيشون فيه، وعدم مشاركتهم فى الحياة العامة التى يجب أن يشاركوا فيها ، سيطرة الثقافة الاستعمارية فى العالم الإسلامى لفترة طويلة، وماصنعته من تفسير أن الإسلام عبادة وقربى إلى الله وفناء فيه فقط ، وأن العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين أو يتعارض معه ، وزاد انعزال هؤلاء عن مجتمعهم تصور الناس بل وتصور هؤلاء أنفسهم، أن خريجى الأزهر هم رجال دين،وليس لهم أن يتصلوا بعلوم الدنيا اتصال النفع والانتفاع .

ولو رجعنا إلى المذكرة الإيضاحية لمشروع قانون تطوير الأزهر سنة ١٩٦١م[1]لوجدنا أن من أسباب صدور هذا القانون، هذا الانعزال الذى تحدثنا عنه، وحاجة العالم الإسلامى إلى من يساعده فى استكمال أسباب تحرره ونهضته والارتفاع بمستوى معيشته ، فقد جاء فى هذه المذكرة أنه من علم

(١) راجع القانون رقم ١٠٣-١٩٦٠ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها .

الأزهر شع نور الإسلام فى بلاد كثيرة من أفريقيا وآسيا، وزاد عدد المسلمين عشرات الملايين ، وأن بعوث الأمم المختلفة إلى الأزهر، كانت سبباً فى توثيق علاقاتنا ببلاد كثيرة منذ أقدم العصور إلى اليوم ، واكتسب اسم الأزهر بذلك قدسية، واكتسب المنتسبون إليه احتراما ، وصار رأيه هو الرأى فى كل مايتعلق بالعقيدة والشريعة، وصار هو الجامعة الإسلامية الكبرى فى الشرق والغرب .

وتحدثت المذكرة أيضاً بعد تحدثّها عن سيطرة الثقافة الاستعمارية فى العالم الإسلامى، مما سبب انعزال خريجى الأزهر عن مجتمعهم الذين يعيشون فيه، وجود ضرورة ملحة لتأهيل العالم الدينى، المتخصص فى عمل من أعمال الخدمة والانتاج، التى تحتاج إليها نهضة المسلمين فى كل البلاد، خاصة وأن العالم الإسلامى ينتظر من الأزهر أن يعدّ أبناءهم إعداداً يكونون فيه مستكملين لكل العناصر التى تهيؤهم لحمل أعباء النهضة فى بلادهم خصوصاً بعد أن عاد أكثر المبعوثين من تلك البلاد إلى بلادهم فأصبح مصيرهم مثل مصير خريجى الأزهر فى بلادنا، تعطّل فى الخريجين زادهم انعزالا عن المجتمع، وعدم اعتراف من الدولة بهم ، باعتبار أن الأزهر غير مساير لظروف التطور ، مما أدى إلى فقد الثقة بالأزهر وخريجى الأزهر فى مجتمعات المبعوثين ، حتى أوشك هذا الشعور أن يقطع كثيراً من الأواصر بيننا وبين تلك البلاد ، وأصبحت بعض البلاد الإسلامية تحوّل بعثاتها كلها أو بعضها إلى الجامعات المدنية، فى مصر، أو غيرها من البلاد .

من أجل ذلك كله كان لابد من تجديد الأزهر وتطويره والاعتراف بمكانته وأثره،مع الاحتفاظ له بطابعه وخصائصه وصفته،التى استحق بها أن يبقى مسيطراً على تاريخنا،وعلى العلاقات الوثيقة بيننا وبين إخوان لنا فى شرق الأرض وغربها من ألف سنة .

(١) راجع الأزهر تاريخه وتطوره ص ٤٤٩ .

وقد قررت عدة مبادىء لتكون أساس هذا الإصلاح من أهمها [1]:

١- بقاء الأزهر وتدعيمه، ليظل أكبر جامعة إسلامية وأقدم جامعة فى الشرق والغرب ·

٢- تحقيق قدر مشترك من المعرفة والخبرة بين المتعلمين فى جامعة الأزهر والمعاهد الدينية الأزهرية، وبين سائر المتعلمين فى الجامعات والمدارس الأخرى مع الحرص على الدراسات الدينية والعربية، التى يمتاز الأزهر بها منذ كان ·

٣- توحيد الشهادات الدراسية والجامعية فى كل الجامعات، ومعاهد التعليم فى كل الجمهورية ·

٤- تخريج علماء حصلوا على مايمكن تحصيله من علوم الدين وتهىء لهم كل مايمكن من أسباب العلم والخبرة، وفى كل مجال من مجالات العمل والانتاج فلا تكون كل حرفتهم أو كل بضاعتهم هى الدين ·

٥- تحطيم الحواجز والسدود بينه وبين الجامعات ومعاهد التعليم الأخرى، وإزالة الفوارق بين خريجيه وسائر الخريجين فى كل مستوى، وتكافؤ الفرص بينهم جميعاً فى مجالات العلم ومجالات العمل ·

هل أفاد التطوير؟

الحقيقة أن تطوير الأزهر لم تظهر كل آثاره المرجوة منه، خصوصاً بالنسبة لشاغلى وظيفة الإمامة والخطابة، حيث لازلنا فى مرحلة الانتقال، والتطوير فى حاجة إلى وقت طويل حتى يؤتى ثماره المرجوة خاصة وأن التطوير عبارة عن ثورة فكرية لابد لها من أتباع وأنصار يؤمنون بها، ويخلصون لها ولمبادئها ·

---

(١) راجع الادارة العربية تأليف س· أ ق· حسينى ترجمة ابراهيم العدوى مطبوعات الألف كتاب - ١٨٦ ص ٢٠ ·

وقد جرت العادة أن يكون بعد كل انقلاب سياسى، أو اجتماعى، أو فكرى ردّ فعل، وهزة عنيفة تبعد النتيجة المرجوة من هذا الانقلاب عن وضعها الصحيح، تماماً كما حدث بالنسبة للمسلمين فى زمن عمر وعثمان رضى الله عنهما، حين نشأ مجتمع إقطاعى على أنقاض المجتمع القبلى، بعد أن بدأ المسلمون يحصلون على ضياع كبيرة فى الشام والعراق ومصر، وجهات أخرى فى الدولة الإسلامية ولم تستطع المبادىء المتشددة الرشيدة، التى وضعها عمر بصدد مسألة امتلاك الأراضى، أن تمنع من ظهور أورستقراطية إسلامية فيما بعد،وظهرت بذلك طبقة أخرى جديدة لم يكن من المفروض أن تظهر وثبتت تلك العبارة المأثورة التى تقول : (إنه يوجد من بين كل مجتمع قبلى مجتمع آخر إقطاعى) [1] .

وقد أردت بذلك كله أن أوضح أن التطوير الذى قصد به إصلاح الأزهر ، وهو من وجهة نظرى انقلاب كبير، لم يكن ليحدث بسهولة ، ولم يصل بالأزهر بعد إلى ماكان مرجوّا له من إصلاح .

كيف يؤتى التطوير ثماره المرجوة ؟

يجب أن أنبه إلى موضوع هام . التطوير لم يكن القصد منه أبداً مجرد تغيير طريقة الكتب، أو تغيير طريقة التدريس مع تدريس أى كتب، أو تدريسها بأى طريقة، ولكن كان المطلوب من التطوير دراسة الإسلام وفلسفته، وأخلاقياته، ونظرياته العلمية، بطريقة جديدة تتناسب مع العصر وتطوره، حتى تستطيع أن تقف فلسفة الإسلام وأخلاقياته فى وجه الفلسفات المادية المعاصرة،وأن تثبت بالأدلة العلمية والعملية، حضارة الإسلام، وتطوره ،وتميزه وضرورته، وإثبات أنه دين الفطرة والسلام والأمان ، وملاءمته لكل زمان ومكان .

كان من المفروض من التطوير أن يُخرج الأزهر من عزلته عن العالم ، وأن

ينفتح به على آفاق فكر جديد، يتناسب مع مايحتاج إليه العالم الإسلامى بالفعل، بعد أن وضعته الظروف السياسية التى يمر بها فى هذا العصر فى موضع الاختبار، حتى يستكمل بالإسلام وفكر الإسلام أسباب تحرره ونهضته، والارتفاع بمستوى معيشته ، ليستطيع بالإسلام والفكر الإسلامى، أن يقضى على الثقافة الاستعمارية، التى استطاع الاستعمار فى فترة استعماره للعالم الإسلامى أن يلوّن بها أفكار أهله وعقائدهم، ووضع بها فى نفوسهم موازين جديدة وقيماً جديدة، حاول بها أن يباعد بينهم وبين الإسلام .

وقد قلنا إن الاستعمار والاستشراق، قد استطاعا فعلا أن يقنعا الكثيرين بأن الإسلام مجرد عبادة وقربى إلى الله وفناء فى ذاته ، وان العمل للحياة شىء آخر يختلف عن الدين، أو يتعارض مع الدين .

المفروض فى التطوير أن ينقّى العقيدة مما شابها من خرافات وأضاليل، وأن يبعد المسلمين عن الإسرائيليات ، وأن يعدّ العالم الدينى، الفاهم، المثقف الواعى، الخبير فى الدعوة، أو التجارة، أو الصناعة، أو التعليم، أوالصحة ، المتخصص فى عمل من أعمال الخبرة أو الانتاج التى تحتاج إليها نهضة المسلمين فى كل البلاد .

وحتى لايضيع الأزهر وينحرف عن مساره الصحيح الذى رسمه له التطوير فإنى اقترح مايأتى لإمكان النهوض به وتطويره تطويراً صحيحاً، والإفادة من هذا التطوير الذى قصد به الإصلاح ولم يصل به إلى هذا الإصلاح :

أولاً : بالنسبة للتعليم الإعدادى والثانوى بالأزهر، يجب أن يتم تعديل مناهج الدراسة واختصار المواد إلى الحد الذى لايرهق الطالب ، ووضع حوافز تشجيعية للطلاب، للإقبال على هذا النوع من التعليم ، كذلك ضرورة إعادة مكاتب تحفيظ القرآن الكريم، والاهتمام بها، وامتحان الطلاب فى القرآن الكريم كله امتحاناً حقيقياً .

ويمكن تقسيم حفظ القرآن على سنوات الدراسة الابتدائية، وامتحان

الطلاب فى أجزاء منه كل عام فى الاعدادى والثانوى ، وكما قلت : مع ضرورة وضع حوافز تشجيعية، مالية وأدبية والتوسع فى إنشاء المعاهد الدينية الاعدادية والثانوية فى كل المحافظات ·

ثانياً: بالنسبة للكليات، يجب الالتزام بالمناهج الموضوعة لكل فرقة دراسية وتكليف الأساتذة بتأليف الكتب طبقاً لهذه المناهج ، على ألا يبدأ تدريسها إلا بعد عرضها على مجلس القسم.ليقرر مدى مطابقتها للمنهج من عدمه ، ويضع تقريراً بذلك يُرفع إلى مجلس الكلية، ليقرّ تدريس الكتاب أو عدم تدريسه ·

ولا يلزم من تدريس كتاب لأحد الأساتذة بفرقة من الفرق، ضرورة أن يكون هو شخصياً القائم بتدريسه ، على أن تكون الأسئلة التى يمتحن فيها طلاب الفرقة، مرتبطة بالمنهج ارتباطاً وثيقاً ·

ويمكن اختيار الكتاب المطلوب تدريسه ، بالمفاضلة بين كل ماأُلف فى المادة لتقرير أفضلها كل عام، ولامانع من منح صاحب المؤلف المختار منحة حافزة ·

ويجب ربط الطالب بالأستاذ طوال العام الدراسى، وذلك عن طريق تكليفه بأبحاث شهرية، يمنح عنها درجات أعمال السنة التى ينبغى أن تعود ، لتعود إلى الكلية مكانتها بين طلابها ·

كما يجب العناية بالتدريب فى كليات الدعوة، وأقسام الدعوة بكليات أصول الدين، ويوزع هذا التدريب على مدار العام الدراسى، كرابط يربط الطلاب بالدراسة.وتكون مادة التدريب إجبارية ويتقرر على أساسها انتقال الطالب أو رسوبه ·

ويكون التدريب بالمساجد، والمصانع، وجميع المنشئات والمؤسسات الحيوية، ذات الحاجة إلى الدعوة الإسلامية ·

هذا بخصوص المناهج والتدريس بالنسبة لكلية الدعوة بخاصة، والكليات النظرية عموما ، وإن كنت أرى وضع حوافز مالية لطلاب كلية الدعوة وأقسام

الدعوة لحفزهم على مواصلة الدراسة بها، وعدم الهروب منها، خوفا من أن يتم تعيينهم أئمة بالمساجد .

لذلك : ولما كان الأزهر قد أنشىء لتكون وظيفته الأساسية الدعوة إلى الله، ونشر الثقافة الإسلامية فى الداخل والخارج، كان لابد من تشجيع الإقبال على الكليات التى تُخرّج هؤلاء الدعاة والاهتمام بها، خصوصاً بعد أن أصبح من حق الطالب الأزهرى الحاصل على الثانوية الأزهرية، أن يلتحق بالكليات العملية ليتخرج منها طبيباً أو مهندساً أو محاسباً .

وإذا جاز لبعض المعاهد العامة أن تعطى حوافز مادية، لتشجيع الطلاب على الالتحاق بهذه المعاهد، لحاجة الدولة إليهم، كما يحدث بالنسبة للمعاهد الفنية العسكرية التى تتكفل بتعليم الطلاب مجاناً، وإعطائهم مرتبات شهرية طيلة مدة الدراسة، عدا الانفاق عليهم من مأكل وملبس وخلافه، وذلك لحاجة الدولة إلى هذه التخصصات، وماتعطيه بعض الوظائف لموظفيها من بدلات ومنح مالية، ووضعهم على درجات خاصة، وسرعة ترقيتهم نظير مايبذلونه من جهد – أو لأهمية هذه الوظائف فى الدولة – مثل : كادر القضاء والجيش والجامعات ، وخلافه .

فإنه أصبح من المحتم، خصوصاً فى هذه الأيام التى طغت المادة فيها على كل شىء أن نتألف قلوب طلاب الأزهر، بتشجيعهم على الإقبال على هذه الدراسة والعمل بوظيفة الإمامة والوعظ، التى نفروا منها وعملوا ما فى وسعهم للهروب منها ، حتى أصبحت كليات الأزهر الأصلية، تكاد تكون مقصورة على ذوى العاهات، ومن وقفت أمامهم اللوائح والنظم، فمنعتهم من الالتحاق بغيرها .

بل أصبح أساتذة هذه الكليات يرفضون إلحاق أبنائهم بها . وفضّلوا عليها الكليات الأخرى العملية، على اعتبار أن المستقبل لها، والأعمال متفتحة أمامها أو (هكذا يقولون) .

ماذا لو تكفل الأزهر بالإنفاق على الطلاب، الذين تعدّهم الجامعة لوظائف الإمامة والوعظ، وأعادت إليهم المساعدات المالية الشهرية، التى كانت تمنح لكل طلاب الأزهر فى الماضى وتكفلت الجامعة بصرف الكتب الدراسية لهم بالمجان ؟ .

أعتقد أنه لم تم ذلك، فسيكون هناك إقبال منقطع النظير على هذه الكليات، وهذه الأقسام بالذات .

بل أرى أن يتم الاتفاق مع وزارة الخزانة، على منح الأئمة والوعاظ بدلات الإعلاميين أو النيابة أو غيرهم من أصحاب الكادرات الخاصة . وذلك بعد تخرجهم، لتشجيع الإقبال على هذه الوظائف، وحتى يمكن للإمام أن يعيش عيشة كريمة وأن يظهر بالمظهر اللائق به كعالم دين .

ومصر،بل العالم الإسلامى كله، فى حاجة ماسة خصوصاً فى هذه الأيام التى غلبت فيها المادية، وانتشر فيها الإلحاد، إلى المتخصصين فى الدعوة الإسلامية وبأعداد كبيرة .

ولقد رأينا كيف أن عمر رضى الله عنه كان يختار الوعاظ الذين يرسلهم للأمصار المفتوحة، ممن لاتقل شخصياتهم عمن عهد إليهم بالولاية على بيت المال، فأرسل عبد الله بن مسعود معلماً، وأرسل معاذاً، وعبادة وأبا الدرداء إلى الشام بناءً على طلب يزيد بن أبى سفيان (1) .

وهكذا اهتم الخلفاء بالوعاظ، واختاروهم من أعلم الناس وأفقههم فى الدين .

ولو قيل إن هؤلاء كانت فيهم رغبة طبيعية فى تعلّم الدين وتعليمه؟

نقول: أنه من الواجب أن نوجد نحن هذه الرغبة، مادامت غير موجودة ولو كان ذلك عن طريق الإغراء المادى .

---

(1) راجع كتاب فجر الإسلام ص ١٥١ ، ص ١٥٢ أحمد أمين .

ولقد كان الرسول ﴿ﷺ﴾ يعطى بعض الداخلين فى الإسلام حديثاً بسخاء، ليتألف قلوبهم للإسلام ، وقد جعل الله لهم حقاً فى الزكاة، فكيف بنا ونحن فى أشد الحاجة إلى هؤلاء، لا لمصلحتهم هم : وإنما لمصلحة الإسلام والدعوة الإسلامية والمسلمين ؟ .

والحقيقة أن التاريخ لاينسى موقف الأزهر الوطنى فى سنة ١٩١٩ ومناهضته للاستعمار الانجليزى، ووقوفه فى وجه هذا الاستعمار وقفات نابعة من العقيدة الدينية، التى كان لها أثرها فى اشتعال الوعى الدينى والوطنى .

ومن هذا التاريخ، تآمر الاستعمار على الأزهر، وفكّر المستعمرون فى إضعاف سلطانه وتغيير وضعه، حتى تستقر أقدامهم فى مصر، خصوصاً وقد استقر فى نفوسهم أن قوة الأزهريين مستمدة من عقيدتهم الدينية .

ولذلك بدأ الاستعمار يضع العقبات التى تعوق الأزهر عن أداء واجبه ، ورأينا أحد ساسة الانجليز يقول : (إن قدم انجلترا لاتستقر فى مصر مادام الأزهر يدرس هذا الكتاب : يعنى القرآن الكريم) (١) .

ومن هذا التاريخ أيقن الانجليز أن العقيدة الدينية هى مصدر تعبهم، وهى أقوى العوامل لمقاومة الاستعمار . لهذا عُنوا بدراسة حالة الأزهر ووضع التخطيط الذى يغيّر من نظامه حتى يخضعوه ويبعدوه عن طريق رسالته الصحيحة .

وقد ربط اللورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة . بين الاحتلال وتبنى سياسة الاستعمار بإضعاف الأزهر، وتغيير نظامه حتى يطغى عليه منهج التعليم المدنى . وينصرف عنه الناس، بحجة توحيد العلم ، والهدف من هذا أن يخضع الأزهر لإحدى الوزارات، فيتمكن المستشار الإنجليزى (دانلوب) الذى كان

---

(١) راجع بحث أهداف الرسالة الإسلامية وبيان دور الأزهر فى نشرها للمرحوم الشيخ كامل محمد حسن (المؤتمر الخامس ص ٤١٣) .

يسيطر على التعليم المدنى من اضعاف الأزهر بواسطة الحكومات السابقة الضعيفة ، وقد رسم المستعمرون لذلك سياسة لحمل الأزهر على الاندماج في وزارة المعارف .

ويقول اللورد كرومر فى كتابه مصر الحديثة: [1] :

إذا تعذر اندماج الأزهر فى الوزارة فلابد من رعاية أمور ثلاثة فى معاملة الأزهريين : -

١- حرمان الأزهريين من وظائف الدولة الكبرى، مخافة استغلال عقيدتهم فى مجال وظيفتهم .

٢- عدم تسوية المؤهلات الأزهرية بالمؤهلات المدنية فى القيم المادية حتى، ينصرف الناس عن الأزهر [2] .

٣- إضعاف السلطة التى تربط بين التعليم الدينى والتعليم المدنى وقد كان من أثر ذلك إلغاء التعليم الدينى بالمدارس الإلزامية حينذاك . ولما قام الخيّرون من أهل الغيرة بإنشاء جمعيات لتحفيظ القرآن سلّطوا عليها وزارة الصحة لتغلقها بحجة أن أمكنتها غير صحية .

ولا أقول ذلك لأنى أرى أن التطوير الحالى هو تنفيذ لسياسة الاستعمار أو قصد به أساساً إلغاء الأزهر .

ولكنى أرى : ضرورة إدخال المواد الدينية بالمدارس،وجعلها مادة أساسية تضاف درجاتها للمجموع العام . مع ضرورة الاهتمام بمكاتب تحفيظ القرآن ورعايتها،والتوسع فى إنشاء المعاهد الدينية فى جميع المحافظات، مع الاهتمام بتحفيظ القرآن على أساس منح حوافز مادية وأدبية، والتقليل من

---

(١) المرجع السابق ٤١٥ .

(٢) كان خريجوا الأزهر الحاصلين على العالمية . أو العالمية مع التخصص،يحصلون على مرتب شهرى قدره ثلاثة جنيهات فقط ، إن وجدوا عملاً ،فى الوقت الذى كان يعين فيه مدرس الإلزامى الحاصل على الكفاءة (مدة الدراسة بها ثلاث سنوات فقط) بأربعة جنيهات [المؤلف].

عدد المواد التى يدرسها طلاب المعاهد الأزهرية. ـ بهذا نصل إلى مانبغيه من نهضة الأزهر وإصلاحه، وتطويره تطويراً حقيقياً، لمصلحة الإسلام والمسلمين ، خصوصاً إذا أضيف إلى ذلك مااقترحته، من التزام بالمناهج، وتدريسها. والتشجيع على التأليف، بالنسبة للأساتذة . وربط الطلاب بالدراسة، وتشجيع الإقبال على الكليات التى تُخرّج الأئمة والوعاظ، وغير ذلك من مقترحات ضمنتها هذا الكتاب .

وإلا فنحن بهذا التطوير، نكون قد نفذنا فعلا خطة دانلوب، وتخطيط كرومر وتنفيذ سياسة الاستعمار، بإضعاف الأزهر وتغيير نظامه، حتى ينصرف الناس عنه .

يقول الدكتور البهى [1] : الأزهر فى رأيى هو قمة المؤسسات الإسلامية فى العالم الإسلامى التى كانت تستطيع مواجهة الصليبية الاستعمارية والماركسية الإلحادية . وكانت تستطيع أيضاً أن تقدم للحياة الإسلامية فى مصر وماوراء مصر، أكبر العون فى حل المشكلات، التى تدور فى حياة الأسرة الإسلامية، والاقتصاد الإسلامى، والتوجيه الإسلامى، وبذلك تواجه القوتين العالميتين الرئيسيتين اليوم : الصليبية الغربية والشيوعية الدولية[2]. ولاعوض عن الأزهر، وكل يوم يمر عليه فى أزمته يزيد فى ضعف قيمته، ويقلل من الانتفاع به، فى تكوين تلك القوة الثالثة التى كان يجب أن تكون لها شأن اليوم. وستكون بإذن الله.

ويقول الدكتور البهى [3]: إصلاح الأزهر ليس رفع مرتبات، ولا إعادة طبع

---

(١) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٤٩٤.

(٢) فشلت السياسة الشيوعية فى العالم ، وانهار الاقتصاد الشيوعى فى البلاد الشيوعية ، وأعلنت كثير من الدول الشيوعية هذا العام (١٩٩١) تخليها عن النظام الشيوعى ، ولم يعد الاتحاد السوفيتى القوة العظمى كما كان ، وسبحان مغير الأحوال .[المؤلف] .

(٣) الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى ص ٤٩٤ .

الكتب المتأخرة، ولا اقتباس نظام وزارة التربية والتعليم، ولا ملاحقة هذه بطلب مشورتها والإفادة من خبرة رجالها، ولا بزيادة كمّ العلماء والطلاب ·

إصلاح الأزهر فكرة، وتنفيذ رسالة، هى فهم الإسلام وحسن عرضه والملاقاة به لما يواجه المسلم من مشاكل· وهى رسالة فريدة لايمكن لمؤسسة تعلمية أخرى أن تنهض بها، ولذلك لاتجدى مشورة وزارة التربية والتعليم فى شأنها ·

والحقيقة : أن الإسلام فى غده يتأثر قوة وضعفا بقوة الأزهر، وضعفه اليوم وبعد اليوم ·

الأزهر مسئول عن ركود الفكر الإسلامى، وعدم قيامه بالدور الإيجابى فى الحياة المعاصرة، مما سبّب ظهور الفكر الغربى الاستشراقى، والمادى الماركسى، وانتشارهما · فأعطى بذلك فرصة لكثير من المثقفين، أن يَقبلوا هذا الفكر المادى الإلحادى · دون أن يجدوا فى ثقافتهم التى يحملونها وفى أنفسهم مايناقش هذا الفكر، حتى يكون قبولهم إياه نتيجة اقتناع وتأمل ·

لقد استطاع الاستعمار أن يعزل الإسلام عن الثقافة عزلا تاماً، حين استطاع أن يعزل الأزهر عن الحياة الجارية، وأصبح العالم كله اليوم فى حاجة ملحّة وسريعة إلى الثقافة الإسلامية، والفكر الإسلامى الحقيقى، حتى يقوم بالدور الإيجابى فى الحياة المعاصرة ويملأ هذا الفراغ الموجود بالاصلاح الدينى، حتى لايظل الوعى الإسلامى، والفكر الإسلامى، مجرد شعار يحمله المسلم فقط كعنوان له، ولايدرك من إسلامه إلاأنه ينتسب إلى الجماعة الإسلامية فحسب ·

إن الجماهير الإسلامية فى كل مكان من بقاع الأرض · عمالا وفلاحين ومثقفين.فى حاجة إلى حل مشكلاتهم عن طريق التوجيه الإسلامى، والتطبيق العملى الصحيح له فى هذه الحياة · حيث أن هذه المشاكل ترتبط ارتباطا كبيراً، وتشتبك جذورها اشتباكا قوياً، مع نوع الإيمان الذى يكمن فى نفوس هذه الجماهير ،التى ثبت أن الاتجاهات الحديثة والإدارات الجديدة التى أنشئت

لحل مشاكلهم، خصوصا مايتعلق منها بحياة الفلاح والعامل، وحياة الجماهير على العموم . كالإرشاد الاجتماعى، أو الخدمة الاجتماعية، أو التوجيه الريفى، أوما شاكل ذلك من تنظيمات، أثبتت عدم فاعليتها وحدها دون مساعدة العامل الدينى والتوعية الدينية التى يقوم بتحمل مسئوليتها .

الأزهر والفكر الإسلامى الصحيح الذى يحميه هذا الأزهر ويدافع عنه .

لذلك كله دافعت عن التطوير، وطالبت بمراعاة تنفيذه بكل دقة وأمانة .

وبعد :

فإذا كنا قد تحدثنا عن الأزهر بهذه الصراحة والوضوح . أملا فى الوصول إلى ماهو أفضل . فإنا لايجب أن ننسى أبداً أن الأزهر لايزال هو الرائد فى العالم الإسلامى كله . وهو الذى يمدّ معظم جامعات ومجتمعات العالم الإسلامى بالأساتذة والوعاظ .

وقد كان الأزهر أيضاً برغم ماقيل عنه قبل التطوير، يعتبر الجامعة الإسلامية الوحيدة التى تمُد العالم الإسلامى كله بالدعاة والمتخصصين فى الثقافة الإسلامية، وعلى أكتاف علماء الأزهر نهضت جامعات، وأسست أخرى فى بلاد عربية وإسلامية كثيرة، بل إنك لو بحثت عن رؤساء الجامعات الإسلامية والعربية الآن، لوجدت أن معظمهم من خريجى جامعة الأزهر - سواء كان ذلك قبل تطويره، أو بعد تطويره، لأن الأزهر ولا يزال- مِلْكا للعالم الإسلامى كله . يعرف ذلك الخاصة والعامة .

ومعنى هذا أن الأزهر وبرغم ذلك ، إذا كان لايزال فى حاجة إلى إصلاح، فإن المعاهد والكليات الدينية فى جميع البلاد الإسلامية - أكثر حاجة إلى هذا الإصلاح .

ويمكن للقائمين على هذه المعاهد والكليات الدينية، مراعاة ذلك ، والاستفادة من المقترحات التى قدمناها، خصوصا مايتعلق بتشجيع الطلاب

مادياً وأدبياً للالتحاق بهذه الكليات الدينية - خاصة الكليات التى تُخرّج الدعاة والوعاظ مع الإكثار من هذه الكليات ٠

رأى المسئولين فى مصر فى أسباب قصور الدعاة وعلاجهم لهذه المشكلة

نظراً لعدم اهتمام الدولة بكليات الدعوة وعدم تدعيمها التدعيم الذى يشجع الطلاب للإقبال عليها، الأمر الذى جعل هناك تقصيراً ملموساً وواضحاً بالنسبة للدعاة .

فقد أدى ذلك بالتالى إلى ظهور بعض الجماعات التى تنتمى للإسلام اسماً، إلا أن معظم هذه الجماعات وللأسف، انحرفت عن الطريق القويم، فأدى ذلك أيضاً إلى خلافات، بين المسلمين وبين هذه الجماعات بعضها البعض؛ حتى وصل الأمر إلى تكفير بعضهم بعضاً، وبعض هذه الجماعات كفّر المجتمع وأهدر دم المسلمين من غير أتباعهم، وخرجوا على السلطة.ووصل الأمر بهم إلى تمكّنهم من قتل رئيس الدولة (أنور السادات) .

وقد تبين خطورة هؤلاء.وبخاصة أن كلهم من الشباب الذى اعتنق فكراً معيناً أصبح عقيدة له ، وأصبح الموت فى سبيل هذا الفكر هو كل أمنيتهم ومنتهى آمالهم .

وقد اضطرت الدولة للتحرك السريع.فبدأت أولا فى اعتقال أعداد كبيرة من هؤلاء الشباب ، ثم وجدت أن الطريق الأسلم والأصح، هو عقد حوار فكرى بين زعماء هذه الجماعات وعلماء الأزهر، وبعض كبار المفكرين الإسلاميين .

وقد كان لى شرف المشاركة فى هذه اللقاءات ، وجلست أكثر من مرة مع شباب مسلم يعتقد اعتقادات غريبة، كان من أسبابها عدم وجود الدعاة المتخصصين المدربين، وكان من أسبابها عدم توفر الحصانة الكافية للدعاة الموجودين بالفعل، ولذا فكر المسئولون فى علاج هذه المشكلة وعقدت لجان

استماع فى مجلس الشعب دُعى إليها كبار المسئولين عن الشباب فى كل القطاعات (التعليمية والاعلامية والشبابية) وقد نوقش فى المجلس أسباب انحراف الشباب ، وخلص الجميع فى النهاية، إلى ضرورة الاهتمام بالشباب، وكذا الاهتمام بالدعاة والتربية الدينية، وضرورة وضع حوافز لطلاب كليات الدعوة ·

وقد اجتمعت لجان أخرى وأوصت بما أوصى به مجلس الشعب ·

ثم اجتمع المجلس القومى للخدمات والتنمية الاجتماعية، التابع للمجالس القومية المتخصصة، وعقد جلسة خاصة برئاسة الدكتور عبد القادر حاتم فى يوم ١٧ يونيو سنة ١٩٨٢ وذلك لمناقشة وإقرار دراسة هامة عن تنمية ورعاية القيم الدينية عند الشباب· والتى أعدتها لجنة الرعاية الدينية ·

وكانت اللجنة الأخيرة (لجنة الرعاية الدينية) قد عقدت سلسلة اجتماعات طوال ستة شهور برئاسة شيخ الأزهر، وعضوية بعض كبار علماء الأزهر ومن بينهم وزير الأوقاف، ومدير عام الوعظ، وآخرين· ثم انتهت اللجنة بعد دراسة عدد من الأبحاث، التى تتحدث عن مشكلات الشباب وأسباب انحرافه وعلاجها، إلى تقديم التوصيات التى ترى أن فيها العلاج لهذه المشكلات ·

وقد تعرضت هذه التوصيات إلى أسباب القصور فى الدعوة الإسلامية وعلاج هذا القصور ·

ويهمنى هنا، أن أقدم بعض التوصيات الخاصة بعلاج القصور فى الدعوة . لمعرفة الأسباب الأخرى، التى تحول دون وصول الدعوة للناس على وجهها الصحيح :

تقول اللجنة [١] . . .

وقد أجمعت اللجنة على ضرورة إعادة النظر فى سياسة التعليم الدينى فى مصر، وأن توضع له خطة متكاملة تحمى عقيدة النشىء من النساء، على أن

(١) نشرت هذه التوصيات والقرارات بجريدة النور المصرية الأسبوعية بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٢·

يتوفر على إعداد هذه الخطة خبراء التعليم جنباً إلى جنب مع علماء الدين.

ثالثا : فى مجال الدعوة العلمية : (١)

١- ضرورة العمل المنظم لسد الفراغ الموجود بالمساجد بتعيين الخطباء والوعاظ من خريجى كليات الأزهر، مع تقرير الحوافز المادية التى تضمن استمرارهم فى العمل عندما تتوفر لهم سبل الحياة الكريمة، التى تساعدهم على أن يكونوا قدوة حسنة، أخذاً بمبدأ تكريم الداعية تكريماً للدين.

ب- تنظيم ندوات دينية فى المساجد وغيرها، يشترك فيها أساتذة الأزهر والجامعات، وتعالج فيها المشكلات التى تشغل الرأى العام، ورأى الدين فيما يجب أن تكون عليه الحياة.

جـ- تعميم القوافل الدينية فى جميع المحافظات على مستوى الأحياء والقرى، وتنظيمها على أن يشترك فيها الوعاظ والأئمة، وقد ثبت نجاحها فى الريف مما يدعو إلى مضاعفتها، على أن تشمل أيضاً أحياء المدن.

تكليف أساتذة المعاهد الدينية، بالاشتراك فى نشر الوعى الدينى بين الأفراد والجماعات فى مواقع عملهم، وفى الأماكن المحيطة بها وتقرير المكافأة المجزية لهم .

التنسيق بين إدارة الوعظ بالأزهر، وإدارة الدعوة بوزارة الأوقاف حول موضوعات الدعوة ، والجهات التى يُوجّه إليها الدعاة ، والموضوعات التى تعالج ذلك فى إطار خطة شاملة .

- الانتفاع بعلماء الأزهر ومدرسى اللغة العربية والدين فى تغطية المواقع التى لاتقع فى نطاق عمل الأئمة والوعاظ، فى أداء خطب الجمعة والدروس

---

(١) تحدث التقرير فى أولا. عن الدين وضرورة تقريره كمادة أساسية فى برامج التعليم ، وفى ثانياً .. عن موضوع الجماعات التى ظهرت فى الآونة الأخيرة .

الدينية والندوات والمحاضرات ، وتدريس حصص الدين فى الحوار،مع تقرير المكافآت المجزية ٠

رابعاً : فى مجال تثقيف الأئمة :

أ- رأت لجنة الرعاية الدينية أنه لابد من رفع مستوى خبرات الدعاة - وبخاصة الأئمة - وتنمية معلوماتهم بمثل هذه الوسائل، وعلى أن يكون هناك تدريب مكثف ٠

ب- تدريب الداعية فى إعداد وأداء عناصر الخطبة، والفرق بينها وبين مادة الندوة العلمية ٠

جـ- دعوة المتخصصين فى العلوم الهندسية ، والطبيعية ، والعسكرية ، والاجتماعية ، والنفسية ، والطبية ، إلى المشاركة فى تنظيم الندوات الدينية مع الوعظ والأئمة ، للانتفاع بعلومهم فى تثبيت العقيدة ٠

- الانتفاع بالبيئة فى موضوع الخطب أو المحاضرات، أو الندوات، فللزارع منطقه ومشكلاته، وللعامل والتاجر نفس الشيء، ولاينبغى الخلط فى أداء العظة ٠

- توزيع الكتب والنشرات على الدعاة بالمجان، وتخص اللجنة بالذكر مثلا (**كتاب زاد الخطيب**) و(**الخطب الرائدة**) و(**الإبداع فى مضار الابتداع**) وأيضاً النشرات الدينية الصادرة من الأزهر ووزارة الأوقاف، على أن يكون هناك اتفاق على وحدة فكرية فى المساوئ المختلف عليها، كزيارة الأولياء، وشد الرحال إليهم،وتنظيم النسل، وشهادات الاستثمار، حتى لايقال فى مكان ما يضارب الذى قيل فى مكان آخر ٠

- تقريب الدورات التدريسية لمواقع إقامة الدعاة فى المحافظات،ولابد من إنشاء مركزين أساسيين للتدريب فى البداية ، على أن يكون الأول فى طنطا

والثانى فى أسيوط ، ويندب لها الدعاة على الطريقة الرسمية الصحيحة والمعروفة ، مع منح المكافآت لمثل هذا العمل .

– تطوير أسلوب الدعوة بما يتناسب وجماهير المستمعين انطلاقا من قول الله تعالى : " **وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه ليبين لهم** " .

– إعادة تكوين لجان نشر الدعوة الإسلامية بوزارة الأوقاف لتقوم بدورها فى التنسيق بين كل رجال الدعوة، وتحديد أماكن المساجد والمواقع التى يمكن أن تتجه إليها القوافل الدينية فى جميع المحافظات، وهذه اللجان هى التى تختار الدعاة وتنظّم تحركاتهم فى إطار خطة موحدة .

خامسا : فى مجال رعاية الدعاة :

توصى اللجنة بالآتى :

أ– وضع الحافز المادى الذى يجعلهم يعيشون حياة كريمة مع ضمان الحافز الأدبى الذى يجرّم الغض من شأنهم فى وسائل الإعلام والمناسبات العامة .

ب– تأمين هؤلاء العلماء ، بعدم محاكمتهم إلا أمام رؤسائهم ، أو ممثلين لهيئاتهم أسوة بما هو متبع مع أعضاء النقابات .

إصدار تشريع باستمرار الدعاة فى عملهم بعد بلوغ السن القانونية بمكافآت مجزية ، لاستمرار الانتفاع بالكفايات فى الدعوة ، مادام أصحابها قادرين على العطاء .

– عمل مكافأة خاصة برجال الدعوة تتناسب مع جلال المهمة وأثرها فى المجتمع .

– معالجة مشكلة ارتفاع ثمن الكتب والمراجع التى تتحملها رواتب الدعاة، مع إخراج سلسلة من الكتب التى تتناول العقائد ، والعبادات ، والمعاملات ، والأخلاق ، على أن تقوم بإصدارها المؤسسات الإسلامية ، وتناسب المستويات

المتعددة .

- زيادة ميزانية الدعوة لدعم أجهزتها، لتقوم بدورها على خير وجه .

- إحكام الرقابة على المساجد الأهلية ، لضمان حسن سير الدعوة، وعدم تولى المسائل الدينية من لايعرفها .

- الاهتمام بنشر الكتاتيب فى القرى التى لاتوجد بها مدارس أو معاهد دينية .

ويجب أن يوضع فى الاعتبار مسار التعليم الأزهرى ابتداء من الكتاب التدريبى فى المعاهد الأزهرية الابتدائية ، واعتبار من يدخلها ملزماً كأقرانه فى التعليم الأساسى، حتى لايكون التعليم الأساسى وسيلة جذب للناشئة يبعدهم عن طريق التعليم الدينى.

- تقرير مكافأة لطلبة كليات الدعوة من وزارة الأوقاف ، لقاء تدريبهم وتمرينهم على الخطابة والدعوة خلال أعوام الدراسة ، وتكليفهم بالعمل فى الدعوة بعد التخرج ، حتى لاتجذبهم وظائف أخرى، مع وضع الحوافز المجزية للعاملين فى مجال الدعوة .

اعتبار التعليم الأزهرى إلزامياً مثل التعليم الأساسى .

سادسا : فى مجال الإعلام الدينى :

وقد أفردت له اللجنة جلستين فى نقاش حر صادق ، وانتهت منه إلى الاتفاق على أن الإعلام الدينى لايقل دوراً وتأثيراً عن منبر المسجد ، ويزيد انتشاره الواسع عن طريق الإذاعة والتليفزيون .

والإعلام الدينى لايستقيم فى ظل إعلام متعارض معه ، فلا مجال للفصل بين الدعوة الإعلامية ، والمناخ السياسى والاجتماعى .. ولكى نضع الأسس للحياة فى بلادنا على القيم الدينية ، لابد من رسم سياسة إعلامية

مستنيرة لاتتجاهل هذه القيم، بل تساعد على ترسيخها وعلى أوسع نطاق، لاعدم نشر مايعارضها .

لابد من ملء الفراغ النوعى من القيادات الإعلامية والدينية بوجه خاص .

وتساءلت اللجنة لماذا هذا التقتير فى المساحات الأثيرية والورقية فى الإعلام الدينى، ونحن فى مجال عقيدة سليمة للجيل والأجيال الصاعدة .

– تخصيص صفحة يومية فى كل صحيفة قومية، وأن تلزم الصحف بالقيم الإسلامية فى كل ماتقدمه من موضوعات عامة ، وليست الموضوعات الدينية فحسب ، وأن يكون المضمون الذى يقدّم للقارىء بما يساعده على أن يجد حلولاً لمشكلاته المعاصرة فى ضوء الدين ، لربطه بالحياة ، وتحقيق التوازن النفسى أى الروحى للقارىء .

وقد رحبت اللجنة بصدور صحيفتين إسلاميتين (النور واللواء الإسلامى) ودعت إلى مزيد من هذه الصحف السيارة، وتدعوها إلى الالتزام بمنهجها على طريق النجاح، الذى يدفعها إلى الصدور يومياً، ولابد من التنسيق بين هذه الصحف وتوحيد فكرتها وهدفها ،خضوعها لمجلس أعلى، أعضاؤه من نقابة الصحفيين والمتخصصين فى المادة الإسلامية .

سابعا: الدعوة قضية قومية وعالمية :

وحينما اتجهت لجنة الرعاية الدينية فى بحوثها ومناقشتها حول الهدف ، وهو تنمية رعاية الشباب دينيا . كانت تجد أن الدعوة هى الوسيلة الأولى والأخيرة لحماية الشباب أولا، ووضع أقدامه على الطريق المؤدية إلى نجاحه ديناً ودنيا ، فهى المرفأ للنجاة ، بقدر ماهى قضية قومية فى المرتبة الثانية ، وعلى امتداد تاريخ الإسلام ، كانت مصر هى المنهل العذب ، ومركز الاشعاع على العالم كله فى مجال الدعوة الإسلامية .

لكن السؤال الصعب اليوم هو :

كيف نتعرض مع الأزهر لموجة من الانحراف الدينى ؟

كيف استطاعت الأفكار المتطرفة أن تتسلل إلى حصن الدعوة الحقيقية والحنيفية السمحاء؟ .

وبعد أن توفرت اللجنة على دراسة هذه الظاهرة رأت أنها يمكن أن تكون عابرة إذا نحن أعلّينا شأن الدعوة الإسلامية ، فى تخطيط علمى يتوفر عليه جزاؤنا وهى مسئولية علماء الإسلام، فى الأزهر ومجمع البحوث الإسلامية، والمجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، والصوفية الجادة.

وتبرز أخيراً فكرة عقد مؤتمر قومى للدعوة الإسلامية، تُسهم فيه أجهزة الإعلام بدور بنّاء ، وتخرج توصياته إلى برنامج عمل للدعوة داخليا وخارجيا .. فلا ينبغى أن تبقى شئون الدعوة إلى الخير - والله يدعونا إلى مايحيينا - موضوع اجتهادات مكتبية ، فى دوائر مغلقة لاصلة لها بوسائل الإعلام .. إن فكرة الدعوة الإسلامية تؤكدها المؤتمرات الإقليمية ، التى بدأت عقدها فى محافظات مصر ، ولابد لها أن تصب فى وعاء واحد، هو المؤتمر القومى للدعوة الإسلامية .

تأمين شيخ الأزهر :

وقد حفلت مناقشات الاجتماع بآراء لفضيلة الشيخ الدكتور الطيب النجار وفضيلة الشيخ عبد العزيز عيسى، والدكتور مصطفى أبو زيد فهمى، وكانت لها إسهامات فعالة فى إضافة أفكار جديدة، كان من أبرزها ربط الدين بمشكلات المجتمع، بالعلم، والتربية، والإنتاج. وبضرورة إيجاد مسكن ملائم لكل إمام مسجد وواعظ ، وتنوير الفرق الإسلامية الضالة، التى تهيمن عليها البدع الخارجة على الدين، بالفكر الإسلامى الدائم والمستمر، وتذليل كل

العقبات من أجل طبع ونشر كتب التراث النقية، وبيعها بأثمان زهيدة . كما طالبت بتقديم الأفكار لتقويم انحرافات الكبار قبل الصغار، وإصلاح البيئة الفاسدة التى ينهل منها الصغار من الشباب .

وكان على رأس مطالب المناقشين فى مجال تأمين رجال الدعوة وحصانتهم تأمين شيخ الأزهر من العزل السياسى .

أسباب تخلف الخطابة فى هذا العصر :-

هناك أسباب كثيرة لتخلف الخطابة فى هذا العصر، ويمكن إجمالها فيما يأتى :-

أولا :- عدم وجود الحرية الفكرية ، حيث تحاسب بعض الدول الإسلامية أئمة المساجد وخطباءها. على مايعرضونه من آراء وأفكار- طالما أنها لاتتناسب مع سياسة الدولة ونظامها- بل إن بعضها يضع من القوانين ما يجرّم تعرض أئمة المساجد بالنقد لأى قرار حكومى، وتضع من العقوبات ما يرهبهم ويخيفهم[1] وبعض الدول تحَدّد لعلمائها وخطباء مساجدها، الموضوعات التى يجب أن يتحدثوا فيها.وتفرضها عليهم فرضا- حتى لو لم يكن الخطيب مقتنعاً بها، أو لا تتناسب مع البيئة التى يخاطبها .

وأعرف أن بعض الدول الإسلامية. قد أصدرت تعليماتها أخيراً لأئمة المساجد بعدم إلقاء خطب أو محاضرات فيها ذكر لليهود أو النصارى.

وقد سبق أن عرفنا أن من أسباب ازدهار الخطابة وتقدمها- توفر الحرية الفكرية-وهذا وللأسف. غير موجود فى هذا العصر.

ثانيا :- عدم الاهتمام بعلوم اللغة العربية وانشغال الطلاب والعلماء

(١) راجع قانون العقوبات المصرى مواد ١٩٨، ٢٠١، والتى تنص على معاقبة كل من يتعرض بالنقد أو التجريح لأى قرار أو أمر حكومى. بالسجن ستة شهور وبغرامة قدرها خمسمائة جنيه مصرى، ويقول النص : (ولو كان من رجال الدين على سبيل النصيحة الدينية).

بالأبحاث العلمية، وبالعلوم العصرية الأخرى- حيث أن نظام التعليم الحالى يجعل من مواد وعلوم اللغة العربية. علوما ثانوية ولذا نجدهم لا يهتمون بعلم البلاغة أو الأدب وكذا النحو والصرف والعروض- ويجعلون من كل هذه المواد مادة واحدة يكفى للنجاح فيها الحصول على ٥٠٪ من الدرجات.

ولم تعد مادة (الإنشاء)أو (التعبير) مادة مستقلة كما كانت فى الماضى كذلك ألغيت مادة المطالعة التى كانت تقوّم النطق عند الطلاب. وتمرّنهم على النطق السليم.

ثالثاً :- عدم اهتمام الأساتذة والمعلمين بإلقاء دروسهم باللغة الفصحى، حتى فى الجامعات، لم يعد هناك أىّ اهتمام باللغة.حيث أصبحت لغة الدروس هى اللغة العامية الدارجة- وكذلك أيضا عند المذيعين فى الإذاعة والتلفزيون. بل نجد ذلك أيضا وللأسف فى كتابات كثير من الصحفيين.

رابعا:- إلغاء جمعيات الخطابة التى كانت موجودة فى المدارس والجامعات وقد قلنا قبل ذلك:إن التدريب والمران، هو من أهم طرق تحصيل الخطابة والتعود عليها، والنبوغ فيها، وربما يتبين لنا ذلك حين نرى كثيرا من شباب الجماعات الإسلامية، وقد نبغوا فى الخطابة بسبب تدرّبهم عليها- ونرى خطباء مصاقع ومتحدثين مجيدين من أبناء الجمعيات الإسلامية التى تقوم بتدريبهم على الخطابة وتشجيعهم عليها- وفتح المعاهد لإعدادهم- وقد يكون من بين هؤلاء الخطباء كثيرون من أصحاب المهن، ممن لم يحصلوا على مؤهلات علمية رسمية.

وأشهر هذه الجمعيات التى تتبنى تخريج الخطباء والدعاة فى مصر،هى الجمعية الشرعية،التى تنتشر أفرعها فى كل أنحاء الجمهورية.

خامساً :- ضعف التعليم عموماً- أدى أيضا إلى ضعف الخطابة.

فهناك ضعف عام فى التعليم - وتقصير فى التحصيل، ربما كان بسبب الظروف الاقتصادية ،وانشغال كثير من طلاب العلم بالبحث عن لقمة

العيش - وعدم تمكنهم من التفرغ الكامل للدراسة والتحصيل.

سادسا :- عدم الاهتمام بتدريس علم الخطابة ، حتى فى الكليات التى تخرجّ الدعاة. وذلك ولاشك من أكبر عوامل ضعف الأئمة فى هذا العصر، الأمر الذى يحتم ضرورة إعادة النظر فى لوائح الكليات الدينية، واعتبار هذه المادة من المواد الأساسية التى يجب أن تدرّس فى كل الكليات الأزهرية، على أساس أن خريجى جامعة الأزهر. إما أن يُعيّنوا رسميا فى وظيفة الإمامة. أو يقوموا فى الغالب- بإلقاء خطبة الجمعة نظير مكافأة.

هذا بالإضافة إلى ضرورة تميّز خريجى جامعة الأزهر عن غيرهم من الخريجين- وضرورة إجادتهم للخطابة ومعرفة فن الإلقاء.

سابعا :- ومن أسباب ضعف الخطابة فى هذا العصر وبخاصة الخطابة الدينية - كثرة وسائل الإعلام ، من إذاعة ، وصحافة ، وتلفاز- وقيام هذه الوسائل بدورها فى النشر والتبليغ.وهو ما كانت تقوم به الخطابة- وسهولة تلقّى المعلومات من خلال هذه الوسائل - حتى الموضوعات الدينية التى تعرضها هذه الوسائل، أصبحت تعرض عليهم من خلال أحاديث أو برامج.وهى وللأسف، لاتهتم باللغة أو قواعدها حين عرضها على الناس.

بالإضافة إلى أن أذواق الناس قد فسدت. ولم يعد عندهم القدرة على تذوق حلاوة اللغة وجمال الألفاظ، بسبب بعدهم لفترة طويلة عن الاستماع إلى الخطباء والمتحدثين باللغة العربية الصحيحة.

وهناك أسباب أخرى كثيرة ، يمكن لصاحب اللب والفهم أن يعرفها جيدا. من خلال الواقع الذى نعيشه.

الدارس لعصر الرسول (صلى الله عليه وسلم) يعرف أنه أقام المسجد ولم يقصره على العبادة . وإنما كان المسجد كما هو مكان للعبادة، كان مقراً للحكم ومكاناً للتعليم، واستقبال الوفود، وعقد المعاهدات، وغير ذلك مما يوضح الصلة الوثيقة بين الدين والمجتمع، وشمول الإسلام لكل أنواع النشاط البشرى، وتنظيمه لجميع العلاقات التى تربط الإنسان بربه، وبالمجتمع الذى يعيش فيه ، سواء فى ذلك المجتمع الخاص كالأسرة، أو المجتمع العام كالوطن والأمة، أو المجتمع الأعم كالإنسانية كلها .

ولذلك كان المسجد من قديم، هو القائم على خدمة المجتمع كله، بأداء الواجب له ، والحفاظ على حقوقه ، ولم يكن أبداً حتى فى أقوى العصور والبيئات حضارة وأعظمها رقياً ، مجرد مكان للعبادة ، لأن الإسلام لم يكن مجرد علاقة روحية خاصة ، يرمز إليها بالصلاة أو المسجد، وإنما هو دين شامل نظم الاجتماعات كما نظم العلاقات الروحية .

وإذا كان المسجد عندما يُذكر ، تذكر معه الصلاة التى تقام فيه ، فإن ذلك لأنها أظهر شعائره، وأقوى الدلائل على الخشوع والاستسلام لله ، لكن الصلاة كعبادة، لم تكن كما قلنا غاية فى حد ذاتها ، وإنما هى مجرد وسيلة للوصول إلى الغاية التى من أجلها جاءت الأديان، وهى كما قلنا ونقول دائماً (إقامة الحق والعدل والخير فى الأرض.ومنع عدوان الناس بعضهم على بعض)، (أى أنها من أجل مصلحة الإنسان ، لنفسه ، وللمجتمع الذى يعيش فيه)، " **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** " [1].

---

(١) سورة العنكبوت آية ٤٥.

ومن هنا لم تكن علاقة الإنسان الروحية بربه قاطعة عن علائق الدنيا ولذلك رأينا الرسول (صلى الله عليه وسلم) : يقول للرهط الثلاثة الذين سألوا عن عبادته وكأنهم تقالوها،فعزم بعضهم على قيام الليل كله والآخر على صيام الدهر كله،والثالث عن الامتناع عن الزواج ، فإذا بالرسول (صلى الله عليه وسلم)) ينهاهم ويقول : (**أما إنى لأخشاكم لله وأتقاكم له ولكنى أقوم وأرقد وأصوم وأفطر وأتزوج النساء فمن رغب عن سنتى فليس منى**) [1].

ولذلك اعتنى الإسلام بالعلاقات الاجتماعية، وجعلها ركناً من أهم الأركان التى يتم بها الإيمان :

والمسجد فى المجتمع المعاصر، يمكن أن يؤدى خدمات جليلة وخطيرة للمجتمع،كما كان يؤديها فى عصر الرسول والخلفاء من بعده، وفى عصور أخرى من بعدهم .

والمجتمع المعاصر فيه من المشاكل، وله من المتطلبات، ما كان لكل مجتمع سبق ، وتزيد عليها الآن،أمور جدت بحكم التطور الحضارى والتقدم العلمى، وسهولة الاتصال بين الأقطار والشعوب، وانتقال النظم والعادات والمشاكل من مجتمع لآخر .

ومشاكل المجتمع الإسلامى على الخصوص كثيرة ، ومايوجد الآن من انحرافات نتيجة ظهور آراء، وأفكار، ومذاهب، وفلسفات دخيلة، وردت إلينا من المجتمعات الأجنبية بصيغتها وطابعها المعين ، ونشأ عن كثرة هذه الآراء وتنوع المذاهب فرق ، وأحزاب ، وجمعيات ، وتنظيمات ، وصحف ، ووسائل دعاية، لكل منها أتباعها المتعصبون لها ، وأصبح فى ذلك كله الخطر كل الخطر على وحدة الجماعة وتماسكها .

فى مجتمعنا الإسلامى الآن تيارات الوجودية والشيوعية ، والانحلال الذى

(١) رواه الشيخان والنسائى عن أنس بن مالك (انظر نص الحديث فى رياض الصالحين ص٨٢) .

تروّج له الصهيونية العالمية ، وكلهم يقصدون بذلك الدين الإسلامى ويريدون تحطيمه والقضاء عليه .

فى مجتمعنا الإسلامى مشاكل ، للعمال، والفلاحين، والتجار، والموظفين، والجماهير عموما ، وهم جميعاً ينتظرون رأى رجال الدين، لأن كثيراً من هذه المشاكل تتعلق جذورها بالإيمان الكامن فى قلوبهم .

فى بعض المجتمعات الإسلامية زيادة عددية فى الأفراد ، مع قلة فى التكيّف الاجتماعى الحديث، القائم على رعاية النوع قبل رعاية العدد ، وهو فى حاجة إلى توعية قوية، للعناية بالتربية والتهذيب، والحث على العمل المنتج الدائب، لتغطية مطالب الحياة، والأخذ بسبل النهوض العلمى والوسائل الحديثة لترقية هذا المجتمع من جميع نواحيه .

وفى المجتمع الحديث تنتشر المخدرات والسموم القاتلة، وراجت أفكار ومفاهيم تريد أن تبرر هذه المحرمات بنوع من التأويل للقرآن والسنة .

وما أكثر مشاكل المجتمع وتجددها وتنوعها .

والمسجد فى المجتمع المعاصر يستطيع أن يقدّم خدمات جليلة عن طريق الدين، الذى كان من المرونة والصلاحية، بحيث يمكن أن يُوجد حلاً لكل مشكلة، وحُكما لكل حادثة، وجواباً لكل سؤال .

والداعية الدينى المؤمن برسالته، يمكنه تناول كل مايحدث فى المجتمع تناولا يوضّح المبهم، ويصحح الخطأ، ويقوّم المعوج ويعالجه، تساعد الخير على أن يبقى ويثبُت ضد الشر ليزول ويختفى .

مواصفات المسجد الحديث :

وحتى يمكن الوفاء بالتزامات هذا المجتمع، لابد من توافر شروط لكل من المسجد والداعية، حتى يمكن تلبية حاجة المجتمع والمحافظة على بقاء المجتمع

الإسلامى المثالى .

ويخطىء من يتصور، أن المساجد هى مكان للعبادة فقط، لايصح أن تستعمل لغيره. فالمساجد وإن كان شعارها البارز هو الصلاة، إلا أنها لا تتعارض مع الحياة العملية، ولا تعوق النشاط الدنيوى . صحيح أنها أقيمت أساساً لتكون مكاناً للعبادة . لكن هذه العبادة جُعلت للتزود بالطاقة اللازمة للسعى فى الحياة المثالية، تلك الطاقة التى تعتمد على القيم الروحية والمُثل الأدبية الرفيعة، التى لاينبغى لعاقل أن يتخلى عنها حين يؤدى واجبه . لأنها صمام الأمن له من الزلل ، وقوة هائلة تعينه على التحمل والمثابرة وتتفتح نفسه بالأمل والرجاء .

لذلك يجب علينا أن نراعى أهمية المسجد فى خدمة المجتمع فى العصر الحديث، ونحاول ما أمكن أن نقيمه على أساس تلبية حاجة المجتمع للعصر الذى أنشئت فيه ،وعلى أساس أن يكون المسجد مؤسسة إسلامية، تؤدى خدماتها لأهل الحى كله ، أى أن تكون المساجد نموذجاً كاملاً يؤدى كل الخدمات الدينية والاجتماعية ، والثقافية ، والدينية للمسلمين .

وإذا كان ذلك متعذراً الآن بالنسبة للمساجد الموجودة بالفعل، خصوصاً بالنسبة لما أقترحه من إيجاد أماكن خاصة لخدمات أهل الحى، أو ساحات رياضية وخلافه ، مما سأتحدث عنه. فإنى أرجو أن يتم ذلك بالنسبة لما يستجد من مساجد ، حتى يمكن عن طريق المسجد الالتحام مع الناس ، وتقديم الخدمات الدينية والاجتماعية وغير ذلك لهم ، لأن الإسلام كما قلنا ليس ديناً فقط وليس مجرد عبادات تُؤدّى وشعائر تُقام .

١- يجب أن تلحق بالمسجد مكتبة مزودة بالكتب الدينية والثقافية الهامة ، لتيسير اطلاع الجمهور عليها داخل المسجد وخارجه .

٢- يعتبر مكبّر الصوت فى المسجد الحديث من الضروريات فى ذلك العصر، وذلك لإعلام الناس بأيام وساعات إذاعة الخطب والمحاضرات،

فينتفع بها أكبر عدد من الناس .

٣- يجب أن تُلحق بالمسجد الحديث ساحة لممارسة الألعاب الرياضية والنشاط الفنى، خصوصاً مايتصل بإعداد الجيل إعداداً صالحاً لخدمة الوطن ، وبذلك نستطيع أن نربط بين الشباب، وبين المسجد، عن طريق هذه الساحات ليذكّرهم المسجد بالمعانى الدينية ، وليتم لهم عن طريق الإعداد البدنى والروحى، وقد أجاز العلماء عرض بعض الفنون البريئة والنافعة فى المسجد، قياساً على مافعله النبى (صلى الله عليه وسلم) حين أذن للحبَشَة أن يعرضوا فن الرقص بالحراب فى المسجد ، وكان ينظر إليهم وعائشة رضى الله عنها مستترة وراءه بردائه تنظر أيضاً ، على أن تكون هذه الساحة تابعة للمسجد، وليس المسجد تابعاً لها .

٤- يجب أن يُلحق بالمسجد الحديث مكتب لتحفيظ القرآن الكريم لكبار السن والناشئة فى وقت فراغهم ، ولا مانع من أن تقام فى المسجد فصول لمحو الأمية وتعليم القراءة والكتابة .

٥- غالباً ما يلجأ المتنازعون إلى إمام المسجد، لحل منازعاتهم، وهذا عمل جليل يجب أن يقوم به الإمام للتوفيق بين المتنازعين .

لذلك يمكن تخصيص حجرة بالمسجد لفض المنازعات صونا للسرية.ومنعاً لما قد يحدث من تشويش على الحاضرين بالمسجد [1] .

هذه هى بعض المقترحات التى أقدمها لما يجب أن يكون عليه مواصفات المسجد الحديث، مع ضرورة إقامته على الأسس الهندسية البنائية، المتمشية مع المقاييس المطلوبة لكل بناء ، من ناحية الموقع ، والتهوية ، والإضاءة ، والفرش، وغير ذلك ، مما يساعد على أداء الواجب الدينى فى خشوع واطمئنان ، ويشجع الناس فى التردد عليه ، وحين يتم ذلك لابد أن يكون

---

(١) أنظر بحث (وظيفة المسجد المعاصر) للشيخ عبد الله المشد والمقدم إلى المؤتمر الخامس لمجمع البحوث الإسلامى سنة ١٩٧٠ مطبوعات المجمع ص ٢٤٩ .

للمسجد إدارة ، غير الإدارة الرسمية، أى مجلس خاص للنظر فى شئونه العاجلة، والمساعدة فى أداء رسالته ، على غرار المجالس التى تُؤلف للمعاهد والمؤسسات الهامة. على أن يراعى فيهم السلوك القويم، وأن يكونوا من ذوى الحركة والنشاط ، ممن يستطيعون تقديم الخدمات لأهل الحى ، وأن يكون لهذا المجلس صلاحية جمع التبرعات لتمويل الطلبات العاجلة للمسجد . بعيداً عن الروتين وعلى غرار مجلس الآباء فى المدارس .

مواصفات الإمام الحديث :

أما الإمام وهو الداعية الذى سيقوم بحمل هذه المهمة الضخمة التى يؤديها المسجد للمجتمع فى العصر الحديث ، والذى يشرف على هذه المؤسسة ويتابع أعمالها الضخمة ، فلابد أن تتوفر فيه شروط خاصة، ويكون على قدر كبير من الاستعداد، حتى يمكنه مباشرة هذه المهمة التى باشرها النبى (صلى الله عليه وسلم) بنفسه مستعيناً فيها بتوجيهات الوحى، وحسن استجابة المسلمين ، وتعاونهم معه على خلق المجتمع الفاضل الجديد .

فالداعية فى هذا الموقع، موقفه حساس ، ووظيفته خطيرة ، وهو طبيب يعالج أخطر أنواع الأمراض (أمراض القلوب والنفوس) ويضع الحلول لكل المشاكل ، ويحاول بلباقته وحنكته ، أن يُثبت للناس مدى ما يمكن أن يقدمه الدين للمجتمع، ليؤكد لهم بذلك الصلة الوثيقة بين الدعوة الإسلامية والمجتمع .

فالمسجد ليس كما يتصور كثير من الناس، مجرد خطبة ومنبر، وإنما المسجد هو المجتمع نفسه ، الإمام هو الرابطة بين الجمهور وبين هذا المجتمع، وإذا ما أحس المصلى بالانقطاع الفكرى بينه وبين المسجد، تراخت صلته به ، لأن الاعتماد المطلق على الصلة القلبية والعاطفية ، لايمكن على المدى الطويل أن يصون هذا الرباط بين المسجد والمجتمع ، فلابد من صلات روحية وفكرية ،

وترابط عضوى ، يضع المسجد فى مكانه الطبيعى فى الحياة الإسلامية ·

والإمام عملياً هو المسئول عن هذا كله ، وهو حلقة الاتصال بين الدين والحياة ، وبين ماضى المسلمين وحاضرهم ، وبين واقعهم وآمالهم قولا وسلوكا ، وإذا كان الناس يقرؤن الدين مسطوراً فيما بين أيديهم من كتب ، فإنهم يحبون أن يقرؤوه فيما يشاهدونه من نماذج بشرية· ومن هنا كان الإمام داعياً دينيا ، ومصلحاً اجتماعياً للحى الذى يعيش فيه ·

والحقيقة : أن هذا الداعية المطلوب ، لايكفى فيه أن يكون خريجاً لكلية دينية، ولاأحد المتخصصين فى الدعوة والإرشاد ·

لأنى أعتقد أن مناهج التدريس الجامعى فى معظم الجامعات الإسلامية بصورتها الحالية، وبهذا المستوى العلمى الضعيف،لايكفى لأن يخرج داعية يستطيع أن يقوم بمهمة الدعوة على خير قيام ، خاصة وأن طلبة الكليات النظرية ببعض الجامعات الإسلامية، هم الذين حالت مجاميعهم الصغيرة بينهم وبين الكليات العملية ·

كما أن مستواهم العلمى، أقل من المستوى المطلوب ، والسبب فى ذلك، نظام التعليم نفسه، الذى فرض على طلاب المعاهد الدينية فى بعض البلاد الإسلامية، تحصيل علوم وفنون وأصول، فاقت الحصر، فعجزوا عن تحصيل شيء منها ·

كما أن عدم مطالبتهم بحفظ القرآن الكريم ، واختصار المواد الشرعية نتيجة ما أضيف إليهم من مواد أخرى ، أوصل للجامعة طلابا لايصلحون للدراسة ، التى تريد الجامعة إعدادهم لها، الأمر الذى جعل المسئولين بالجامعة يتساهلون مع طلابهم ، وإلا كانت النتيجة صفراً ·

بل إن بعض هؤلاء الطلاب هم من أصحاب المجاميع الصغيرة، أو الراسبين، الذين حالت ظروفهم بين الالتحاق بمدارس التعليم العام· فالتحقوا بالمعاهد الدينية حتى لايضيع مستقبلهم، وقَبِلَتْهم هذه المعاهد أيضاً حتى لاتغلق أبوابها -

والحل فى نظرى :

هو إعادة النظر فى نظام التعليم الدينى بالمعاهد الدينية فى جميع البلاد الإسلامية ، والتشديد فى حفظ القرآن الكريم من الصغر، ووضع المناهج والنظم التعليمية بالمعاهد والجامعات، على أساس دراسة روح الإسلام ورسالته العامة للبشر. ومايأتى به من إصلاح سياسى واجتماعى، وماينتظر أن يقوم به من دور فى إنقاذ البشرية مما هى عليه من ظلم وظلام.

والمفروض : أن يكون الداعية الرسمى (خطيب المسجد) من ذوى المؤهلات العالية المتخصصة ، ممن حصلوا على قدر كبير من العلم ، وممن عندهم استعداد طبيعى للدعوة وإيمان بها ، وأن يكون متمكناً من نفسه وعلمه، حتى يثق الناس فيه، ويقبلون عليه كما يُقبل هو عليهم، بإخلاص يفيد الدعوة إفادة كبيرة. وأن يكون من ذوى الخلق الكريم، والسلوك المستقيم، ليجد الناس فيه القدوة الصالحة، ويؤمنوا بما يقوله عن صدق، وأن يبعث مظهره على الاحترام عند الجمهور،ليكون أدعى إلى ثقة الناس به وتقديرهم لشخصه وعلمه وعمله.

وإذا كانت هذه شروط لابد منها - يجب أن تتوفر فى الداعية فلابد من توفر الوسائل التى تصنع لنا هذا الداعية .

وقد قلت أنه يجب أن نتألف قلوب هؤلاء الذين نُعدّهم لهذا العمل، حتى يُقبلوا على الدراسة التى تعدّهم لذلك. عن رغبة شخصية . فيُعطوا منحاً تشجيعية ، ويمنحوا بعد تخرجهم بدلات تشجيعية،كالتى يحصل عليها أصحاب الكادرات الخاصة. خصوصاً ونحن نعانى من نقص فى الأئمة، تعانيه معنا أقطار إسلامية كثيرة . ونحن فى حاجة إلى دعاة يربطون بين الدين وبين الحياة ، فى تطورها وتدفقها المستمر .

كما أن هذا الداعية الذى نعده لهذا العمل، يجب أن يتزود بالثقافات المتنوعة، والمعلومات الكافية عن مشكلات الحياة وتياراتها، وأن يكون دارساً

للبيئات المختلفة ومتطلباتها، ليكون على بينة ودراية بقضايا المجتمع، واختلافها من بيئة إلى أخرى .

ويقول الشيخ محمد عبده عن الدعاة : (أنه لابد أن يكونوا من أطول الناس باعا فى الفنون الأدبية الشرعية . أوسعهم علماً بعلل الأخلاق وأمراض النفوس،وقدرتهم على التماس منافذ القلوب للدخول إليها بما يصلحها .

ثم يكونوا أقوم الناس سيرة، لايخالف عملهم قولهم . فيكونون مثالا للناس يحتذونه، وقدوة لهم يتبعونها . ثم لابد أن يكونوا فى كل قوم بلغتهم. بل يجب أن يكونوا ممتازين بفصاحة اللسان، وجودة المنطق بين القوم الذين يرشدونهم، ليقبلوا عليهم بالاستماع، ويقول [1]: ومن هذا تلزم المبادرة إلى إصلاح الخطبة فى مساجد الجمعة، وتوليتها قوما يحسنونها ويعرضون فيها مايمس أحوال العامة فى تصرفاتهم المشهورة، ويبيّنون لهم مضار الفساد، ويهدونهم إلى سبل الرشاد، كما هو مقصود الشارع من غرض الخطبة فى الجمعة . وهذا باب عظيم من الإصلاح إذا وُجهت العناية إليه رجونا منه النفع الكثير والخير الغزير .. [2] انتهى .

وحين يتخرج الإمام من الجامعة بعد إعداده لهذه المهمة منذ دخوله إليها، وعلى أساس التشجيع المادى الذى طالبنا به أثناء الدراسة ، (هذا إذا لم يكن فى الإمكان إقامتهم إقامة دائمة بالكلية أثناء الدراسة ، وتدريبهم تدريباً خاصاً على هذا العمل ، تماماً كما يحدث بالنسبة للكليات العسكرية والمعاهد اللاهوتية لغير المسلمين).

كذلك : لابد من شروط أخرى يجب توفرها للإمام حتى يمكنه تأدية رسالته على الوجه الأكمل ، منها على سبيل المثال :

١- إعداد مسكن مريح للداعى يكون قريباً من المسجد، ليشعر بالاستقرار

---

(١) تاريخ الإمام ص ٥٢٠ جـ ٢ (محمد رشيد رضا) .

(٢) انظر المرجع السابق .

والهدوء النفسى، فيتفرغ لعمله ويقبل عليه بجد وإخلاص ، حتى يكون مرتبطاً بالحى ارتباطاً يساعده على تفهم مشاكله، والإسهام فى حلها .

٢- أن يظل بمسجده فترة طويلة لايُنقل منه إلى مسجد آخر، إلا بعد أن يكون قد أدى للحىّ الذى يقيم فيه خدمة ظاهرة . خاصة وأن الإصلاح لابد له من دراسة قد تستغرق وقتاً طويلاً، ثم يبدأ فى العلاج على أساس هذه الدراسة . ولا مانع من أن يتبادل مع بعض زملائه من الأئمة فى حدود الحى الذى يعيش فيه.خطبة الجمعة، ليكون ذلك دافعاً له للتجديد، وحتى لايمل الجمهور سماع خطبة الجمعة من شخص واحد .

٣- يجب ألا يقتصر عمل الإمام على مجرد العمل فى حدود المنطقة التى يعيش فيها، وإنما يمكن للإمام أن يقوم برحلات مع أهل الحى إلى المناطق الدينية ، والأماكن الإسلامية التى يمكن أن تزوّد المسلمين بطاقات وشحنات إيمانية ، تدفعهم إلى الجد والإخلاص. على خلاف الرحلات الطلابية التى يغلب عليها طابع الترفيه والتسلية،أكثر من المعرفة للعظة والاعتبار .

ولقد أحست وزارة الأوقاف بمصر بما يمكن أن يصنعه المسجد للمجتمع ومايمكن أن يقوم به الإمام من جهد لخدمة هذا المجتمع. فأنشأت المكتب الفنى لنشر الدعوة الإسلامية، ليقوم بإعداد نشرات علمية، يمكن للإمام عن طريقها أن يحافظ على الصلة بين المسجد والمجتمع. ويقوم هذا المكتب بإعداد المادة العلمية اللازمة للنشرة، ليزوّد بها الإمام، لتكون عوناً له على تحضير الدروس وخطبة الجمعة. كما قامت الوزارة بإصدار سلسلة زاد الخطيب، وهى عبارة عن كتب.فيها مجموعة من الموضوعات ، تعالج أهم قضايا العصر ومشاكله. صدر الجزء الأول منها فى عام ١٣٨٣هـ -١٩٦٤م والثانى عام ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م [١]. وبهذه الكتب وهذه النشرات، أصبح من السهل حصول الإمام

---

(١) انظر بحث الدعوة والمجتمع د/عبد العزيز كامل - مطبوعات مجمع البحوث الإسلامية المؤتمر الخامس ص ٦٢٠ .

على المراجع، خاصة وأن النشرة تحدد المرجع بما فيه الصفحة والجزء. وفتحت له أبواب الاستزادة من أى موضوع إذا كان راغباً فيه، وكان جمهوره مقبلاً عليه. كما أن هذه النشرات، فتحت للإمام أبواباً لم يكن الكثيرون يطرقونها فى خطب الجمعة ، والدروس الدينية ، لقلة مابين أيديهم من مراجع عنها . كقضايا الشباب، وتكوين الأسرة، ورعاية الطفولة، ونشئتها على الإسلام والعلاقة بين العلم والإسلام ، وكثير من هذه الموضوعات الهامة والجادة [1] .

لكن هذا وحده لايكفى بدون إعداد كامل من الأساس. فالداعية الكفء هو الأمل الذى يتمناه كل مسلم مخلص. وتكوينه يحتاج إلى خطة محددة تبدأ من الصفر. والواجب أن يُختار من البداية عن طريق الاختبارات العقلية والخلقية، ثم يحاط بإيواء مادى، وهداية روحية، وزاد من العلم المتنوع، الذى يكفل القدرة على الدعوة وبيانها. ولايصح أنه يكلّف بالدعوة غير القادر عليها ، لأن ذلك يضرّ ولايفيد، والواقع التطبيقى يوضح ذلك .

ومسئولية تكوين الدعاة فى عنق الأمة على العموم، لأنها القادرة وحدها على ذلك،وعلى المؤسسات التعليمية أن تبذل طاقتها المتاحة حتى لايحاسبها الله على التفريط [2].

---

(٢) انظر المرجع السابق ص ٢٦٧ .

(٣) الدعوة الإسلامية د / أحمد غلوش ص ٤٨٦ .

القسم الثانى

قواعد الخطابة وأركانها

أركان علم الخطابة

علم الخطابة على أركان ثلاثة ، وهى الأركان التى لابد من معرفتها ودراستها، لمن يريد أن يتعلم هذا علم أو يتعرف عليه ، وهى :

١- الخطبة ٢- الخطيب ٣- المستمعون

وقد انحصر هذا العلم فى هذه الأركان الثلاثة. لأن الكلام المقنع الذى يراد توجيهه إلى جماعة من الناس لإقناعهم بفكرة معينة، هى (الخطبة) سواء كان ذلك خطبة بمعناها الشائع الآن بين الناس ، أو كان درساً أو محاضرة ، أو ندوة ، أو غير ذلك بما سنعرفه إن شاء الله عند حديثنا عن أنواع الخطابة وفنونها .

كما أن الشخص المتقن لهذا الفن ، الذى يستطيع أن يشافه الناس ويخاطبهم بما يريد اقناعهم به ، والتأثير فيهم بما يريد، هو (الخطيب) .

ولا شك أن الكلام الذى يتكلمه الخطيب، لابد أن يوجه إلى مجموعة من الناس يستمعون إليه ، إما عن طريق المشافهة، أو عن طريق وسيلة من وسائل الإعلام. وهذه المجموعة التى تستمع ويخاطبها المتحدث هى (المستمعون) .

يقول ابن رشد [1](إن الكلام مركّب من ثلاثة : من قائل وهو (الخطيب) ومن مقول فيه، وهو الذى يعمل القول فيه، ومن الذين يوجه القول إليهم، وهم المستمعون .

وهذه الأركان الثلاثة تنقسم إلى أقسام تبعاً لاعتبارات متنوعة ، وعلم الخطابة يحيطها بالدراسة العميقة، ليستفتح منها القوانين الموجهة وبذلك يضمن الخطبة أن تكون منظمة الفكرة واقعية الغرض جميلة الأسلوب

(١) تلخيص الخطابة ص٢٨ - الخطابة لارسطو ص ١٦.

مقنعة هادفة .

مع ملاحظة أنه لاقيمة إطلاقاً للخطابة التى تفتقر إلى ركن من هذه الأركان، لأنه لا يغنى ركن عن الآخر، ولذا فإنه إن أردنا خطابة جيدة ناجحة كان لابد من مراعاة هذه الأركان الثلاثة .

وسنحاول أن نتعرف على كل ركن من هذه الأركان .

طرق تحصيل الخطابة :

وطرق تحصيل الخطابة إجمالاً أربعة :

(١) الفطرة والاستعداد الغريزى ، وهذا هو الأصل والأساس .

(٢) معرفة الأصول والقوانين والقواعد التى وضعها الحكماء لهذا الفن.

(٣) الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء ومصاقع الخطباء ودراستها دراسة عميقة، لمعرفة نواحى التأثير، وجهات الإقناع فيها، وتذوق ما فيها من متانة الأسلوب وحسن العبارة وجودة التفكير .

(٤) المران والتدريب عليها وممارستها وهى الخطابة العملية ، ويسميها البعض الارتياد والاحتذاء [1] .

والحقيقة أنه لايصلح كل إنسان لأن يكون خطيباً ناجحاً ، فالخطيب كالفنان يجب أن يكون لديه الاستعداد الفطرى، والموهبة الطبيعية التى تؤهله لممارسة فن الخطابة بنجاح ، وأول عناصر هذه الموهبة القدرة على مواجهة الجمهور، والتحدث إليه بغير اضطراب، وإذا كان فى الإمكان تدريب بعض الناس على الخطابة، وتمرينهم على مواجهة الجمهور، والتغلب على خجلهم، فإنه مما لاشك فيه، أن هناك بعضاً من الناس لايفلح معهم التدريب، لأن طبيعتهم تنفر من مواجهة الجماهير ، فالمران والتدريب لايفيدان عند كل الناس ، ويوجد بين كبار

(١) راجع كتاب الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٥.

الآدباء والكتاب من يخلب ألباب الناس ويأسر عقولهم بكتاباته لكنه مع ذلك لايستطيع أن يقف خطيباً فى مكان عام لمواجهة الجمهور، وإذا اضطر واحد منهم إلى ذلك، تلعثم ولم يستطع أن يقول شيئاً .

وقد كان أمير الشعراء أحمد شوقى يهز الدنيا بقصائده، ولكنه لم يكن يستطيع أن يلقى أبياتاً من شعره، فى محفل من المحافل، أو جمع من الناس وكان يعهد بإلقاء قصائده فى الحفلات العامة، إلى طائفة من الخطباء المعروفين بحسن الإلقاء .

الركن الأول من أركان الخطابة

(الخطبة)

بعض الناس يتصورون أن إلقاء الخطبة عملية سهلة ، ويكفى فيها صوت جهير ، أو رجل جرىء يحفظ القرآن أو بعضاً من أحاديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ ، أو يحفظ مقاطع من النثر، أو أبياتاً من الشعر، يستطيع بها أن يُفهم المستمعين أنه يجيد الخطبة ويحسن التعبير .

ولكن الحقيقة غير ذلك. فالخطابة - كما رأينا - لها شروط ، والخطبة ليست عملية سهلة هينة ، وليست مجرد كلام يقال ، دون ترتيب أو تبويب أو تنظيم ، ولكنها أمر شاق يحتاج إلى وقت وجهد ، كما أن الذين يستمعون لها ، إنما هم بشر لهم عقول تحكُم ، ولهم أرواح تُحس ، ولهم نفوس تتذوق ، ولذا فإنه يتحتم على الخطيب حين يريد أن يخطب ، الاستعداد والإعداد لهذا الكلام، الذى لابد أن يكون له معنى، وأن يقصد من ورائه إقناع الجمهور واستمالتهم إلى مقولته، ولذا كان عليه أن يتصور هذه الخطبة بوجدانه قبل أن يلقيها، وأن يفكر فى عناصرها ويركزها بعقله قبل أن ينطق بحرف منها، وأن يقف على الأدلة والبراهين التى سيوردها خلال إلقائها ، ويهيىء ويرتب أسلوبه وبيانه الذى سيحدّث به المستمعين .

فالخطبة لابد أن تكون متسلسلة منظمة ، وأن تكون واضحة البيان فى أسلوبها ، حتى تقنع المستمع وتستميله بأدلتها .

ولهذا ، وحتى نستطيع أن نتبين كيفية إعداد الخطبة حتى تؤدى الغرض منها، فإنه لابد لنا أن نتعرض إلى النقاط التالية :

١- كيفية إعداد الخطبة ·

٢- محتويات الخطبة ·

٣- أقسام الخطبة ·

٤- خصائص كل قسم للخطبة ·

٥- الفرق بين الخطبة وفنون القول الأخرى ·

وسنبدأ بشرح هذه النقاط حسب الترتيب الذى ذكرناه :

١ - إعداد الخطبة

مما لاشك فيه أن الأمر العظيم يحتاج إلى تخطيط وإعداد ، ويحتاج إلى جهد يبذل ووقت يُعدّ فيه ، حتى يكون على قدر المقام الذى وضع له . وما من شيء فى هذه الحياة - إذا أريد له أن يكون جيداً - وعلى مستوى. إلا ويحتاج إلى إعداد واستعداد .

والقاعدة : أنه لابد من الأخذ بالأسباب. إذا أردت أن تصل إلى شيء ما، فلا نجاح دون مذاكرة، ولاحصاد دون زرع، ولاانتصار دون أخذ العدّة والتخطيط لهذا النصر. بل إنك لن تأكل ولن تشرب إلا إذا بذلت جهداً ووقتاً فى البحث عن الطعام والشراب والإعداد لهما - حتى الرسالات السماوية لم يكن تكليف المولى الرسل بها، إلا بعد إعدادهم إعداداً كاملا - فهاهو موسى عليه السلام حين قال له المولى سبحانه : " **إذهب إلى فرعون إنه طغى** " ، يرد على مولاه بقوله : " **رب اشرح لى صدرى ، ويسر لى أمرى ، واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى ، واجعل لى وزيراً من أهلى . هارون أخى** " [١]. فهو بهذا يطلب من ربه أن يلهمه الاستعداد لدوره بعد فهمه له ، وأن يجعله قادراً على تحمل هذا الدور الذى يحتاج إلي تخطيط حتى يتمكن من إبلاغ الرسالة وهو منبسط النفس ، مستسهل تنفيذ الأمر .

وهكذا كان إعداد موسى عليه السلام ، وإعداد محمد ﴿ﷺ﴾ وإعداد كل المرسلين وتعليمهم وتدريبهم على طريقة التبليغ وأسلوب العمل .

والخطبة - كما قلنا- عند من يقدّر أهميتها، من المسائل الصعبة

---

(١) سورة طه آية ٢٥- ٣٠.

الخطيرة. ويستشعر ذلك أيضاً كل من مارس الخطابة عملياً ، وواجه الناس في يوم ما .

يقول عمر بن الخطاب :(ما يتصعدنى كلام كما تتصعدنى خطبة النكاح) [1] .

ولعل الذين قرأوا التاريخ الإسلامى ويعرفون قصة تولية أبى بكر الخلافة، قد قرأوا حين قراءتهم للقصة، قول عمر رضى الله عنه : (وكنت قد زوّرت فى نفسى كلاماً قبل أن أصل إلى سقيفة بنى ساعدة) وزورت هنا بمعنى، أعددت ورتبت وجهزت. فلا يصح أن يتكلم إنسان فى موضوع ما دون إعداد له، وتحضير لعناصره وللنقاط التى سيثيرها فيه .

والذين يريدون أن يعرضوا على الناس كلاماً طيباً جديداً . وخطابة ناجحة موفقة ، لاشك يقدّرون قدر الخطبة أكثر من غيرهم . ويرون فيها حملاً ثقيلاً يحملونه على أكتافهم قبل إلقائها. وبخاصة إذا كانوا ممن يحترمون أنفسهم، ويحافظون على سمعتهم وسمعة الوظيفة الملقاة على كاهلهم . إن كانوا من الخطباء المعيّنين ، أو من المتحدثين الموظفين .

قيل لعبد الملك بن مروان: عجل عليك الشيب ياأمير المؤمنين - فقال : كيف لايعجّل على ، وأنا أعرض عقلى على الناس فى كل جمعة مرة أو مرتين [2].

والمقصود بإعداد الخطبة : هو التهيئة والتحضير. ولابد من ذلك ليبرز المعنى، فيتضح المغزى، ويؤثر الكلام ، وكما تهيأ الخطبة وتُحضّر ترتب المعانى، وتُحسّن الألفاظ ، وتُبنى النتائج على المقدمات ، فنصل إلى مانرجوه للخطبة ومانبغيه من وراء إلقائها . يقول الجاحظ : (إن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً ، وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً ، ومنحه البليغ قولا متمشقاً ، صار

(١) البيان والتبين ج١ ص ١٠١.

(٢) جمهرة خطب العرب ٣/٣٧٦.

في قلبك أحلى، ولصدرك أملأ ، والمعانى إذا كُسيت حسن الألفاظ الكريمة ، وألبست الأوصاف الرفيعة ، تحولت فى العيون عن مقادير صورها ، وأربت على حقائق.أقدرها بقدر مازينت، وعلى حسب مازخرفت ، فاذكر هذا الباب ولا تفرط فيه) [1] .

وإعداد الفكرة والمعنى، لابد من أن يمر بمراحل متعددة حتى تظهر الخطبة بصورتها اللائقة بها، وإعداد الفكرة يبدأ أولاً: بمرحلة: **اختيار الموضوع ،** وتحديده فى العقل ، والاقتناع به ، والرضى عنه ، وهذا يمثل المرحلة الأولى والهامة من مراحل الخطبة ، ثم بعد ذلك يبدأ المتحدث فى تحليل الموضوع الذى وقع الاختيار عليه لعناصره الأساسية ، واختيار أدلته ، وتنسيق هذه الأدلة ، وهذه تمثل المرحلة الثانية. ثم بعد ذلك تأتى المرحلة الثالثة: وهى صياغة المعانى والأدلة فى قالب بيانى فصيح، وأسلوب بليغ يتناسب مع المستمعين.

وإذا كان المتعوّد على الخطابة يسهل عليه صياغة معانى الموضوع الذى وقع اختياره عليه دون جهد جهيد ، فإنه لايستطيع أبداً أن يترك نفسه حتى يصعد المنبر أو يقف أمام الجمهور، دون أن يحدد الموضوع تحديداً جيداً ويحلل عناصره ، وينسّق أدلته ، وإلا فسيقول كلاما لاطعم له ولالون ولارائحة، ولن يرضى أحداً ، بل حتى لن يرضى هو عن نفسه حين يفعل ذلك ، وإن لم يشعر بذلك انطبق عليه قول النبى «ﷺ» :(**إذا لم تستح فافعل ماشئت**) .

ولذا فإن العلماء يرون أن هذه المراحل الثلاث ضرورية للخطبة ، ولا تفضُل مرحلة غيرها فى الأهمية، وجميعها يتضافر فى تقديم خطبة جميلة متماسكة، تصل لهدفها وتأثيرها، يقول ابن المعتز: (إن البلاغة بثلاثة أمور. أن تغوص لحظة القلب فى أعماق الفكر، وتتأمل لوجوه العواقب ، وتجمع بين ماغاب وما حضر. ثم يعود القلب على ما أعمل الفكر، فيحكم سياق المعانى

(١) البيان والتبين ج١ ص ١١٧

والأدلة. ويحسن تنفيذها ثم تبديه بألفاظ رشيقة مع تزيين معارضها واستعمال محاسنها) [1] .

ويلاحظ أن إعداد الفكرة والمعنى، لايكفى فيها مرورها بهذه المراحل الثلاثة دون مراعاة للزمان والمكان والمستمعين ، فالبلاغة أن تخاطب الناس على قدر عقولهم ، وبالكلام المفيد لهم ، ولذا يقول الشيخ على محفوظ:(من أراد العظة البليغة ، والقولة المؤثرة - فيعمد إلى المنكرات الفاشية ، ولا سيما ما كان منها قريب العهد، وحديثه على ألسنة الناس. أو ذائعاً فى الصحف. ثم يقدم من هذه الوقائع أكبرها ضرراً أو أسوأها أثراً، فيجعله محور خطابته، وموضع عظته ، ثم يفكر فيما ينشأ عن هذا الحادث أو المنكر من الأضرار الخلقية والاجتماعية والصحية والمالية. ويحصى هذه المضار فى نفسه أو بقلبه ، ثم يستحضر كل ما جاء فيه من الآيات والأحاديث الصحيحة وآثار السلف ، ثم يأخذ فى كتابة الموضوع ، إن شاء كتابته مضمنة ما فيه من تلك المضار ، وماورد فيه عن الشارع - محذراً من الوقوع فيه ، حاثاً على التوبة منه . هذا إذا أراد الإقلاع عن جريمة أو التنفير من رذيلة.فإذا أراد الحض على عمل صالح ، أو مشروع نافع ، أو الحث على خلق فاضل فليفكر فى مزاياه وآثاره الحسنة تفكيراً عميقاً . وليستحضر ما يناسبه من الكتاب والسنة وآثار السلف الصالح ، ثم يسلك فى الكتابة المسلك الذى بينا متجنباً السجع المتكلف، والمحسنات الثقيلة ، التى كثيراً ما تخفى الأغراض وتحجب المعانى .. إلخ) [2] .

مراحل الإعداد للخطبة : -

يقسم أهل العلم الإعداد للخطبة إلى أربع مراحل : -

١- المرحلة الأولى : مرحلة الخلق أى خلق موضوع الخطبة .

---

(١) المرجع السابق ص ١٣٥

(٢) راجع هداية المرشدين ص ١٤٦ .

٢- المرحلة الثانية : مرحلة تركيب عناصر الخطبة .

٣- المرحلة الثالثة : مرحلة اختيار الأدلة .

٤- المرحلة الرابعة : مرحلة التعبير البيانى .

وإذا كنا نركز على هذه المراحل ، ونبين تفصيلات كل مرحلة منها ، فإننا بذلك نؤكد على أهمية الإعداد للخطبة ، وضرورة هذا الإعداد . ولعلنا نحس تخلفاً واضحاً فى الخطابة الدينية، والوعظ الدينى فى هذا العصر، ويرجع ذلك فى الأساس لإهمال الإعداد عند الخطباء، وعدم الاهتمام بتحضير خطبهم ولايستغنى خطيب أياًمن كان ، ومهما كان،عن إعداد الخطبة وتهيئتها، وكبار الخطباء يهتمون بخطبهم ، ويتخيرونها بدقة، ويعدّونها إعداداً علمياً كاملا، وهذا هو السبب الرئيسى فى نجاحهم وبالتالى شهرتهم وتردد أسمائهم على ألسنة الجماهير .

المرحلة الأولى: خلق موضوع الخطبة :

حين يفكر الخطيب فى إلقاء خطبة ، أو يطلب منه ذلك ، فإن عليه أولاً : أن يلجأ إلى نفسه ، ويفرغ عقله إلا من التفكير والبحث عن الموضوع الذى يتناسب مع الزمان والمكان ، والجمهور الذى سيلقى فيه الخطبة ، ولابد أن يراعى هذه الأمور مراعاة تامة ، لأن مايناسب التهنئة لايناسب العزاء ، ومايقال فى الصلح غير مايقال فى الجهاد ، وخطبة الأعياد والمناسبات الدينية غير الخطب التى تقال فى الأيام العادية ، كما أن الموضوع الواحد يلقى بطرق متنوعة متعددة ، ومايثير الناس اليوم لايثيرهم غداً، تبعاً لتغير الموقف والحال .

فليست الخطب كما قلنا مجرد كلمات تُحفظ وتلقى، ويدور معظمها - كما هو واقع هذه الأيام - حول الدنيا وذمها ، والتزهيد فيها ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، بعبارات مجملة لاتعالج من أمراض النفوس شيئاً ولا تصل إلى أعماق القلوب. وبعضها وللأسف يخلط الأوامر بالنواهى، ويجمع بين أمور كثيرة لايستوفى الكلام على واحد منها، فيحذّر من ترك الصلاة وشرب الخمور والزنا والربا ، وماإلى ذلك من المنكرات . كل ذلك فى خطبة واحدة . فهو كما يقول العوام : (سمك. لبن. تمر هندى) .

بل إن الناس يسمعون من الخطيب اليوم، نفس ماسمعوه بالأمس ويسمعون نفسه غداً، ومايلقى فى هذا العام يدور فى العام التالى، دون مراعاة الخطيب لمقتضى الحال ، وإصلاح السامعين على قدر مافيهم من الشر والفساد دون تفرقة بين المتعلم والجاهل ، أو الصغير والكبير .

ولذا، فإن خلق الموضوع يتحتم أن يوضع فى إطاره العلمى الصحيح. وتحديد هذا الموضوع لابد أن يتم وفق اعتبارات موضوعية معينة ، ولابد أن تتناسب الخطبة مع المستمعين. فالناس يتأثرون ببيئتهم وثقافتهم ، وهنا وجب أن ينبنى هذا الخلق لموضوع الخطبة على عدة اعتبارات،منها مثلاً :

(أ) نفسية المخاطبين :

فالخطيب الذكى هو الذى يعرف كيف يتعامل مع جمهوره ، وكيف يؤثر فيهم بعظاته وخطبه ، فلا بد أن يعرف أنه يخاطب بشراً ، وأنهم لذلك يتأثرون بعدد من المؤثرات، بعضها فطرى ، وبعضها مكتسب ، وهذه المؤثرات تدفعهم إلى سلوك معين ، وتجذبهم نحو غاية معينة ، وأن بعضا من هؤلآء الناس قد يتصرف تصرفات معينة نتيجة لهذه المؤثرات ، بل يصل الأمر إلي تمسك الكثيرين منهم بفكرته ، ويستطيع أن يرد على انتقادات الناس الموجهة إليه .

وهنا فإن الخطيب الناجح يجب أن يعرف هذه الأمور ويراعيها . خاصة بعد أن يلاحظ العوامل التى تحدث الاتجاهات العامة ، وتؤثر فى نفس الأفراد وتنميها ، ومعروف أن الاتجاهات الفردية صورة لاتجاه الجماعة بشكل عام ، وهذه العوامل قد حصرها علماء النفس الاجتماعى فى : البيئة - الوراثة - إمكانية الشخص نفسه ، وعلى الخطيب أن يفهم ذلك جيداً قبل إلقاء خطبته وموعظته ، ويراعى عدم التصادم المباشر مع الاتجاهات السائدة ، ويركز على القضايا المؤثرة فى المستمعين ، مراعيا ظروف المستمعين وأحوالهم ، وهنا كان لابد من أن يختلف الموضوع فى القرية عن المدينة ، وفى العمال غير المثقفين وبالعكس .

ولاشك أن ملاحظة هذا الجانب النفسى يؤدى إلى اختيار الطريقة الصحيحة لتقديم الموضوع ، لأن الطريقة التى تقدم بها المعلومات إلي الأفراد ذات أثر بالغ فى التأثير وتعديل الاتجاه .

وهنا فإنه لايمكننا أن تتخيل خطيباً يخطب فى أهل المدينة ، ويبين فى خطبته طريقة مقاومة الآفات الزراعية ، وخطيباً آخر يخطب فى أهل القرية عن شرب الخمر، فلا شك أن هذين الخطيبين قد جانبهما الصواب على خلاف ما إذا رأينا خطيباً يخطب فى القرية عن طريق مقاومة الآفات الزراعية ، أو

خطيباً يخطب فى الطلبة عن وسائل النجاح. ففى هذه الحالة ينجح الخطيبان، لأنهما لامسا حاجة الجمهور وركزا على اتجاهاته .

ويساعد الخطيب على إدراك هذه الاتجاهات ، معارفه الشخصية ، وسعة أفقه ، ومعرفته بعلم النفس وعلم الاجتماع .

(ب) عقلية المخاطبين :

لابد أن يراعى الخطيب عقلية المخاطبين - فهو إذا تمكن من اختيار الموضوع المفيد نتيجة إحاطته باتجاهات الأفراد النفسية ، فإنه لاشك سيتمكن من اختيار نوع الدليل ، ومستوى الأسلوب الذى يتناسب مع المستمعين إن أحاط بعقليتهم ، وعرف إمكاناتهم العقلية ، ومدى ماتتحمله عقولهم من أدلة وبراهين . وقد روى عن عمر مرفوعاً قول رسول الله ﴿ﷺ﴾ **(أمرنا - نحن معاشر الأنبياء - أن نخاطب الناس على قدر عقولهم)** . ولاشك أننا نتبع الرسول ﴿ﷺ﴾ فى مخاطبة الناس على قدر عقولهم ، والإلقاء إليهم بالكلام الذى تفهمه وتدركه هذه العقول .

وقد قسم الألوسى عقول الناس إلى ثلاثة أقسام فقال : (إن الناس ذووا عقليات ثلاثة) : -

فطائفة منهم أصحاب نفوس مشرقة ،قوية الاستعداد لإدراك المعانى، قوية الانجذاب نحو المبادىء العالية، مائلة إلى تحصيل اليقين على اختلاف مراتبه، وهؤلاء هم أصحاب العقل الراقى فى الناس .

وطائفة ثانية:هى عوام الناس الذين يملكون نفوساً كدرة، ضعيفة الاستعداد للمعانى، شديدة الإلف بالمحسوسات، قوية التعلق بالرسول والعادات.قاصرة عن درجان البرهان ، وهؤلاء قوم يستثارون بسهول ولاعناد عندهم .

وطائفة ثالثة : معاندة مجادلة للباطل . تقصد دحض الحق لما غلب عليها

من تقليد الأسلاف ، ورسخ فيها من العقائد الباطلة [1] .

ليس من المعقول ولا الحكمة، أن يأتى الخطيب بأدلة وبراهين أكبر من مستوى وعقول المستمعين، وليس من اللائق أن يخاطب الأمى بما لاعلم له به، ولااهتمام عنده به. كأن يحدثه عن القمر الصناعى مثلا، وعن أجهزته الدقيقة ، وأجزائه ، أو غير ذلك من الأمور التى لاتعنيه ، أو يملأ ذهنه بالكليات المركبة أو يلقى عليه تشبيهات وأمثال لم يسمع عنها ، وليست من واقع بيئته. وإنما يجب أن يكون الدليل مبسّطاً، والتعاريف بالعرَض المحسوس ، والتشبيهات والأمثال من واقع بيئته. أما إذا كان يخاطب المثقفين فعليه أن يرتفع بمستوى الأسلوب الذى يخاطبهم به ، ولا مانع من أن يسلسل العناصر لهم، وأن يأتيهم بالتشبيهات والأمثال، لأن متابعة التسلسل سهل عندهم، وقد يكون الغوص فى المعانى من دأبهم وديدنهم، كما أنهم كثيراً مايسعدون بأسلوب يحلق بهم فى عالم الجمال ، ويقرب لهم المحسوس، ويملأ بيانه بالمحسنات المختلفة ، والاستعارات الكثيرة .

وعلى كل حال ، فإن الإحاطة بعقول الأفراد ، تسهّل للخطيب النجاح وتوفر عليه العناء والتعب ونقد الناقدين .

(جـ) ملاحظة المناسبة :

تصور أن رجلا قام يخطب فى حفل عرس ، وجعل موضوع خطبته «كل شىء هالك إلا وجهه » . أو وقف يخطب بين المعزين فأخذ يتحدث فى موضوع سياسى كالحرب بين انجلترا والأرجنتين ، أو مشكلة الحدود بين روسيا والصين ، لاشك أن هذا الخطيب أخطأ خطأ فادحاً حيث لم يراع المناسبة ، ولم يلتفت إلى تناسب الحدث مع موضوع خطبته ، ولذا فلابد أن يراعى الخطيب

---

(١) تفسير الألوسى جـ١ صـ ٢٥٠.

مناسبات الناس ، وألا يبتعد عنهم. فلابد للجمهور أن يجد قولا يتصل بيومه وحياته ، حتى ينتبه إليه . بل إن فاته من هذا المقال شيء ، سأل عنه إشباعاً لنفسه التي أثارها هذا المقال .

والمناسبات كثيرة ، منها : الوطنية - والشخصية - والدينية ، وتتغاير الخطب بقدر تغاير المناسبات . كما أن خطبة العيد تختلف عن خطب الجمعة ، وخطبة التهنئة تختلف عن خطبة العزاء ، والخطيب ينبغي أن يحيط بهذه المناسبات ، حتى يساير الناس وفكرهم بهذه الإحاطة .

وهكذا شاءت إرادة الله وحكمته ، أن ينزل القرآن الكريم دستور هذه الحياة متناسباً في كل آية وسورة ، مناسباً لواقع الناس ومصالحهم ، ولذا خلدت به النفوس والعقول ، وعاش في فكر الناس وخلدهم لالمجرد أنه وحي السماء وكلام الله الذي يتعبد بتلاوته، وإنما لأنه مع ماسبق يشتمل على كل مايحتاج إليه الناس لدينهم ودنياهم ويتناسب مع حياتهم ووجودهم .

المرحلة الثانية : تركيب العناصر :

عرفنا أن المرحلة الأولى من مراحل إعداد الخطبة هي : خلق موضوع الخطبة، واختيار الموضوع المناسب، الذي يتفق مع نوعيات المستمعين ، على أن يراعي الخطيب نفسية المخاطبين وعقليتهم ، وتناسب الموضوع مع الزمان والمكان ، والمناسبة التي تلقى فيها هذه الخطبة .

والمرحلة التالية لخلق الموضوع واختياره ، هي: مرحلة تركيب العناصر فلا بد من تقسيم العناصر، وتركيبها حين نفكر في إعداد الخطبة ، كما يتحتم حين تحدد العناصر، تفصيل الدليل مع كل عنصر، وقد سمى ابن سينا هذه المرحلة بـ "العمود" [1] لأنها الأساس المتين في الخطبة، وعليها المعوّل

---

(١) راجع كتاب قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين للدكتور أحمد غلوش ص ٤٣.

الأكبر فى الترتيب والتنسيق - وعلى الخطيب أن يحدد عناصر خطبته، ويميز كل عنصر على حدة ، على أن يجعل العناصر كلها تتفق وتدور حول موضوع واحد.

والذى يعين الخطيب فى تعيين عناصر موضوعه ، الرجوع إلى المراجع العلمية ، والقراءة فيها قراءة مستوعبة ، هذا بالإضافة إلى عرض الفكرة وعناصرها على عقله ، وسيصل الخطيب إلى هدفه سريعاً حين يتضح أمامه الهدف من الموضوع كله ، وسيعينه تدربه على هذا، وذاكرته القوية التى قويت بالمران والممارسة .

ويجب أن تكون العناصر مترابطة مسلسلة، بحيث يرتبط كل عنصر مع صاحبه بلا خلل أو بعد عن الموضوع - ولذا فعليه ألا يستطرد أكثر مما ينبغى حتى لايخرج عن الموضوع ، ويبتعد بالسامعين عن التركيز فى خطبته - وعموما فإن الاستطراد غير مستحب فى الخطبة.

المرحلة الثالثة : اختيار الأدلة :

بعد أن يستقر الخطيب على موضوع معيّن لخطبته ، ويقسّم الخطبة إلى عناصرها الأساسية، يأتى دور البحث عن الأدلة والبراهين ، التى تعين الخطيب على بيان موضوعه ، وإفهام المستمعين ، وإقناعهم بما يقال ، وهذا يحتاج إلى تحديد نوعية المصادر التى تفيد كل موضوع .

فمثلا مصادر الخطبة الدينية، أساسها الكتب المقدسة ، بالإضافة إلى كتب السنة وكتب الفقه ، وكتب الثقافة الإسلامية عموما ، وما دار حول ذلك من دراسات واجتهادات العلماء ، على خلاف الخطبة السياسية التى قد لاتحتاج لكل هذه المصادر، والتى تختلف مصادرها عن مصادر الخطب القضائية أو المحفلية، أو غير ذلك من أنواع الخطب التى ذكرها العلماء.

وإن كنت أنا شخصياً أرى أن هذا التقسيم للخطبة لايصلح لهذا العصر في مجتمع إسلامي، ولايصح أن يكون في دولة الإسلام التي لايمكن الفصل فيها بين مايسمى ديناً ومايسمى دنيا، والتي نرى ارتباط جميع أمور الحياة فيها بالعقيدة والدين.

ولاشك أن الأدلة التي يختارها الخطيب لموضوعه، منها ما يتصل بالموضوع اتصالا مباشراً، ومنها مايتصل به بطريق عرضي غير مباشر، ومع ذلك، فإنه يجب على الخطيب حين يفكر في اختيار أدلته، أن يراعي آراء أهل التخصص، لأن ذلك مما يقنع المخاطبين بسهولة، فلا شك أن أقوال الحكماء والأئمة مفيدة في بابها، وقد أصبح الاستشهاد بها ضرورياً، وعلى الخطيب أن يستعين بها، حتى يصل إلى غرضه، فالمحامي الناجح يستطيع أن يقنع القاضي ويستميل الجمهور إلى جانب الحق، إن استشهد بنصوص القوانين التي تلتزم بها المحكمة.

وعليه أيضاً أن يراعي مواطن العقيدة في المستمعين، ليستشهد بها في خطبه، وينقل من نصوصها في أدلته، والدين هو محرك الوجدان وموقظ الهمم، بل إن الناس المؤمنين بعقيدة، يضحون بالغالي والنفيس في سبيلها، ويندفعون في اتباع وتنفيذ كل ما يسمعون، إن أصاب منهم موطن إيمانهم بدين الله، وحبهم لرسول الله على وجه الخصوص- والتدين ميل فطري في الإنسان، لأنه حاجة من حاجات نفسه، ونزعة داخلية لايستطيع العقل أن يفسرها، ولاأن يقدم تحليلا لمكوناتها، ولذا كان على الخطيب أن يحاول اكتساب هذا الميل في الإنسان إلى جانبه، وأن يهتم بهذا الشأن في الدليل، حتى يحقق الاقناع واليقين- وعلى الخطيب المسلم أن يعرف أن القرآن الكريم والسنة النبوية يفيدان أسلوباً وتأثيراً، لما لهما من إعجاز وبيان، ولكونهما أكبر مصدرين دينيين يعتمد عليهما المسلمون جميعاً.

وعلى الخطيب أيضاً أن يلاحظ تأثير العادات والآثار القديمة وقت إعداده للخطبة ، وأن يضع ذلك فى اعتباره وهو يختار أدلته، حتى يتمكن من التأثير، وحمل الناس على ما يريده لهم. كما يجب عليه أن يلاحظ أيضاً عند اختيار أدلته آثار السلف. فهى مثل العادات فى قوة التأثير، لأن الأحياء يتخذون أعمال سلفهم تكئة يعتمدون عليها.

إن على الخطيب أن يراعى نوع الدليل الذى جاء به ، ليستدل ويسترشد على صحة ما يقول. فإذا سقط الدليل سقطت القضية عموماً ، وفشلت الخطبة فشلا ذريعاً .

ولذا فقد عُرِّف الدليل فى اللغة بأنه " المرشد " وعُرِّف فى اصطلاح الحكماء بأنه : " ما يلزم من العلم به العلم بشىء آخر " [1] وهذا الدليل إما دليل قطعى، وإما دليل ظنى - والدليل القطعى هو ما أوجب التصديق اليقينى ، ويسميه العلماء برهاناً ، وهو ماتألف من اليقينيات الست، الأوليات ، والمشاهدات ، والمجربات ، والحدسيات ، والمتواترات ، وكذا القضايا التى قياساتها معها ، فالأوليات : هى القضايا التى يدركها العقل بمجرد تصور الطرفين كقولك : " الواحد نصف الاثنين " " الكل أعظم من الجزء ".

والمشاهدات وهى القضايا التى يدركها العقل بالحس الظاهر " كقولك: " الكلب أصغر من الفرس " و " القمر يظهر ليلا ".

أما المجرّبات ، فهى التى يدركها العقل بواسطة تكرار يفيد اليقين. كقولنا: " الإسبرين يعالج الصداع ".

والحدسيات هى القضايا التى يدركها العقل بواسطة حدس يفيد العلم كقولك " نور القمر مستفاد من نور الشمس ".

والمتواترات : هى مايدركها العقل بواسطة السماع ، عن جمع يؤمَن

---

(١) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٢٢٨.

تواطؤهم على الكذب ؛ كقولك " صعد جاجارين إلى القمر ".

أما القضايا التى توجد قياساتها معها، فهى ما يدركها العقل بواسطة لاتغيب عن الذهن عند تصور الطرفين. فإذا قلنا إن الأربعة زوج ، فإن العقل يدرك ذلك ، بواسطة لاتغيب عن الذهن عند تصور الطرفين. وهى أن الأربعة تنقسم إلى متساويين. وكل منقسم إلى متساويين زوج .

هذا هو الدليل القطعى الذى قلنا عنه : إنه ماأوجب التصديق اليقينى، والذى يسميه العلماء برهاناً، يقول عنه العلماء : إنه لايستعمل فى الخطابة، فالأحوال الصادقة يقيناً لاتقع فى الخطابة من حيث إنها خطابة . فإن ألمّ بها الخطيب فقد عدل بالخطابة عن أصلها [1].

وما يصدق على الدليل القطعى، يصدق على الدليل الظنى ، فهو أحد جزئى البرهان ، الذى قيل : إنه لايستعمل فى الخطابة ، وإذا كان الدليل القطعى لايستعمل ، فالدليل الظنى أولى بعدم الاستعمال ، والدليل الظنى هو ماأفاد الظن فقط، ويتألف من غير اليقينيات.وهى أيضاً ست. لاداعى لذكر تفاصيلها.

من أين إذن تؤخذ أدلة الخطابة ؟

يقول الشيخ على محفوظ [2].

" تؤخذ أدلة الخطابة من التأمل فى موضوع البحث ، وإمعان النظر فى أحواله ، وتسهيلا لاستخراج هذه الأدلة، فقد وضع الأقدمون من اليونان جدولا لما يمكن استعماله منها ، وقد أطلق العرب عليه اسم " مواضع ".

قال ابن سينا: " إن الحجج فى الجدل والخطابة ، تؤخذ من المواضع ، فمن طلب الإقناع وهو لايعلمها ، كان كحاطب ليل يسعى على غير هداية ، لالبخل فى الموضوع ، بل لنقصان فى الاستعداد.

(١) راجع المرجع السابق ص ٢٨ - ٢٩.

(٢) المرجع السابق ص ٤٠.

فالموضع هو : مصادر الأدلة العامة التى يمكن للخطيب استعمالها فى كل مقام ، إما لإثبات قوله وتأييد رأيه ، أو توسيع المعانى لحسن البيان وهى نوعان : ذاتية وعرضية ، فالذاتية ما تستفاد من ذات الموضوع وهى كثيرة :-

منها : تعريفه بذكر خواصه اللازمة ، أى البينة الثبوت له،والانتفاء عن غيره ، كقول الإمام علىّ كرم الله وجهه لكميل بن زياد النخعى:" يا كميل ، العلم خير من المال ، العلم يحرسك وأنت تحرس المال ، والعلم حاكم والمال محكوم عليه ، والمال تنقصه النفقة ، والعلم يزكو على الإنفاق، مات خُزّان الأموال وهم أحياء ، والعلماء باقون ما بقى الدهر، أعيانهم مفقودة. وأمثالهم فى القلوب موجودة ".

ومنها : شرح الأعراض التى تختص جملتها به".

ومن الأدلة الذاتية أيضاً: تعرّف الشىء بذكر آثاره الظاهرة الواضحة للناس - ومع أن حقائق الأمور تخفى على كثير من الناس، إلا أنها تظهر بآثارها وفوائدها. فإذا أراد الخطيب أن يُثبت حكماً لأمر. أو ينفى هذا الحكم عنها. فعليه أن يذكر فوائده أو مساوئه، التى يستدل منها على صلاح علّتها أو فسادها ، فحال المعلومات تابع لحال عللها.

عند ذاك يستطيع الخطيب أن يبنى حكمه فى مقام الترهيب منها أو الترغيب فيها .

ولسنا فى حاجة لأن نشرح بالتفصيل ما يمكن أن يقوله الخطيب فى هذا الموضوع - فهو يستطيع أن يستخلص ويستنتج الكثير من آثار كثير من الفرائض أو المحرمات ، ويستطيع أن يتلمس حِكَم التشريع، وعلة التحليل والتحريم ، فهو يستطيع أن يذكر مثلا ما للصوم من فوائد حسنة وآثار عظيمة ، وكيف أنه يضبط النفس ويطفىء شهوتها. لأنها إذا شبعت تمردت ، وزادت فى طلب الشهوة ، وإذا جاعت خضعت وامتنعت

عما تهواه . وكيف أنه وسيلة إلى تربية النفوس وتهذيبها. لأنها إذا انقادت إلى الامتناع عن الحلال الذى لاتستغنى عنه. وذلك طلباً لمرضاة الله وخوفاً من عذابه ، فأولى بها أن تنقاد للامتناع عن الحرام وهى غنية عنه، ويستطيع الخطيب أن يستخلص ذلك من قوله سبحانه تعليلا لفرض الصيام : " **لعلكم تتقون** ".

هذا بالإضافة إلى أنه يستطيع أن يبين كيف أن الصيام وسيلة إلى شكر النعمة ويدلل على ذلك. وكيف أنه يبعث فى الإنسان فضيلة العطف على الفقراء ، والرحمة بالمساكين ، وكيف أنه ينقى الجسم من الفضلات الرديئة والرطوبات المعوية. ويشفى من اضطرابات الأمعاء المزمنة ، والبول السكرى ، وغير ذلك من الأمراض الكثيرة ، التى ثبت أن الصيام يفيد فى علاجها.

ويستطيع أن يقيس الخطيب على ذلك آثار الزنا مثلا ، أو تناول المسكرات وتعاطى الخمور،ومضار ذلك بدنياً .وعقلياً. ومالياً،واجتماعياً.

ومن أدلة الخطابة : التشبيه :

إذا كانت الغاية من التشبيه عند البيانيين حسن البيان. إلا أنه يأتى أيضاً للإقناع . ولذا فإن الخطيب يستطيع عن طريق التشبيه أن يصل إلى مقصده،لأنه يزيد المعنى وضوحاً. ويكسبه تأكيداً.

وقد استعمل التشبيه كثيراً فى الكتب السماوية . وأطبق عليه جميع المتكلمين من العرب والعجم ، ولم يستغن أحد منهم عنه.

استعمل التشبيه كثيراً فى القرآن الكريم، وفى السنة النبوية المطهرة - فى القرآن الكريم مثل قوله سبحانه :

" **مثل الذين يُنفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع**

سنابل فى كل سنبلة مائة حبة . والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم " (1).

وفى السنة النبوية :

" **مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد، إذا أشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى** " (2).

كما استعمل التشبيه أيضاً كبار الكتاب والمفكرين. يقول ابن المقفع:

" الدنيا كالماء الملح. كلما ازداد صاحبه شرباً، ازداد عطشا، وكالكأس من العسل ، فى أسفله السم، الذائق منه حلاوة عاجلة، وفى آخره الموت الزؤام " (3).

ومن الأدلة أيضا (**المثل**):

ولضرب الأمثال فى الخطابة مزايا كثيرة. وهى من الأدلة الطيبة التى تشجع المستمعين على قبول الكلام. ولفت أنظارهم إلى مايقال، لأنها تصوير للعقول بصورة المحسوس.

كما أن فى المثل إيراد للمعنى فى هيئة مأنوسة مألوفة، وبذلك تبقى صور المعانى راسخة فى أذهان الناس ، لاتذهب بطول الزمان ولايأتى عليها النسيان .

ويقال عن الأمثال : " إنها ألطف ذريعة إلى القلوب الغبية ، وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبية " (4) .

والأمثال هى أنواع مفترضة ممكنة. وهى ما نسب فيها النطق والعمل إلى عاقل.

---

(1) سورة البقرة آية ٢٦.

(2) متفق عليه من حديث النعمان بن بشير - دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين جـ ٣ص٥.

(3) راجع كتاب الخطابة ص ٣٢. (4) المرجع السابق.

وهى تختلف عن الحكاية بأن لها مغزى ، وكونها غير واقعية وإن كانت فى حيز الإمكان .

وهى إما مخترعة مستحيلة، وهى ماجاءت على ألسنة الحيوانات والجمادات ، فيعزى لها النطق والعمل لإرشاد الإنسان كأمثال " كليلة ودمنة "

وإما مختلطة، وهى : ما دار فيها الكلام والعمل بين الناطق وغيره، وكثيراً ما يكون ضرب المثل على وجه التشابه والحكم .

وما أكثر الأمثال والحكم فى كلام السابقين :

يقول ابن المقفع فى مودة الصالحين والأشرار :

" المودة بين الصالحين سريع اتصالها، بطىء انقطاعها، كآنية الذهب بطيئة الانكسار هينة الإعادة - والمودة بين الأشرار سريع انقطاعها - بطىء اتصالها ، كآنية الفخار يكسرها أدنى شىء ، ولاوصل لها أبداً " .

ويقول أيضاً: "يبقى الرجل الصالح من الرجال صالحاً حتى يصاحب فاسداً - فإذا صاحبه فسد مثل مياه الأنهار، تكون عذبة حتى تخالط ماء البحر، فإذا خالطته ملحت" (١).

وعلى كل حال : فضرب الأمثال من أحسن الأدلة التى يمكن للخطيب أن يستعملها ، وقد قيل فى المثل: أربع لاتجتمع فى غيره من الكلام - إيجاز اللفظ - وإصابة المعنى - وحسن التشبيه - وجودة الكتابة ، فهو نهاية البلاغة، كقولهم (الصيف ضيعت اللبن) لمن يقصّر فى طلب الشىء فى أوله ، ثم جاء يطلبه فى غير أوانه (٢).

وقد يتجه الخطيب إلى التشبيه البيانى المعروف، لالتحسين الكلام وتزيينه،

---

(١) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ٣٢ - ٣٣.

(٢) نفس المرجع السابق ص ٣٤.

بل للاستدلال الخطابى، وتقرير المعانى التى يريدها ويستولى عليها استيلاء تاماً ، ويرى صاحبه أن النفوس تفهم بالتشبيه ما حاك فى الفؤاد ، وجال فى القلب ، واستولى على النفس[1].

ويضرب الشيخ أبو زهرة مثالا لذلك فيقول : " ومن أبلغ ذلك ماجاء على ألسنة بعض الصحابة رضى الله عنهم ، عندما استفتاهم الفاروق عمر فيما يستحقه الجد من التركة مع الإخوة ، فقد قال زيد بن ثابت فى تأييد رأيه من أن الإخوة أولى: لو أن شجرة تشعبت من أصلها غصن، ثم تشعب فى ذلك الغصن خوطان [2]. فذلك الغصن يجمع الخوطين دون الأصل ، ويغذوهما ، ألا ترى يا أمير المؤمنين أن أحد الخوطين أقرب منه إلى الأصل " [3]. وقد يتجه الخطيب إلى تصوير فكرته بذكر مثال خيالى، لايتصور العقل وقوعه ، كذلك الأمثال التى تجىء على ألسنة البهائم. ومن ذلك ما جاء فى بعض خطب الإمام على رضى الله عنه. فقد قال :

" إنما مثلى ،ومثل عثمان ، كمثل أثوار ثلاثة كن فى أجمة : أبيض وأسود ، وأحمر ، معهن فيها أسد. فكان لايقدر منهن على شىء. فقال للثور الأسود والثور الأحمر : لايدل علينا فى أجمتنا إلا الثور الأبيض. فإن لونه مشهور، ولونى على لونكما. فلو تركتمانى آكله صفت لنا الأجمة. فقالا : دونك. فكله. فأكله فلما مضت أيام. قال للأحمر : لونى على لونك. فدعنى آكل الأسود فتصفو لنا الأجمة. فقال دونك فكله. فأكله . ثم قال للأحمر: إنى آكلك لامحالة . فقال دعنى أنادى ثلاثاً. فقال : افعل. فنادى . ألا إنى أُكلت يوم أُكل الثور الأبيض ، ثم قال علىّ رافعاً صوته ألا إنى وَهنت يوم قتل عثمان " [4].

---

(١) الخطابة للشيخ أبو زهرة ص ٣٩ - بتصرف.

(٢) الخوط : الغصن الناعم. (٣) الخطابة للشيخ أبو زهرة.

(٤) المرجع السابق ص ٤٠ - ٤١.

وهذا النوع من الأمثال يسوقه الخطيب إذا أراد أن يستتر فى بعض كلامه ، فلا يصرح ببعض الأشخاص. أو يصور المعانى خالية من كل علاقة لها بأشخاص ، أو يريد بها تقرير الأفكار من النفوس - مع تلميح الكلام وتزيينه.

ومن الأدلة التى يمكن أن يستعين بها الخطيب لإقناع المستمع مايطلق عليه عند علماء الخطابة اسم "**المواضع العرضية**".

ويقصد بالمواضع العرضية : مصادر الأدلة الخارجة عن ذات الموضوع الذى يتحدث فيه الخطيب - فلا بد للخطيب أن يراعى كما قلنا نفسية. ونوعية المخاطبين ، والمخاطب أحياناً قد لايدرك ما فى ذات الموضوع من خصائص. ومزايا وثمرات. فيصعب عليه أن يقتنع بأدلة تستمد قوتها من تلك الخصائص، وهنا يتعين على الخطيب أن يستعين على إقناع المستمع بأمور خارجية. هذه الأمور لايشك فيها المستمع. وهى عنده صادقة. ومما يذعن لها. حينئذ يبين له الخطيب أن تلك الأمور تؤيد وتحث على مايدعو إليه. الأمر الذى يجعل المستمع يستسلم لما يقال. ويسلّم بما يُقدم له من غير جدل ولانقاش. لأن الأمر أُحيل على شىء هو عنده فى مرتبة التقديس والاحترام .

وأكثر تلك المواضع قوة وأثراً :

١- الدين **٢- العادات** **٣- تتبع آثار السلف**

٤- أقوال الأئمة وكبار العلماء ومن اشتهروا بالحكمة ... إلخ .

ولاشك أن الدين يسيطر على قلوب الناس. خصوصاً العامة منهم. وهو لهم المرشد الأمين. والمتدينون لايخضعون لشىء كما يخضعون لدينهم. ولذا فإن الخطيب ينجح تماماً حين يؤيد كلامه بالدين. وبخاصة إذا كان يخاطب جماعة متدينّة.

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة:" وقد عُدّ الاستشهاد بالدين من المواضع

الخارجة، لأنه ليس من الموضوع. ولامشتقاً من خصائصه ولكن جاء شيء خارج عنه. وهو يفيد اليقين والجزم. وإن كان من شيء خارج عن الموضوع لأن مسائل الدين. فى مكانة من اليقين. لاتعد لها مكانة. فإذا استشهد به استشهاداً صادقاً. حلّت دعوة الخطيب فى القلب. فلا تنتزع منه. لأنها تصير جزءاً من أوامر الدين فتكسب منه تقديساً (١).

وهكذا أيضاً بالنسبة للعادات المتمكنة من نفوس الناس. فإن لها سلطاناً على القلوب. ولذا وجب على الخطيب أن يعتمد عليها، إن أراد التأثير فى المستمعين ، بأن يقرّب ما يدعو إليه مما يألفون من عادات. وما اصطلحوا عليه من عرف.

حينذاك يطمئن إلى مايقال. ويخضع له. لأن إقبال الناس يكون شديداً على الأمور التى تكون من جنس ما يألفون.

وأما تتبع آثار السلف ، فلا شك أن له أثراً أيضاً فى الإقناع لأن لآثار سلف الأمة قوة فى نفوس الأحياء منها. ولها سلطان كبير فى قلوبهم. بل قيل : إن أقوى الأفكار أثراً فى النفوس . هو ما جاء متصلا بآثار السلف ، مؤتلفاً معها. ولذا فإن على الخطيب أن يقرب بين فكرته وبين ما أُثر عن الجماعة ، التى يخاطبها ما استطاع إلى ذلك سبيلا. مادام السلف من هذه الجماعة لم يشتهروا بباطل ولم يعرفوا بسوء.

وأما أقوال الأئمة والعلماء ومن اشتهروا بالحكمة، فإن لها روعة وهزة فى نفس المستمع. وهى فى منزلة المسلّم بها. لأنها ثمرات تجاربهم ومخزون أفكارهم . وعلى الخطيب أن يتجه إلى هذه الأقوال والحِكَم. ليحلّى بها خطبته. وبعض الخطباء من القدامى والمحدَثين. يبتدئون خطبهم بحكمة مشهورة ، أو قول حكيم عُرف بالعلم والفكر الناضج ، ويجمّلون خطبهم بذلك النوع من الاستدلال.

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢.

ومن ذلك قول الحسن البصرى فى دعوته إلى التناصح. والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر:

" إن المسلم مرآة أخيه المسلم . يبصره بعيبه . ويغفر له ذنبه قد كان من قبلكم من السلف الصالح ، يلقى الرجل الرجل فيقول : يا أخى، ما كل ذنوبى أبصر، ولا كل عيوبى أعرف. فإذا رأيت خيراً فسرنى. وإذا رأيت شراً فانهنى. قد كان عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول : رحم الله رجلاً أهدى إلينا مساوينا ." .

وهكذا كان للمواضع العرضية القوة والأثر فى المخاطبين . وقد ذكرنا بعض هذه المواضع وأهمها. حيث أن هناك مواضع أخرى تستعمل فى غير الخطابة الدينية التى جعلناها أهم موضوع هذا الكتاب : كالشهادات، والمواثيق التى يستدل بها فى الخطابة القضائية. بل تعتبر الركن الركين فى الاستدلال فى الخطابة القضائية ، وكالقوانين التى تعتبر الحجة الأولى فى الخطب القضائية أيضاً ، خاصة وأن كلا المتنازعين مجتهد فى أن يتخذ من القانون حجة لدعواه . أو طريقاً للخلاص من ورطة الاتهام. ويريد كل واحد منهما أن يفسره تفسيراً يتفق مع غرضه ومقصده ، ومصلحة من نصّب نفسه مدافعاً عنه . وهو المحامى .

المرحلة الرابعة :التعبير

المرحلة الرابعة من مراحل إعداد الخطبة وهى المرحلة الأخيرة هى ما تعرف بمرحلة التعبير البيانى.

ولعلنا لاحظنا، أنه عند حديثنا عن الخطيب ، وعما يجب أن يفعله لإقناع الجمهور، أنه لا بد من اختياره اللفظ والعبارة ، ومراعاة أن تكون الألفاظ التى يعبر بها عن موضوعه من الألفاظ السهلة المألوفة التى يمكن للناس استيعابها، وفهم مقاصدها، وضرورة أن يبتعد عن الألفاظ الوحشية الغريبة، وأن يحاول ما أمكن الاعتماد على المقاطع الواضحة القصيرة ، خصوصاً بالنسبة لخطب العبادات ، وأن يبتعد عن السجع المتكلف.

وهنا نضيف إلى ما سبق ضرورة الاهتمام الكامل بالتعبير الخطابى، والذى هو كما قلنا المرحلة الأخيرة من مراحل الخطبة ، والتى لو أجيدت لكان ذلك دليلاً على جودة المراحل الثلاثة السابقة ، ولو ضعفت فلا جودة لشىء بعدها .

وهنا يجب أن نلاحظ أن التعبير هو مرحلة خاصة بالخطبة وحدها لأن فن المقال والكتابة ، تصبح المرحلة الأخيرة فيه مرحلة " تركيب"، وليست مرحلة "التعبير" ، ولذا فإن مرحلة " التعبير" مرحلة مستقلة، وهى خاصة بالخطبة ، حيث تقوم بصنع دور الملاءمة بين الخطبة وبين موضوعها، ومقامها التى ستلقى فيه . وهذه الملاءمة تفرض مغايرة بين التعبير الخطابى ، وبين غيره من فنون المقال ، ولذا اختصت الخطابة بهذه المرحلة.

والتعبير الخطابى فى حاجة إلى جمال الأسلوب ، واختيار اللفظ ذى الموسيقى الذى ينبنى على الفصاحة والبلاغة ، مع مراعاة إيمان الخطيب بالتكرار و التأكيد ، ومعرفة الاستشهاد الصوتى ، والتزامه التمثيل الصوتى

و التعبير بالحركة ، مع مراعاة حال المستمعين وأفهامهم ، بمعنى أن يكون اللفظ و اضحاً لا غموض فيه ولا لبس ، ومن السهل إدراك معناه والوصول إلى مرماه ، وألا يكون من الغريب الذى يعلو على مداركهم ، ويكفى أن يلاحظ أن الغرض من الخطبة التأثير ، والإقناع وإثارة الوجدان ، ولا يكون ذلك إلا بما هو مفهوم للمستمع ، وما هو مأنوس الاستعمال عنده.

ويجب أن يراعى الخطيب عند التعبير عدم اختيار الألفاظ المبتذلة، وألا ينزل بتعبيره إلى درجة العامية ، فيذهب رواء خطبته ، ويضيع جلال معانيها. كأن يقول مثلا : " أتعشم " بدلاً من " أرجو" ، أو " آمل " أو "أطمع "،أو يستعمل لفظ " أفتكر" بدلا من " أتفكر" أو أفكر أو أتأمل .. إلخ وإن كان هذا قد شاع وللأسف على ألسنة بعض خطبائنا ، وهذا ولا شك دليل الضعف ، حيث لا يستطيعون إنتقاء ألفاظ خطبهم من غير أن يغربوا ، ويبتعدوا عن المفهوم المألوف، واستعمال العامية المبتذلة مع من يفهم الفصحى خطأ كبير . وإن كان لا يمنع أحياناً استعمال الخطيب لبعض الألفاظ العامية مع عوام الناس عند الضرورة منها، لتبيين فكرة، أو توضيح معنى ، و على ألا يغلب ذلك على خطبته.

يقول بشر بن المعتمر فى وصاياه للخطيب : " فإن أمكنك أن تبلغ من بيانى لسانك ولطف مداخلك ، واقتدارك على نفسك . أن تفهم العامة معانى الخاصة . وتكسوها الألفاظ الواسعة التى لا تلطف عن الدهماء . ولا تجفو عن الأكفاء ، فأنت البليغ التام "[1]

وعلى الخطيب أن يراعى اشتمال الخطبة على الألفاظ المناسبة المثيرة لخيال الجماعة . والموقظة لذكريات حية فى نفوسهم - والتعبير يكون حسناً حين يثير الخطيب الخيالات التى تهز نفوس المستمعين بالسرور

---

(١) الخطابة - للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٢٧

والاطمئنان. وهذا يأتي حين يعرف الخطيب أي جماعة يخاطبها وأي طائفة يتحدث إليها . لأن لكل جماعة أسلوب يناسبهم . وطائفة من الألفاظ تثيرهم . وتهز مشاعرهم إذا ذكرت . إما بالسخط أو بالغضب . فألفاظ " الجد والاجتهاد " وحاجة البلاد لسواعد الشباب ، و " حرية الوطن " ، وغير ذلك من الألفاظ ، تناسب جماعة الشباب ، وتهز مشاعرهم وتربط الخطيب بالمستمعين . كما أن ألفاظاً تتحدث عن فريضة الحج وتذكر " الحرم الشريف"، "ومقام إبراهيم" ."والبقيع" . و "زمزم " يتحدث بها الخطيب وسط جماعة مسلمة، عرف عنها حبها وتشوقها لأداء فريضة الحج . وتذكر هذه الألفاظ في مناسبتها. وفي فترة باب القبول للتقدم لأداء هذه الفريضة . لا شك أن الألفاظ إذا صيغت في عبارات طيبة . ورُتبت وأعدَّ لها إعداداً جيداً . وعبر عنها الخطيب التعبير السليم . لا شك أنها ستثير الوجدان وتوقظ في النفس معاني سامية ومثل ذلك بالنسبة لبقية الموضوعات.

هذا بالإضافة إلى ضرورة الالتزام بأصول الأداء . وطريقة الإلقاء، وتحديد الوقت التحديد الملائم المناسب . بلا تطويل مملّ . أو تقصير مخلّ ، وعلى أن يراعى الخطيب ويحذر كل الحذر، أن يقحم في خطبته ألفاظاً تثير ذكريات غير ملائمة للموضوع ، وذلك لأدنى ملابسة. أو لأقل علاقة . فهو بهذا يشوه خطبته . ويشوه نفسه أيضاً.

ومن التعبير الحسن أيضاً، والذي يجب أن يراعيه الخطيب أن يبتعد عن استعمال الألفاظ التي بليت من الاستعمال . وتكررت كثيراً وأصبح ذكرها يؤدي إلى الابتذال . وما أكثر الذين يرددون كلمات الديمقراطية والاشتراكية والحرية . والمساواة دون حاجة . أو داع إليها.

والتعبير الحسن يتطلب اختيار الألفاظ الجزلة في مقامها . والرقيقة لذلك بما يتناسب مع الموضوع . ومع المقام . فعليه أن يختار الألفاظ

الجزلة القوية حين يحث على الجهاد ، أو يريد إثارة الحمية أو الحماسة أما في حالة إظهار الأسى والألم، فعليه أن يختار الرقيق من الألفاظ.

والمقصود بالجزل القوى : أن يكون متيناً مع عذوبته فى الفهم ، ولذته فى السمع - لا بمعنى أن يكون وحشياً متوعراً فيه عنجهية البداوة - كما أن المقصود بالرقيق من الألفاظ : هو اللطيف الرقيق الناعم الملمس لا بمعنى أن يكون ركيكاً سفسافاً[1].

ويقول ابن الاثير[2]: (وسأضرب لك مثالاً من الجزل من الألفاظ والرقيق فأقول : أنظر إلى قوارع الألفاظ عند ذكر الحساب ، والعذاب والميزان ، والصراط ، وعند ذكر الموت ، ومفارقة الدنيا ،وما جرى هذا المجرى . فإنك لا ترى شيئاً من وحشى الألفاظ ولا متعوره : ثم انظر إلى ذكر الرحمة ، والرأفة ،والمغفرة ، والملاطفات فى خطاب الأنبياء، وخطاب المنيبين ، والتائبين من العباد ، وما جرى هذا المجرى، فإنك لا ترى شيئاً من ذلك ضعيفاً ولا سفسافاً فمثال الأول من الجزل من الألفاظ قوله تعالى :

" ونُفِخ فى الصور فصعق فى السماوات ومن فى الأرض، إلا من شاء الله ، ثم نفخ فيه أخرى . فإذا هم قيام ينظرون . وأشرقت الأرض بنور ربها ، ووضع الكتاب ، وجيء بالنبيين والشهداء . وقُضِى بينهم بالحق وهم لا يظلمون. ووفيت كل نفس ما عملت ، وهو أعلم بما يفعلون وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً ، حتى إذا جاءوها فُتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم ، وينذرونكم لقاء يومكم هذا ، قالوا بلى ، ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين

---

(١) الخطابة - للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٢٧

(٢) هذا الكلام منقول بعناد من كتاب الخطابة للشيخ أبو زهرة. نقلا عن ابن الأثير ص ١٢٩

قيل أدخلوا أبواب جهنم خالدين فيها فبئس مثوى المتكبرين ، وسيق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمراً حتى إذا جاءوها ، وفتحت أبوابها ، وقال لهم خزنتها : سلام عليكم طبتم فادخلوها خالدين . وقالوا الحمد لله الذى صدقنا وعده وأورثنا الأرض نتبوأ من الجنة حيث نشاء . فنعم أجر العاملين) .

فتأمل هذه الآيات المتضمنة ذكر الحشر على تفاصيل أحواله ، وذكر النار والجنة . وانظر هل فيها لفظة إلا وهى سهلة مستعذبة على ما فيها من الجزالة . وكذلك ورد فى قوله تعالى :

" ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة ، وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم ، وما نرى معكم شفعاءكم الذين زعمتم أنهم فيكم شركاء . لقد تقطع بينكم ، وضل عنكم ما كنتم تزعمون ".

وأما المثال الثانى وهو الرقيق من الألفاظ فقوله تعالى فى مخاطبة النبى صلى الله عليه وسلم :" والضحى ، والليل إذا سجى . ما ودعك ربك وما قلى و للآخرة خير لك من الأولى " . إلى آخر السورة : وكذلك قوله تعالى فى ترغيب المسألة : " وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداعى إذا دعانِ " ، وهكذا ترى سبيل القرآن فى كلا هذين الحالين من الجزالة والرقة .

ويقول بعد كلام طويل : إعلم أن الألفاظ تجرى من السمع مجرى الأشخاص من البصر . فالألفاظ الجزلة تتخيل فى السمع كأشخاص عليها مهابة ووقار ، والألفاظ الرقيقة تتخيل كأشخاص ذوى دماثة ولين أخلاق ، ولطافة مزاج ، ولذا ترى ألفاظ أبى تمام. كأنها الرجال قد ركبوا خيولهم ، واستلموا سلاحهم وتأهلوا للطراد . وترى ألفاظ البحترى كأنها نساء حسان عليهن غلائل مصبغات . وقد تحلين بأصناف الحلى وإذا أنعمت نظرك فيما ذكرته هاهنا، وجدتنى قد دللتك على الطريق

وضربت لك أمثالا مناسبة) .. إنتهى

ولعلنا بعد نقل هذا الكلام عن ابن الأثير نتبين ، ونتصور الألفاظ الجزلة والألفاظ الرقيقة ، وعلى الخطيب أن يضع كل نوع منها فى موضعه . فعليه أن يختار الجزل من الألفاظ حين يكون فى حاجة إلى قرع الحس وإثارته ، وعليه أن يختار رقيق الألفاظ إذا أراد أن يمس شعور المخاطبين مساً رقيقاً ، لأن المقام يقتضى ذلك .

والتعبير الخطابى يجب أن يراعى الخطيب فيه ، حين يعبر بألفاظه التى قلنا إنه يجب عليه أن يتحرى اختيارها بكل دقة ، وأن تعطى العواطف والمعانى شكلا مادياً يسهل به التفاهم حتى يحس المستمع أنه لا فرق بين المعنى والمبنى ، وأن هناك إبداعاً تولد من انصهار المعنى والمبنى فى وحدة تامة . فيحس المستمع أن الخطيب قد وُفق فى مرحلة الإعداد والتفكير ، لأنهم يرونه موفقاً فى مرحلة الإخراج والتعبير .

أسلوب التعبير :

الأسلوب الذى يتحدث به الخطيب يتكون من ألفاظ ركبت مع بعضها ، فكونت جملا ، تصاغ بأسلوب معين ، وبطريقة معينة . ولا شك أن اللفظ ما دام سديداً ، وقد اختاره الخطيب اختياراً موفقاً ، سهل الإدراك ، مكشوف المعانى ، سليما من الغرابة والشذوذ ، ومتفقاً مع السامعين بحيث لا يغرب عن تفكيرهم ، ولا يشذ فى دلالته ، كان الأسلوب أيضاً جيداً وسديداً وموفقاً .

ويكون الأسلوب كذلك ، إذا كان متلائم الكلمات ، متآلف التراكيب والخطيب الجيد هو الذى يجعل الجمل تنساب من لسانه ، وكأنها نغم يلمس أذن المستمع ، وعده بالشجن والسرور . كما أن الخطيب عليه أن يعرف أن الكلمات إذا تنافرت فيما بينها وجد الخطيب نفسه ، والكلمات

تخرج منه ثقيلة ، نابية ، لا تفيد ، ولا يلتفت إليها ، وتنفر السامع منها لأنها إن لم تكن منسقة مرتبة ، منظمة متلائمة، أفقدت المستمع روح الانتباه ، والميل للاقتناع ، وبخاصة إذا عرف الخطيب أن موضوعات الوعظ والإرشاد. يكثر الصدّ عنها ، وهى أقل من الموضوعات السياسية والقومية إتصالا بوجدان السامعين . ولذا كان على الخطيب أن يراعى ذلك ، وأن يدفع المستمعين للإقبال عليه ، والاستماع إليه . بل نستطيع أن نقول : إن الخطيب كالشاعر لا يؤثر فى السامع إلا إذا وفق فى تحذيره ، وبث الغفلة والذهول فى قواه المدركة . حتى يتقبل المعانى والأفكار، وينفعل بها فيستثير انتباه المستمع إليه .

وهذا لا يتأتى كما قلنا ، إلا بالأسلوب الجيد ، المعد إعداداً جيداً والتى اختيرت ألفاظه اختياراً جيداً فى مرحلة الإعداد.

وقد ذكر ابن الأثير، أن من بلاغة الكلام أن تكون كل كلمة مع أختها المتعاونة لها ، لئلا يكون الكلام قلقاً نافراً عن مواضعه، وحكم ذلك حكم العقد المنظوم فى اقتران كل لؤلؤة منه مع أختها المشاكلة لها(١).

وهناك أوصاف خاصة بالأسلوب الخطابى ، وتعتبر ضرورية له .وهذه الأوصاف كثيرة إلا أننا نشير إلى أهمها.

١- من الأوصاف التى يجب أن يتصف بها الأسلوب الخطابى :التصرف فى فنون القول، بمعنى أن يعبّر بتعابير مختلفة ، وألا يسير فى كلامه على وتيرة واحدة ، وألا يُذهب نشاط السامعين فيعتريهم السأم والملل.

وقد هجر الناس المساجد وانصرفوا عن الخطباء والوعاظ ، لأنهم يكررون كلامهم بنفس الأسلوب ، ونفس الطريقة لا يغيرون ولا يجددون.ويسير

---

(١) نقلا عن كتاب الخطابة للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٣٢.

تعبيرهم فى خط واحد ، وبأسلوب واحد.

ولا بد من التكرار. لأن فى التكرار تثبيت للأفكار ، وإيقاظ للمشاعر وتقرير الحقائق ، وحمل للنفس على الاطمئنان إليها . إلا أنه يجب أن يعرف الخطيب أن التكرار لا يصح أن يكون تكراراً حرفياً ، وإعادة لنفس ما قيل بالحرف الواحد ، وبنفس الأسلوب والتعبير . فإذا كان لابد من التكرار، فعليه أن يكرر بأساليب مختلفة ، واللغة العربية ثرية الألفاظ.متشعبة الأساليب ، وفيها الكثير من طرق الحقيقة والتشبيه والاستعارة والمجاز .

فى لغتنا العربية ما يسد الحاجة ، ويمد الخطيب بما يحتاج إليه من فنون القول وألوان التعبير.

تدخل مسجداً لتستمع إلى خطبة جمعة ، فترى معظم الناس نياماً وبعضهم ينظر إلى الخطيب ببلاهة ، والبعض الآخر سارح فى أفكار غير التى يسمعها ، وموضوعات أخرى شغل بها فكره وباله . وقد حضر معظمهم للمسجد لمجرد صلاة ركعتين ظنوهما هى الجمعة ، وقد يكون الموضوع من الموضوعات التى يجب على الخطيب أن يتحدث فيها ويكون الموضوع مناسباً للزمان والمكان . ومع ذلك لا يلفت انتباه الناس ، ولا يستثير وجدانهم ، ولوبحثت عن السبب لوجدت أنهم (المستمعين) قد سمعوا هذا الكلام بنفس الألفاظ ، وبنفس الأسلوب وطريقة التعبير مرة قبل ذلك أو مرات . إما من نفس الخطيب فى مناسبة سابقة وإما من خطيب آخر، يسير على نفس النهج والطريقة، لايغيّرها، ولا يبدّلها .

والناس ولا شك معذورون فهم يسمعون من الشيخ عبد الشكور ما يسمعونه من الشيخ عبد الصبور ، دون تغيير يذكر ، أو فرق يلاحظ والطريقة واحدة ، ودليل الاستشهاد واحد ، نفس الآيات ، ونفس الأحاديث

ونفس الحكم بل أحياناً نفس القصة التى ضمّنها الخطبة كدليل مع أدلة القرآن والسنة ، وكأنه لا دليل غير ما سمعوه ، ولا حكم غير التى عرفوها ولا أسلوباً آخر يمكن أن يغير أفكارهم ، أو يهز مشاعرهم .

وهذا وللأسف سبب من أسباب فشل الخطابة الدينية فى بلادنا .

إن على الخطيب أن يراعى سن المستمع ، ومنصبه وعمله ، وما يؤثر فيه وما لا يؤثر - ولكل قوم خطاب ، لا يعلو على أفهامهم ويتناسب مع مداركهم .

وشخصية الخطيب ولا شك، لها دخل كبير فى الأسلوب والتعبير فمن الخطباء من لا يليق بهم إلا الجدّ دائماً ، ولا يقبل منهم كلام فيه شيء من هزل أو مداعبات ، وبعضهم من يقبل منهم ذلك، لأن طبيعته فيها شيء من المرح والدعابة، على ألا يكون ذلك منهم إلا بقدر محدود بلا مبالغة ، ولا خروج عن المألوف، حتى لا تسقط هيبتهم ويكون ذلك منه ليستروح به السامعون ، ويستجمعوا نشاطهم ، ويبعد سأمهم.

والخطيب يستطيع أن يلاحظ فى أسلوبه وعباراته أحوال السامعين وما يقتضيه المقام ، وما يحسن منه ، وما لا يحسن.

ومن الأوصاف التى يمكن أن يتصف بها الأسلوب الخطابى تجميل الكلام فى بعض الأحوال بسجع قليل . غير متكلّف . على أن يكون قصير الفقرات .

وحين نقول ذلك : لا نحب أبداً أن يتعمد الخطيب السجع فى كل خطبه وكلامه ، وخاصة السجع الذى فيه تكلّف زائد . فإذا أظهر الخطيب التكلف ثقل على الناس ، وضعف تأثيره، ولذا فإنا نشترط أن يكون السجع قليلا لأنه حلية ، والحلية لا تجمّل إلا إذا كانت بقدر معلوم، فإذا زادت عنه ثقلت وكانت عيباً وشَيْناً ، وعلى أن يراعى الخطيب أن السجع لايصلح لكل البيئات ، ولا فى كل المجتمعات ، ولا فى كل الأحوال والمناسبات.

اختيار المقاطع:

على الخطيب أن يختار المقاطع التى يقف عليها . بحيث يكون وقوفه عند نهاية جزء تام من المعنى الذى يريده ، وحتى يكون التعبير والأسلوب جيدين ، يجب أن يكون المقطع ذا رنين قوى يملأ النفس ويوجهها نحو الغرض الذى يريده الخطيب.

وكم من خطباء ضاعت خطبهم الجميلة ، وأساليبهم المبتكرة حين لم يحددوا لها مقاطع ، واسترسلوا فى الكلمات ، دون اختيار لمكان الوقفات وحدود الكلمات ، فهم يلقون الكلام ، دون اهتمام بمقاطعه. ويسترسلون فيه على نسق واحد ووتيرة واحدة . ويقفون فى أماكن لا يصح فيها الوقف ويستمرون فى الإلقاء والتعبير ، دون مراعاة لأماكن يجب عندها الوقوف . ليتضح المعنى ، ويسهل فهم الصورة التى يعبّر عنها ، ويقول الأحنف بن قيس : " ما رأيت رجلا تكلم فأحسن الوقوف عند مقاطع الكلام ، ولا عرف حدوده إلا عمرو بن العاص . كان إذا تكلم تفقد مقاطع الكلام ، وأعطى حق المقام ، وغاص فى استخراج المعنى بألطف مخرج ، حتى كان يقف عند المقطع وقوفاً ، يحول بينه وبين تبعيته من الألفاظ"[1]

هذا على أن يعوّد نفسه ، مع الوقفات الصحيحة المناسبة ، على إخراج الحروف من مخارجها ، وأن يقرأ كل ما يستحسنه بصوت مرتفع مصوّراً بصوته معانى ما يقرأ ، بتغيير النبرات. برفع الصوت وخفضه كما قلنا قبل ذلك .

وقد عُرف أن مقاطع الكلام كانت غرضاً يطلبه المجيدون من الفصحاء والبلغاء . لأن حسنه يجعل المعنى لدى السامع واضحاً والرنين مؤثراً ، والوقوف جميلا ، ويجعل الإلقاء أبلغ تجميل .

قال معاوية لعمر بن سعيد:يا أشدق : قم عند قروم العرب ،فسل

(١) راجع كتاب الخطابة للشيخ أبو زهرة ص ١٣٤

لسانك ، وجل فى ميادين البلاغة ، وليكن التفقد لمقاطع الكلام منك على بال ، فإنى شهدت رسول الله صلى الله عليه وسلم أملى على على بن أبى طالب رضى الله عنه كتاباً ، وكان يتفقد مقاطع الكلام (١).

الأداء :

إذا كنا قد عرفنا فيما سبق كيفية إيجاد الخطبة ،وتنسيقها والتعبير عنها ، فيجدر بنا هنا أن نعرف طرق أداء هذه الخطبة والحال التى يجب أن يكون عليها الخطيب عند مخاطبته للجمهور ، وما يتخذه فى تهيئة هذه الخطبة .

والمعروف أن الخطيب يلقى خطبته ، إما بعد تحضير وإعداد ، وإما على البديهة و الإرتجال ، ولا بد أن يحضّر الخطيب موضوعه تحضيراً جيداً ، وذلك فى الحالات التالية :

أولا : إذا كانت معلومات الخطيب فى الموضوع الذى سيتحدث فيه لا تسمح له بالتقول على البداهة ، وإن تحدث فيه لم يوف الموضوع حقه ، ولم يجذب إليه جمهوره ، وكانت معلوماته فيه غير كافية حيث لم يدرس الموضوع من جميع جوانبه .

ثانيا : لا بد أن يحضّر الخطيب إذا كانت عنده الفسحة من الوقت لإعداد الموضوع وترتيبه و تبويبه حتى يتثبت مما يقول ويستطيع أن يختار للمعانى أجود الألفاظ وأحسنها، وحتى يستطيع إن فعل ذلك أن يصل إلى نفوس مستمعيه من أقرب الطرق ويهز بكلامه أوتار قلوبهم .

ثالثا :يجب على الخطيب أن يحضّر موضوعه ، إذا كان بين قوم يتسقطون هفواته ، ويتتبعون سقطاته ،ويُحصون عليه أخطاءه ، وما

---

(١) راجع كتاب الخطابة للشيخ أبو زهرة ص ١٣٤ .

أكثرهم وللأسف في مجتمعاتنا - فإذا كان يود ألا يؤخذ عليه مأخذ وألا يتهم بالتقصير، فليحضّر خطبته ، حتى لا يسقط أو يتعثر أو يزل.

والخطيب الناجح هو الذي يهيء خطبته ، قبل إلقائها ، ولا يغتر بعلمه فيثق في نفسه أكثر مما ينبغي. حتى ولو كان صيته ذائعاً أومعروفاً بالفصاحة والبيان .

هذا ، إن كان يود ألا يأخذ عليه النقاد شيئاً ، أو يسقط بين أيديهم سقطة تذهب برواء قوله .

ولا يتصور واحد من الناس . أن تحضير الخطبة مما يعيب مقدرة الخطيب ، فإن العيب هو أن يقول كلاماً مبتذلاً، لا قيمة له . ومعناه تافه صغير ، ولتكن له أسوة حسنة في كثير من الخطباء الأقدمين والمحدثين ، وقد قلنا في مكان آخر كيف كان كبار الخطباء من اليونان وغيرهم يدرّبون أنفسهم على الخطابة ويهيئون أنفسهم للخطبة قبل الإلقاء ، وقد روى أن القائد الروماني " كاليا" وكان من الخطباء المشاهير في ذلك العصر ، كان ينقطع في داره مع خدمه غداة يريد أن يلقى دفاعاً ، يدرّب نفسه على الإلقاء فيما يريد أن يخوض عبابه ، ثم يخرج من الغد في حالة هياج خارقة للعادة ،وعيناه تقدحان شرراً و هو في أشد أحوال التحمس ، ويذهب إلى الميدان العام هناك ليلقى كلامه ، كذلك روى المؤرخون أن المغفور له " سعد زغلول باشا" كان مع قدرته على الارتجال بما يقول. يكتب خطبته إذا كانت رسمية أو شبه رسمية ، حتى لا يسبق لسانه تحت تأثير الحماسة إلى مالا يريد أن يقيد نفسه به [1].

هؤلاء الخطباء الذين يهيئون أنفسهم للخطبة ، ويحضّرونها حتى يجيدون أداءها مع قدرتهم على الإرتجال ، إنما يحترمون أنفسهم ويأخذون

---

(١) الخطابة للشيخ محمد أبو زهرة ص ١٣٨

للموقف أهبته ، ويعدون له العدة لأنهم يعرفون أن الخطيب كالمجاهد،لا يخوض غمار الحرب من غير أن يتجهز لها ، وأن يتدرع بدروعها ويتترس بتروسها ، ولا يكون ذلك إلا بالتحضير والتهيئة ، والاستعداد للموقف من كل نواحيه.

ولابد للخطيب أن يعرف ، أنه إذا لم يُلمّ بالموضوع ، قبل الحديث فيه ، جاء كلامه ضعيفاً في معناه ومبناه ، لا بد أن يعرف ، أنه وإن كان عنده إطلاع واسع ، وعلم غزير ، فإنه إن لم يراجع نفسه حيناً بعد حين ، ويفكر كثيراً وطويلاً فيما يعتزم قوله ، وقتاً بعد آخر، ضعف أسلوبه الخطابى ، ولانت عباراته ، وانحدر إلى منهوى من الإبتذال سحيق ، واتجهت معانيه بعد فترة إتجاهاً سطحياً . ثم لا يلبث أن يفقد قوة التأثير فى المشاعر والأهواء .

طرق التحضير :-

طرق التحضير كثيرة ومتنوعة :

١- من الخطباء من يدرس الموضوع دراسة تامة ثم يجمع عناصره فى ذهنه ويرتبها ترتيباً جيداً بينه وبين نفسه ، ويستحضر من الألفاظ ما يليق بالمقام ، و يختار العبارات الجديرة بالموضوع ، وهذه الطريقة هى الطريقة الجيّدة السليمة التى يجب أن يتبعها الخطيب ، وهى الطريقة التى يتبعها المتمرن على المواقف الخطابية ، الذى اندرج فى سلك الخطباء.

وكثير من الأدباء يعدّون الخطبة التى تحضّر وتُلقى على هذه الشاكلة مرتجلة .

وبعض علماء الخطابة يرون أن الارتجال، هو أن تقال الخطبة على البداهة ، من غير أى تحضير سابق للموقف [١] إلا إنى أرى أن الإتجال

(١) راجع الخطابة للشيخ أبو زهرة ص ١٣٩

إما أن يكون ارتجالا بلا تحضير سابق وإما أن يكون بتحضير للموضوع ، دون استعمال ورق مكتوب ،[قراءة الموضوع من الورق]، ولا أعتقد أن إنساناً عاقلا يقبل أن يحدّث الناس دون ترتيب للموضوع ، وتحضير له ، أو لجزء منه ، قبل أن يتحدث ولو قبل ذلك بدقائق ، وإلا فأعتقد أن المرتجل ارتجالا مطلقاً لا يستطيع خلال إلقائه أن يسترسل فى كلامه ويكمّل هذا الموضوع ، مع إجهاد ذهنه ، وشغل نفسه بالعناصر الأخرى التى سيلقيها أثناء حديثه، وأيضاً ، مع ضرورة استقرار نفسه على موضوع معين ، لا يبدأ الكلام فيه إلا حين يحدده ، ويحدد أهم عناصره العامة على الأقل .

ولست مع من يقول : إن تزوير الخطبة ، وتحضيرها فى النفس والجنان والاستعداد للموقف قبل الكلام : لا يُعد من قبيل الارتجال،وأن الفرق بين هذا وبين الارتجال الذى هو عندهم .القول على البديهة دون تحضير أو استعداد واضح جلى (١).

وقد كان تحضير خطباء العرب فى النفس والخاطرة . كانوا يرتبون الكلام فى الذهن قبل إلقائه ، ثم يلقونه بعد ذلك ارتجالا ، ولعل قصة يوم السقيفة تدلنا على شيء من هذا . فقد قال عمر بن الخطاب رضى الله عنه فى وصف حاله عندما اشتد الخلاف بين المهاجرين والأنصار على من يتولى الخلافة بعد الرسول . قال : فأردت أن أتكلم وكنت زورت كلاماً فى نفسى ، فقال أبو بكر : على رسلك يا عمر . فما ترك كلمة كنت قد زوّرتها فى نفسى إلا تكلم بها.

٢- ومن الخطباء من يدرس الموضوع ، ويهيىء معانى الخطبة ويرتّبها ترتيباً محكماً، ثم يكتب عناصرها وأجزاءها فى مذكرة ، يستصحبها عند

---

(١) يرى المرحوم الشيخ أبو زهرة أن الارتجال : هو القول على البداهة من غير تحضير سابق للموقف . راجع كتابه الخطابة ص ١٣٩ ، ١٤٠ .

الخطبة ، لتكون مرجعاً له وضابطاً ، وليحفظ بها المعانى والأفكار حتى لا تضيع من ذاكرته وتفر من رأسه .

والخطباء من هذا النوع كثيرون ، وأنا أصنع هذا كثيراً ، ورأيى أن فى ذلك ضبطاً للأفكار و جمعاً للخواطر ، وإحكاماً للمعانى .

وإذا كانت هذه الطريقة تفيد ضعيف الذاكرة ، ولا يحتاج إليها من عرفوا بقوة الذاكرة، وأنهم ليسوا فى حاجة إلى كتابة هذه العناصر لأنها فى وعيهم وذاكرتهم ، فأنا أرى أن قوى الذاكرة فى حاجة إليها أيضاً على الأقل على سبيل الاحتياط ، وسبحان مقلب القلوب فقد يحدث للخطيب، مالم يكن فى حسبانه ، فيرتج عليه الموقف حتى و إن كان قد تعود عليه آلاف المرات .

لقد تعودت أن ألقى الخطبة بالطريقة الأولى ، وهى استحضار الموضوع فى الذهن ، وجمع العناصر ، وترتيبها فى النفس دون أن أستصحب معى شيئاً مكتوباً ،وتمرنت على هذا ، وتعودته عشرات المرات.وكنت فى زيارة لقريتى، وُطلبَ منى أن أستعد لإلقاء خطبة الجمعة فى مسجد العائلة ، الذى تعود الناس أن يستمعوا إلىّ فيه، حين أزور القرية من حين لآخر ، وقد استرجعت فى نفسى موضوع خطبة الجمعة السابق ، والذى ألقيته بنجاح كبير فى بلدة أصهارى ، حيث كان هو نفس الموضوع الذى ألقيته فى الجمعة السابقة أيضاً، فى المسجد الذى ألقى فيه خطبة الجمعة فى القاهرة ، ولا شك أن الموضوع حين ألقيته مكرراً فى بلدة أصهارى . كان أجْود كثيراً مما ألقيته أول مرة فى القاهرة وكان فى بلدة أصهارى أجود كثيراً مما ألقيته أول مرة فى القاهرة ، وكان من المفروض أن يكون أكثر إجادة فى قريتى حين أكرره للمرة الثالثة ، وبخاصة ، أنه قد نُبه علىّ قبل ذلك بيوم كامل ولكن الله أراد شيئاً آخر .

فقد صعدت على المنبر ، الذى اعتدت عليه ، منذ زمن بعيد واشرأبت أعناق الفلاحين من أهل قريتى الذين جاءوا يستمعون إلى خطيب القاهرة (المتطور) ابن بلدهم الذى لا يزورهم إلا قليلاً، وبدأت الخطبة،ثم ضاعت الآيات، وطارت الأحاديث، وذهبت الشواهد والأدلة، وما نفع دعاء كنت أدعوه بين الحين والآخر،وكلام أردده وهو قول الله تعالى : "وما أنسانيه إلا الشيطان" ، وكنت أشرح الآية شرحاً جيداً حتى أتذكر آية أخرى. وحين أحاول النطق بها تضيع كسابقتها، و أتذكر بعض الأحاديث لأشرح بها الآية،وحين أبدأ الحديث لأجده ، ويطير هو الآخر حتى كاد عقلى يطير،وينخلع قلبى من مكانه، وتصببت عرقاً، وملئت خجلا، ونزلت من فوق المنبر أقدّم آخر لإمامة الصلاة،خشية أن تضيع الفاتحة، أو لا أجد آية صغيرة أقرؤها بعدها.

ومن يومها فكرت فى أن أحمل معى " برشامة " صغيرة عبارة عن قطعة صغيرة من الورق، فيها بعض الآيات والأحاديث، وفيها إشارات للعناصر والنقاط التى يتضمنها الموضوع لإستعمالها عند الضرورة ولأرجع إليها إن حدث شيء مثل الذى حدث قبل ذلك فى قريتنا منذ أكثر من خمس وعشرين عاماً[1]. وقد ينسى الإنسان نصاً فلا بأس من أن يطلع عليه،وأن يُرى وهويطلع على النص بكياسة، ردون أن يلحظه أحد وحتى لو لوحظ فلا شيء فى هذا ،وإنما سيقولون عنه إنه رجل دقيق وملتزم وغير متهاون.

ولا شك أن هذه الطريقة مستحبة فى هذا العصر، وبخاصة إذا كانت الخطبة طويلة، وذلك جمعاً لأشتاتها،وحتى ولايقع فى التكرار فيؤدى إلى الملل.

ولا بد أن يعرف الخطيب،أنه مهما أوتى من قوة الذاكرة، فإنه لن

---

(١) كان ذلك عام١٩٦٧ ولازلت أذكر التاريخ جيداً لأن العام كان عام النكسة .(المؤلف)

يتذكر كل ما يجهّزه ويهيئه. فقد ينسى عناصر الموضوع. ويتحدث عن عناصر أخرى ليست بأهمية العناصر التى ينساها إن لم يستصحب معه المذكرة أو(البرشامة) التى تحدثنا عنها.

٣- ومن الخطباء من يكتب خطبته كتابة كاملة، أى يجمع ألفاظها، ويكتب نصوصها، ويتحرى فى كتابته أبلغ الأساليب. التى توصله إلى غايته وتؤدى به إلى ما يريد، وهو يُحكم معانيها، ويحمّلها كل ما ينبغى من وسائل التأثير و طرق الإقناع، التى يصوبها نحو هدفه، ويرمى بها إلى غرضه، وبعد أن يكتب موضوعه كاملا، يقرأ ما كتبه أكثر من مرة، وينقّحه فى كل مرة، وبهذه القراءة التى يتحرى بها جودة الإلقاء وحسن النطق، تكون معانى الخطبة قد علقت تماماً بذاكرته، مرتبة فى هذه الذاكرة الترتيب التام، وبهذه القراءة والتكرار نجده قد حفظ كثيراً من ألفاظها وعباراتها، وهذه الطريقة ولا شك لا بأس بها، لكن مع مراعاة ألا يعتمد على الحفظ وحده، وأن يكون عنده استعداد للتصرف فى العبارات. دون إلتزام بما حفظ مما كتبه، وإلا فإنه سيرتج عليه حين ينسى جملة أو تضيع منه فقرة.

وقد عُرف أن هذه الطريقة يتبعها كثير من المحامين فى القضايا الكبيرة ذات الشأن، والتى تحتاج إلى تحضير كبير، و لابد فيها من جمع عدد من النصوص القانونية، أو عبارات جاءت على ألسنة الشهود، وكثيراً ممن تمرسوا على هذا العمل، تلقاهم يلقون ما كتبوا من غير أن يقرأوه، ولا يتركون صغيرة ولا كبيرة، ولو استمعت إلى ما قالوه واطلعت على ما كتبوه. لوجدت كثيراً من العبارات التى ساقوها كانت من بين ما كتبوه.

٤- هناك نوع آخر من الخطباء يخطبون خطبهم، ويختارون لها الألفاظ الحسنة والأساليب الجيدة، ثم يحفظون ما كتبوه حفظاً تاماً.

بعضهم يحمل معه النص ، إلا أنه لا يتقيد به ، فيتحلل أحياناً مما حفظ ، وذلك إن وجد المقام يدفعه إلى غيره ، وهذه الطريقة يتبعها أكثر المبتدئين فى الخطابة ، ولا بأس على الخطيب المبتدىء أن يفعل ذلك ، حتى يتعود على الارتجال الكامل.

وبعض الخطباء يكتب الخطبة ثم يلقيها كما كتبها ، لا من الذاكرة وإنما من الورق ، وكثير من المحاضرين فى مصر ، و بخاصة الذين يحاضرون فى موضوعات علمية ، يلقون محاضراتهم بهذه الطريقة :

إلا أنه يجب على من يسلك ذلك المسلك، سواء كان خطيباً أومحاضراً أن يقرأ ما كتبه قراءة جيدة قبل الإلقاء ، ويحسُن عند الإلقاء أن يحاول إلقاء بعض المحاضرة ، أو الخطبة من غير المكتوب ، ليكون فى ذلك تجديد فى الإلقاء ، وتغيير للأسلوب والطريقة التى كتب بها محاضرته ، وحتى لا يملّه المستمع وينظر إليه نظرة إستهتار، واستهجان لما يصنع ، وكثير من الجماهير فى مصر بالذات لا تفضل هذه الطريقة وترى أن المحاضر من هذا النوع ليس على المستوى الذى يجب أن يكون عليه المحاضرون ، وبعضهم يعلّق على هذا . بأنه فى إمكان المستمع أن يقرأ هذا من كتاب.

ولا شك أن طريقة إلقاء الكلام المكتوب تختلف كثيراً عما يُلقى من غير قراءة فى ورق ، أى إرتجالا كما قلنا ، ونظر المتحدث إلى المستمعين له أثره وتأثيره الكبير فى الجمهور ، ويشدّ المستمعين للمتحدث ويجعل بينه وبينهم ألفة.

وعلى من يقرأ المحاضرة مكتوبة ، ويضطر إلى ذلك، أن يشرف على السامعين بنظره من وقت لآخر ، لتتصل روحه بأرواحهم، وليعرف أحوالهم ، ويرى هل هم يتابعون ،وينفعلون مع ما يقول ، أم أن كلامه لا يدخل إلى قلوبهم ويسبب امتعاضهم ؟

ولذا ، فإن على المتحدثين ، من خلال أوراقهم التى كتبوها ، أن يقرأوا موضوعهم قراءة جيدة ، ويكرروا هذه القراءة ، حتى يتمكنوا من ترك الورق والنظر إلى الجمهور من حين لآخر ، ولا بد أن يفعل ذلك فى كل أجزاء المحاضرة أو الخطبة .

ولعلنا نلاحظ أن الجمهور لا يستحسن من مذيع النشرة الإخبارية فى الإذاعة المرئية (التليفزيون) أن يظل مركّزاً نظره فيما يقرأ ، وإنما يريد أن يراه وكأنه جالس معه ، يخاطبه ويحدّثه ، لا يحجبه عنه شىء ، ولذا فإن كثيراً من المحطات التليفزيونية العالمية تضع فى مواجهة المذيع جهازاً يقرأ عليه النشرة الإخبارية، حين يمر الشريط فى الجهاز أمامه، دون أن يراه المشاهد ، ويحس وكأن المذيع يحفظ النشرة عن ظهر قلب، وإن كان المذيع يضطر إلى وضع نص النشرة مكتوباً أمامه للرجوع إليه عند الحاجة.

وعلى كل حال ، فإن الطريقة المثلى للخطابة ، أن يكتب الخطيب المبتدىء خطبته و يحفظها ، ويلقيها كما حفظ ، ثم يتطور بعد ذلك - بعد المران - حيث يحملها معه مكتوبة وينظر إليها عند الحاجة ، ثم يحصن نفسه بعد ذلك حين يتقدم فى الخطابة ، وتصبح عنده الملكة الخطابية ويعد فى صفوف الخطباء ، وله أن يحمل عناصر الموضوع معه احتياطياً خشية الارتجاج عليه ، مع ضرورة دراسة الموضوع دراسة وافية ، وتحضير عناصره تحضيراً جيداً.

محتويات الخطبة :

قسم القدماء (القول الخطابى) إلى خمسة أقسام ، وقد كان تقسيمهم يتناسب مع جعلهم الخطابة جزءاً من المنطق ، وفهمه لموضوعات الخطابة

حسب بيئاتهم وظروف زمانهم ، وقد أطلق أرسطو على كل جزء من أجزاء الخطبة لفظ (الإقتصاص) ، وبيّن كيف أن هذا الإقتصاص أى التجزىء والتقطيع برتبط بعضه ببعض . لأنها قطع لكل واحد وقد أطلق على الاقتصاص الأول، أى الجزء الأول، (الصدر) والجزء الثانى (الفرض) والثالث (الاقتصاص) والرابع (التصديق) والخامس (الخاتمة)[1].

وحتى لاأدخل القارىء الكريم فى متاهات التقسيمات القديمة ومتاهات التعريفات التى لم تعد تتناسب مع عصرنا ، فإنى أكتفى هنا بالتقسيم الذى اتفق عليه العلماء المحدثون ، حيث اختصروا أقسام الخطبة إلى ثلاثة أجزاء ، بعد أن أدمجوا (الصدر) و (الفرض) فى جزء واحد، هو (المقدمة) وأدمجوا (الاقتصاص) و(التصديق) فى جزء واحد هو (الإثبات) أو(العرض)، لذلك دار بحثهم حول الأجزاء الثلاثة فقط (المقدمة)و(عرض الموضوع) و(الخاتمة) [2].

القسم الأول : المقدمة :

مقدمة أى موضوع ليست سوى مدخل لهذا الموضوع ، ومقدمة الخطبة هى عبارة عن مدخل للخطبة، يتوسل به الخطيب ليمهد لأفكاره ويوهم السامعين ويستثير انتباههم.

ولا شك أن هذه المقدمة ضرورية ، فهى التى تنقل السامع من حالة اللامبالاة التى يكون عليها، قبل إلقاء الكلام. إلى جو آخر يصبح فيه أكثر تقبلا للأفكار التى سيتولى الخطيب عرضها والتأثير بها ، والخطيب كالشاعر. لايؤثر فى السامع إلا إذا وفق فى تخديره. وبث الغفلة والذهول فى قواه المدركة - حتى يتقبل المعانى والأفكار ، وينفعل بها. ويتصرف

(١) راجع تلخيص الخطابة لابن رشد ص ٣٠٧.

(٢) راجع قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين . للدكتور أحمد غلوش ص ٥٩.

بتأثيرها تصرفاً يوافق هواه. لأن الخطيب. إذا تصدى لغايته مباشرة. فإن السامع. يكون فى حالة لامبالاة. والأفكار تعبر عن أفق وجدانه. دون أن تنفذ إلى أعماقه، ولاشك أن المقدمة الحسنة المختارة إختياراً جيداً، ستثير المستمع، وتجذب انتباهه، وتدفعه إلى الانتظار والاستمرار فى الاستماع، وما أكثر الموضوعات الجيدة. التى يتركها المستمع حين لايبدأ المتحدث فيها بداية طيبة موفقة، وكم من برامج (تليفزيونية) تحوّل عنها الناس إلى قنوات أخرى، حيث لم يبدأ فيها المتحدث بداية جيدة. فإذا ما استمع المستمع إلى بداية تثيره ومقدمة تعجبه. اضطر إلى الانتظار للاستماع إلى بقية الموضوع . على أمل السماع للكلام الجيد فى الموضوع المعروض . ولذا فإن كبار الخطباء، يتوسلون دائماً المقدمات التى تستثير المستمع وتجذب انتباهه. وتنزع به من حالة لأخرى.

وعلى نجاح المقدمة أو فشلها يتوقف نجاح الخطيب أو فشله . وإذا وفق فى إقناع السامع بخطورة حديثه. وأهمية الأفكار التى يتولى معالجتها. يكون قد مهد للنجاح فى خطبته.

وإذا كانت المقدمة ضرورية لكل كلام يقال. فإنها أكثر ضرورة حين يكون السامعون عازفين عن السماع إلى الخطيب، وبخاصة حين يكون الخطيب مغموراً. أو إذا كان يلقى الحديث إلى نفر من السامعين. الذى تحفظهم عليه ضغينة سابقة . أو يرون رأياً يخالف رأيه أو ينضوون إلى عقيدة تخالف عقيدته. فالمقدمة فى مثل هذه الأحوال ضرورية وعليها يتوقف نجاح الخطبة. لأنه إذا ما وفق الخطيب فى استثارة السامعين. انقادوا إليه، وتحولوا عن موقفهم السابق.

والمقدمة ضرورية أيضاً. بل ضرورية جداً بالنسبة للموضوعات التى اعتاد الناس على سماعها، وبخاصة تلك التى تعنى بالوعظ والإرشاد، على أن يراعى الخطيب الشروط التى ذكرناها قبل ذلك من تنويع الكلام.

وتغيير الأساليب، وبراعة الاستهلال . وإظهار ما يفيد أن فى موضوعه جديداً. ومع عدم الإسراف فى الطول كما قلنا حتى لايجد موضوع خطبته الأصلى . ممعناً فى الإيجاز والتلميح .

ومنهم من يستهل كلامه فى غير الخطبة الدينية، بإيراد كلام خصومه أو بامتداح المستمعين .

وإذا كان قد شاع فى الخطب الدينية البدء بالآيات القرآنية أو بالأحاديث الدينية، فإنا نرى، إمكان تغيير هذه الطريقة، والتعمية على المستمعين، بعدم توضيح موضوع خطبته من البداية، خشية أن يُظن أنه سيكرر ما قاله غيره، أو ماتعوّد أن يستمع إليه من معظم الخطباء، ويرى أنه ليس فى حاجة أن يعرف، أكثر مما عرف وأن لافائدة مما سيسمع، ولاجديد عند محدثه ، ولا فرق بينه وبين من سبقوه.

وللخطباء مذاهب شتى فى افتتاحهم . ولذا فإنا لن نحصر طرقها . لأن أفضل مناهجها يرجع إلى حسن تصرف الخطيب وجودة تقديره . وقد اختلف الأقدمون والمحدّثون، فى أحسن هذه الطرق، وهل هى طريقة افتتاح الخطبة بما يشير إلى الموضوع ؟ أم هى طريقة من يبتدىء خطبته بحكمة أو مثل سائر ؟ أم هى طريقة من يفاجىء السامعين فى بداية كلامه بما يزعجهم ؟ أم غير ذلك من طرق يصنعها الخطباء السياسيون حين يبدأون بذكر كلام خصومهم ،أو ذكر أنه من الجماعة التى يخاطبها وأنه فى مستواها ليقرّبها إليه ، أو الثناء على السامعين ليهيىء نفوسهم لتلقى مايقول ، أم هى الطريقة – التى قلنا إنها تنتشر الآن وهى الافتتاح ببعض الآيات أو الأحاديث التى تناسب المقام الدينى الذى يتحدث فيه الخطيب ؟

إلا أننا نعود فنقول : إن أفضل مناهجها يعود إلى حسن تصرف الخطيب وجودة تقديره .

كيف يكون الافتتاح جيداً ؟

حتى يؤدى إفتتاح الخطبة، إلى مايبغيه الخطيب من ورائها يجب أن تتوفر هذه الشروط :-

١- أن يكون قصيراً موجزاً. حتى لايشغل الذهن بغير المطلوب. فينصرف عن الأساس والأصل إلى ما هو فى المرتبة الثانية .لأن المقدمة والافتتاح، ماهى إلا تهيئة المستمع وإعداده لتلقى الموضوع الذى يرجو المتحدث أن يقتنع به المستمع ويرضخ لنتائجه.

٢- ألا يكون مبتذلا تمجه الأسماع.

٣- ألا يكون بعيداً عن الموضوع غريباً عنه. وإنما يجب أن يكون موافقاً للموضوع متصلاً به مرتبطاً بما يعنيه.

وإذا كنا قد ذكرنا أنه من المستحسن للخطيب ألا يكشف من بداية كلامه عن تفاصيل موضوعه ، فإنه لا يعنى ذلك أن يجد المستمع نفسه وهو يستمع إلى كلام لايتناسب إطلاقاً مع المناسبة التى يعرف المستمع مسبقاً أن الخطيب سيحدثه فيها . فهو لايقبل كلاماً يدل على تهنئة فى مناسبة عزاء، وبالعكس، ولاخير فى كلام لايدل على معناه ولايشير إلى مغزاه. ولايعرّف بالغرض الذى إليه نزع، ومن أجله يتحرك، وله يظهر ويبين.

ولا شك أنه إذا ضممنا إلى حسن مقدمة الموضوع وافتتاحه مناسبة الخطبة للمستمعين، والمقام الذى تلقى فيه ، لعلمنا يقيناً أنها تلامس رغبة الجماهير وتشارك وجدانهم فيضطرون لمعايشتها من أول الافتتاح إلى نهاية الخاتمة، وعند ذلك يكون الخطيب قد أدى دوره كما ينبغى ونجح فى المهمة التى ألزم نفسه بالقيام بها.

القسم الثاني : موضوع الخطبة :-

إن معالجة الموضوع هى أهم قسم من أقسام الخطبة، وهو يعتمد بالإضافة إلى موهبة الخطيب الشخصية، التى تساعده على ربط أفكاره، وإجادة تعبيره. يعتمد معالجة الموضوع بجانب ماسبق، على الثقافة الواسعة، التى تثير السامع، وتدفعه داخلياً إلى التعجب والاندهاش، فضلا عن التحمس لما يسمع ، ومشاركة الخطيب فيما يدعو إليه.

وعلى الخطيب أن يقسّم موضوع خطبته، وينتقل بعد المقدمة ، والافتتاح الجيد من الأفكار العامة الرئيسية ، إلى الأفكار الثانوية بتدرج وتطور، وعليه أيضاً أن يستعمل طريقة الاستدارج، بمعنى ألا يدفع أفكاره إلى السامعين دفعة واحدة. بل على أقساط وأجزاء حتى تتسرب إلى نفوسهم، ويؤمنوا بها، وينقادوا إليها دون أن يشعروا.ولايعطيهم نتائج مع المقدمات، أو فى بداية الموضوع، بل عليه كما يقول أهل التخصص أن يتبع تصميماً قاتماً غامضاً ينقاد إليه ، ويتطور به ، دون أن يعيه السامعون وينتبهوا إليه.

مع ملاحظة أن هذه الوسائل، لاتجدى إذا ظل الخطيب يتحدث حديثاً نظرياً، بأفكار يعجز السامع عن الوصول إلى أبعادها ، وفهم أغوارها ، فقد ينفعل الخطيب ويصدق، ويأتى بأفكار جديدة ، لكنه لايوفق فى التأثير فى السامعين، لأنه عجز عن تقريب الأفكار إلى مفهوم المستمعين ، ولم يتمكن من تمثيلها لهم تمثيلا يسيغونه ويقبلونه.ولهذا كان وجود القصة بين مايلقى من كلام ، مسهماً إسهاماً كبيراً فى تقريب المعانى، وتجسيدها تجسيداً مادياً - فالقصة تصور المعانى تصويراً خلال الحوادث ، ولاتدع هذه المعانى ذهنية مجردة، دون شكل أو ملامح ، والقصة نوع من الأدب ، له جمال فيه متعة ، تؤثر فى نفوس الكبار، كما تؤثر فى نفوس الصغار، لأنها

تجذب العقل، وتخاطب الوجدان .

فعلى الخطيب أن يستفيد بالقصة أسلوباً ومنهجاً عن طريق اختياره المناسب من أحداثها وعرضه للمستمعين، وإحاطة كلماته بجو مؤثر مفيد.

ولا نريد أن نطيل كثيراً فى هذا الموضوع ، فنبين فائدة القَصص، وكيف اهتم القرآن به، فذكر كثيراً من قصص الأمم السابقة ، وجعله وسيلة قرآنية للدعوة إلى الله ، وكيف اهتمت التربية الحديثة به أيضاً.وركزت فى أساليبها على القصة ، بأسلوب تربوى هام . بل كيف عرف الناس قديماً وحديثاً ، أهمية هذا النوع. فى الاستدلال ، فألقوا القصص الخيالية على ألسنة الناس ، أو على ألسنة الطيور والحيوانات.هادفين من ذلك نشر فكرة ، أو تأييد اتجاه ، ولعل كتاب " كليلة ودمنة " الذى ألفه الفيلسوف " بيدبا" خير دليل على ما نقول.

القسم الثالث : " الخاتمة " :

هذا القسم هو أقصر أقسام الخطبة ، ولايعنى قصر الخاتمة ، أنها لافائدة فيها ، بل لابد أن تكون الخاتمة قوية التأثير ، عميقة الدلالة على موضوع الخطبة ، لأنها توجز الموضوع فى كلمات قصيرة ، تبثها فى آذان المستمع، ولذلك يستمر حفظه للخطبة كلها.

وحسن الختام . لايقل أهمية عن براعة الاستهلال. فالخاتمة هى آخر مرحلة يركز المستمع عليها انتباهه، وقد دأب الخطباء. فى نهاية خطبهم على إيجاز ما سبق أن ألمّوا به. وبعض الخطباء يعمد إلى استخلاص فكرة عامة رئيسية، توقظ سائر الأفكار التى تصدى لها الخطيب. وتضاعف من تأثر السامع بها. لهذا كان من الضرورى. ألا تتسع الخاتمة إلى الجدل والنقاش كالموضوع . بل ينبغى أن تكون واضحة يقينية المعانى، حتى تبقى مدوية فى وجدان السامع.

وما دامت الخاتمة هى آخر كلام الخطيب ذكراً. كانت بذلك أعلق بنفوس المستمعين، وأكثر الكلام اتصالا بقلوبهم ، وإن كان وضع الخاتمة حسناً، إنسحب ذلك على الخطبة كلها، وإلا ساء الأثر، وضاعت الغاية المنشودة ، ولذا قيل :" يجب أن يكون فيها من جمال التعبير ، وحسن الانسجام ، وجودة المعنى ، وإصابة الغرض ، ولطف المقطع وإحكامه ، ما يبقى أحسن الآثار ، وأحكم الأفكار (١).

ولو نظرنا إلى خواتم سور القرآن الكريم، لوجدناها فى غاية الحسن، وغاية الدلالة على موضوع السورة ، مع تضمنها على مايوحى بانتهاء الكلام. حتى لايبقى انتظار عند المستمع - أنظر إلى خاتمة سورة إبراهيم:

" **هذا بلاغ للناس ولينذروا به** ". وانظر إلى خاتمة سورة الأحقاف، وسورة الحجر، حيث يقول الله تعالى :

" **واعبد ربك حتى يأتيك اليقين** ".

ومن هذا كان على الخطيب أن يعرف أن الخاتمة تشتمل على موجز لما ألقاه ، وتوضيح كامل لغايته ومرماه - وأن تكون مثيرة للعاطفة . فى الأمر الذى يريده الخطيب. متناسبة مع ما يوجهه إليها كتهديد وإنباء، أو إثارة للحماسة ، أو حفز للهمم. أو إثارة عاطفة الرحمة إلى غير ذلك.

أى : يأتيهم بما يتناسب مع هذه الأمور.

وأخيراً: فعلى الخطيب أن يبذل وسعه. وجهده فى الإحاطة بالأقسام التى تحويها الخطبة. ليقدر على الأداء السليم. لأنه لوضم إجادة التقسيم. إلى فطرة مستعدة لكان خطيباً ناجحاً.

---

(١) الخطابة (محمد أبو زهرة) صـ ١١٨

أقسام الخطابة وخصائصها

لقد كان أرسطو أول من عنى بتقسيم الخطابة إلى أنواع ، وقد جعلها ثلاثة أنواع ، واعتمد فى هذا التقسيم على عناصرها الثلاثة أيضاً ، وهى الخطيب ، والمستمع ، والموضوع.

وهذه الأنواع الثلاثة للخطبة هى :

١- الخطبة المشورية : وهى الخطبة التى تشتمل على التوجيهات الآمرة والناهية .

٢- والخطبة المشاجرية : وهى الخطبة التى تتسم بالتنازع والتشاجر.

٣- والخطبة التثبيتية : وهى الخطبة التى تهدف إلى المدح أو الذم بوصف ما هو كائن ، وإثبات موضوعها بالطرق الجمالية الممكنة .

ولاشك أن هذا التقسيم الأرسطى للخطبة ، كان يتناسب مع عصر أرسطو ، وعصور أخرى قديمة .

ولو حاولنا تحليل هذه الأنواع ، وكذا الأمور التى اعتمد عليها أرسطو لوجدنا أن أزمنة الخطب متداخلة ، وكذا الغايات متداخلة هى الأخرى ، بالإضافة إلى أن هذا التنويع لايشمل الخطب الدينية. التى اضطر علماء العصر الحديث إلى إضافتها وإدخالها ضمن التقسيم الحديث للخطبة.

وإذا كان علماء العصر الحديث لم يرتضوا هذا التقسيم الأرسطى لعدم وضوح هذه الأقسام، وقصورها عن الإحاطة بما استجد من أمور الحياة والناس، ولتداخل أنواعها فى بعضها، فقد وجدناهم يعتمدون تقسيمات جديدة ، تعتمد على موضوع الخطبة ، وعلى تقدير وتوجيه الخطيب لها .

فهم يقسمون الخطابة إلى :

١- **الخطابة الوعظية** : وهى الخطبة التى تتم فى دور العبادة ، وتتعلق بالعقيدة والإيمان ، والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر.

٢- **الخطابة السياسية** : وهى الخطبة التى تدور حول الشئون العامة للدولة ، وتشمل الخطبة الانتخابية و البرلمانية .

٣- **الخطابة العسكرية** :وهى الخطب التى تلقى فى الجنود ورجال الجيش.

٤- **الخطابة المحفلية** :وهى خطب التأبين والمدائح ومحافل الفرح والتهانى.

وبرغم هذا كله، فأنا شخصياً لا أرتضى هذا التقسيم، لأنى أجد أن هناك تداخلا كبيراً بين هذه الأقسام وأرى أن اعتماد العلماء لقسم مخصوص من بين هذه الأقسام أسموه (الخطابة الوعظية) مما لاأقبله، على أساس أن الأنواع الأخرى كلها لايمكن فصلها الفصل الكامل عن الدين ، بالإضافة إلى أن الوعظ يتعدى أيضاً المساجد ودور العبادة . إلى أى مكان يتمكن فيه الواعظ من إلقاء خطبته.

وإذا كان علماء الخطابة قد جعلوا خصائص لكل قسم من هذه الأقسام ، ومزايا خاصة يتميز بها كل نوع عن الآخر، فإننا باختصار نقول : إن أهم ما يجب أن تشتمل عليه هذه الأنواع، أى الخطب التى يغلب عليها طابع معين، سياسى، أو قضائى، أو عسكرى .. إلخ أن تجعل الدين أساس فكرتها ، ومحور الحديث فيها . بل على الخطيب الدينى أن يرى أن كلامه فى مثل هذه النواحى من قبيل الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر أيضاً . كما أنه جزء من العقيدة والإيمان ، عليه أن يعلّم الناس إياه ، كما يعلمهم الصلاة والصيام ، وغيرها من الفرائض.

١ـ الفرق بين الخطبة والمحاضرة:

ربما كان هناك تشابه بين الخطبة والمحاضرة فى أنهما قصد من كل منهما اقناع الناس.

وإذا كان ابن رشد عرّف الخطابة بأنها:" قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة " أو عرّفها بعض المحدّثين بأنها :" فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته " فالمحاضرة أيضاً تدخل ضمن هذه التعريفات كما أنها تعتمد على التقسيم العلمى والعقلى لموضوعها وتحتاج أيضاً للإثبات والتفنيد.وتشتمل على أقسام تشبه الأقسام التى تحتوى عليها الخطبة، كما أنها تتخذ موضوعات متنوعة تجعلها تتنوع إلى محاضرة سياسية، واجتماعية، ودينية ، وغيرها، إلا أننا برغم ذلك نلاحظ خلافات جوهرية بين الخطبة والمحاضرة.نذكر أهمها فيما يلى :

١- موضوع المحاضرة أكثر سعة من موضوع الخطبة، لأن التقسيم يبدأ فى المحاضرة أولا بالمبادئ. ثم تقسّم المبادىء إلى عناصر.

بينما الخطبة تقسّم إلى العناصر ابتداء. فالمحاضرة أقرب إلى البحث العلمى ومن هنا اختلفت عن الخطبة.

٢- بالنسبة لعناصر المحاضرة ، هى عناصر محددة مقررة أشبه ما تكون بالقواعد والمبادىء الأساسية، أما الخطبة فيغلب على عناصرها المعانى الطارئة، والخواطر العارضة ، حيث أن الخطبة غالبا ما يكون وقت إلقائها قصيراً، ولا تحتمل التقسيمات التى تحتملها المحاضرة ، وغالبا ما يكون وقت الخطبة لايصلح إلا لموضع كامل. أما المحاضرة فهى تستغرق وقتاً طويلا ، ومن الممكن تقسيمها إلى عدد من الأيام.

٣- الخطبة يغلب عليها صبغة إثارة العواطف والمشاعر، وتهييج الدوافع والانفعالات، ولذلك عرّفها بعضهم بأنها " فن إثارة الجماهير" أما المحاضرة، فهى تعتمد على المنطق والتحليل والتوضيح ، ويغلب عليها أسلوب تقرير

الحقائق وتثبيت المعانى.

٤- يغلب على جمهور المحاضرة وجود صلة معينة تربط بينهم، ولكل محاضر جمهوره الخاص ، ويمكن أن نقول إن جمهور المحاضرة من الخاصة غالبا، أما جمهور الخطبة فهو من سائر الطوائف.

وبرغم هذه الفروق بين الخطبة والمحاضرة ، إلا أن المحاضرة أكثر شبها بالخطبة من المناقشة مثلاً.

الفرق بين الخطبة والندوات والمناقشات :

من الاجتماعات الخطابية ، التى تقوم بدور كبير فى التوعية الدينية والاجتماعية، الندوات العامة، التى يشترك فيها أكثر من متحدث وخطيب.

وفى هذه الندوة ، يكون المتحدث أكثر من واحد، ويتناول كل واحد منهم، الموضوع من زاوية معينة، وقد يفتح بعد ذلك باب التعليق والمناقشة، والسؤال لجمهور المستمعين.

وقد تعرض فى نهاية الندوة. توصيات وقرارات ، تعرض على الحاضرين للموافقة عليها ، ويكون ذلك نتيجة ، لما أسفرت عنه المناقشة.

والحقيقة : أن هذا النوع من الخطابة مفيد جداً ، وأقرب إلى نفوس المستمعين ، لأنه فى حالة وجود متحدث واحد، قد يدفع ذلك للملل. أما فى الندوة ، فإن تعدد المتكلمين يبعث على النشاط ، ويعطى الاجتماع حرارة ، وحركة ، كما أن هذا التعدد يوضح الفكرة المعروضة ، توضيحاً كاملا، أو قريباً من الكمال ، حيث يتناولها المتحدثون ، من جميع الزوايا، ولكل من المتحدثين وجهة نظره ، ويحاول كل واحد منهم ما استطاع ، أن يدلل على صحة ما يقول،وأن يكون مقنعاً، أكثر من الآخرين فيعطى كل ما عنده.

كما أن إشراك المستمعين فى المناقشة ، واتخاذ القرارات، يشعرهم أنهم أصحاب القضية المعروضة ، ويؤكد اهتمامهم بها، وإقتناعهم بما يسفر عنه الاجتماع من توصيات.

الفرق بين الخطبة والمناظرة :

قد تكون هذه الندوات فى صورة مناظرة ينقسم المتحدثون فيها إلى فريقين.فريق يؤيد رأياً معيناً - والفريق الآخر يعارض هذا الرأى.

والحقيقة : أن المناظرة من الصور الخطابية المحببة إلى الجمهور،لأنها تتخذ طابع المعركة الكلامية، وكأنها مباراة فى الخطابة. وهى تفيد فى إقناع المعاندين والمعارضين. وتنتهى المناظرة عادة بأخذ رأى الجمهور، وإعلان الرأى الذى فاز بأغلبية أصوات الحاضرين . وقد يجد الخطيب نفسه بعد إلقاء خطبته والإنتهاء منها، فى مناظرة مع أحد المستمعين، وفى هذه الحالة عليه أن يسمع وجهة النظر المخالفة.ويحاول أن يدلل على وجهة نظره بأدلة أخرى ، يؤيد كلامه بها، تاركا كل رغبة فى الغلبة والانتصار على من يناظره بغير حق، أو باستعمال القهر والسطوة، أو التشهير بالمناظر، أو سبه وتجريحه ، لأن هدف المناظرة هو الحق دائماً.

بل عليه أن يقبل على الموضوع بعقل متفتح وفكر سليم، مفندا أسانيد الخصم (المناظر) دون أن يتحدث عن نفسه، لأن الناس يكرهون من يتحدث عن نفسه ، وعليه أيضاً أن يتواضع حتى ولو كان المناظر أقل منه علماً أو سناً، فللمناظرة أصولها، ويجب أن يتبعها المناظر لكى يصل إلى مايرجوه من نتائج طبيعية ، وإلا تحول إلى مجادل لايبغى غير إلزام الخصم، وصار مكابراً معانداً، والمناظرة يمكن استخدامها لإثارة الموضوعات الهامة التى قصد منها التوعية.ولجذب الناس واهتمامهم بموضوع معين، خاصة حين نريد قياس اتجاه الرأى العام بالنسبة إلى مسألة من المسائل.

والندوات العامة والمناظرات، برغم أنها تجتذب المستمعين، إلا أنها لا تستلزم وجود الخطيب البارع، وبقدر ما تحتاج إلى القائد الخبير الذى يدير هذه الندوات. لكن لكى تنجح هذه الندوات، لابد أن يقوم بإدارتها خبير بأطراف الموضوع، ملمّ بجميع أركانه و اتجاهاته، حتى يستطع بفهم وذكاء، أن يحوّل تيار المناقشات إلى الوجهة التى يريدها والتى تحقق هدفه من الندوة .

٤- الفرق بين الدرس والخطبة:

الحقيقة أن الدرس أصعب بكثير من الخطبة، وذلك لأن الخطبة محصورة فى موضوع واحد لاتتعداه ، أو المفروض أن تكون كذلك وأدلة الخطبة تُجمع ، وترتب ، وتنظم وتختار بما يتناسب مع الخطبة وما يؤيد وجهة النظر المرادة ، ولا تتعدى الموضوع.

أما الدرس فقد يتعدى موضوعه. فيستطرد المدرس بسبب ما يوجه إليه من أسئلة ، ومن هنا وحتى ينجح الدرس ويؤتى ثماره المرجوة، كان لابد أن يكون المدرس قديراً على إدارة الكلام ، وتركيز الأدلة وإيضاح المعنى بوسائل الإيضاح المختلفة ، والمفروض فى الدرس الدينى أنه يمثل مدرسة منظمة بخطة ومنهج.

وقد جرى العرف بين العلماء، على أن الدرس الدينى : هو ما يؤديه إمام المسجد فى مسجده، على صورة شرح آية، أو تفسير حديث، أو ذكر قصة للعظة والاعتبار .

والمفروض فى الإمام المدرس، أن يكون على صلة بأحداث مجتمعه الذى يعيش فيه.وأن يستخلص من الآية أو الحديث أو القصة، ما يحتاج إليه مستمعوه ، وقد كان الدرس الدينى فى كثير من المساجد مجرد دردشة عادية، لاترتبط بموضوع معين، وليس فيها التحليل الدقيق الموجود فى

المحاضرة مثلا، إلا أن وزارة الأوقاف نظمت الدروس الدينية بالمساجد، وأصبح نظاماً معيناً يدور مع أيام الأسبوع ويتحدث الخطيب المدرس كل يوم في موضوع خاص معين محدد.

وفائدة الدرس للمستمع، أكثر من فائدة الخطبة، حيث يستطيع أن يسأل ويستفسر عن كل ما يجول في خاطره، وبذلك تكون فائدته أعمق وأدق، وإن كان يشترك مع الخطبة في أنهما يخاطبان العقل والروح.

وكان القدماء يسمون مجلس الدرس، بمجلس الوعظ والذكر.

وخفة الظل، وبشاشة الوجه، وحسن العرض، مطلوب من الإمام المدرس، وإلا هجره الجمهور، فقد يضطر الناس لسماع خطبة الجمعة مرغمين، وهم غير راضين عن الخطيب، حيث حتمت عليهم فرضية الجمعة أن يصلوها ويستمعوا إلى هذا الخطيب.

أما الدرس، فلا يقبل عليه إلا الراغب فيه، المتيقن من فائدته، ولو لم يكن الإمام المدرس مقنعاً شكلا وموضوعا، ما أقبل عليه أحد، ولابأس من ذكر أقصوصة للمزاح الذى لايتعدى حدود اللياقة. أو يُخرج المدرس عن وقاره، لتسلية المستمعين، وإبعاد الملل عنهم، وما أكثر ما يشتمل عليه تاريخنا القديم والحديث من طرائف ونوادر.

وأخيراً: فإن الخطيب ليست مهمته سهلة أو هينة، فعليه أن يجيد كل أنواع فنون القول، من مناقشة، ومحاضرة، ودرس، ومناظرة، وندوة، إلى غير ذلك، ليؤثر في مستمعيه ويفيدهم، ويفيد دعوته.

خطبة الجمعة :

لاشك أن صلاة الجمعة قد فرضت لحكمة ظاهرة لاتخفى على المتفكر المتأمل. وهذه الصلاة الجامعة، ليست مجرد صلاة عادية، ولكنها بمثابة ندوة أسبوعية، يلتقى فيها المسلمون للتعارف، وتوثيق أواصر المودة بينهم،

والتعاون على ما فيه الخير.

وقد فرضت الجمعة، لتكون مجالا صالحاً متكرراً كل أسبوع لتحليل الخطيب لمشاكل المجتمع الذى يعيش فيه، وتقديم الحلول التى تناسب مستمعيه، وقد كان تشريع هذه الخطبة فى وقت مبكر فى الإسلام، أكبر دليل على اهتمام الإسلام بالعلم، لأن كل خطبة، تعتبر موضوعا علمياً مستقلا، ولو أجيد أداؤها لتلقى المسلم فى العام الواحد إثنتين وخمسين خطبة، لها موضوعاتها المدروسة، وأهدافها المفيدة.

وخطبة الجمعة كان يلقيها الخليفة فى صدر الإسلام. فيحدّث الناس فى شئون دينهم ودنياهم، ويوجههم إلى ما فيه خيرهم وصلاح أمرهم.

كانت مؤتمراً إسلامياً أسبوعياً لأهل كل مدينة، يجتمعون فيه على البر والتقوى، وتوجيههم إلى ما ينفعهم فى الدنيا والآخرة، فصلاة الجمعة هى فى الواقع، اجتماع للعبادة والتعاون والتوعية، فهل تقوم خطب الجمعة الآن فى المساجد بدورها فى التوعية؟

الحقيقة: أن الدعوة الإسلامية قامت على عاملين قويين، لايستغنى أحدهما عن الآخر.

أولهما: عامل الإرشاد والبيان الذى يقوم على الإقناع بالحجة والبرهان، حتى تتمكن العقيدة الصحيحة فى القلوب، عن فهم واقتناع دون قهر أو إكراه.

ثانيهما: عامل الجهاد القائم على القوة والسلطان، دفاعا عن الحق من اعتداء المعارضين المعتدين.

أركان خطبة الجمعة :

أركان الخطبة أربعة هى :

الركن الأول : أن تفتتح بالتحميد، وأقله الحمد لله ، ويروى ابن تيمية، أنه تتبع خطب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فوجد أوائل أكثرها ، هو : **الحمد لله نحمده ونستعينه ، ونؤمن به ، ونتوكل عليه ، ونستغفره ، ونتوب إليه ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ، ومن سيئات أعمالنا ، ومن يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادى له ، وأشهد ألا إله إلا الله وحده لا شريك له** [1].

وقد اختلفت المذاهب فى هذا الركن: فالشافعية والحنابلة. يرون أن الخطبة ، لاتصح بدون التحميد ، وأنه واجب فيها ، ويرى الحنابلة أنه ليس من الضرورى ، ذكر لفظ الحمد لله ، بل إن الثناء، والشكر يقوم مقام الحمد، من أدائه للمعنى المقصود.

إلا أن الشافعية يرون ضرورة النطق بلفظ الحمد ، أو مايشتق من مادته. أما أبو حنيفة وصاحباه ، فيذهبون إلى أن ما يحقق الذكر. كاف ولو كان قليلا ، وما يطلق عليه إسم خطبة كاف فى تحقيق المقصود لقوله تعالى " **فاسعوا إلى ذكر الله** " ، ويستدل الحنفية بما روى من أن عثمان رضى الله عنه ، صعد على المنبر، وقال الحمد لله ، فارتج عليه ونزل ، وصلى بالناس من غير تكبير ، وقد حده محمد وأبو يوسف. حدّ القلة بما كان قدر التشهد ، ليستوى على الثناء ، والصلاة على رسول الله، والدعاء للمسلمين [2] .

أما المالكية. فلا يرون هذا الركن فى الخطبة ، لأن آية من القرآن تكفى، والخطبة عند العرب كلام منطقى يفيد معنى ، أو عدة معانى، فإذا احتوى

---

(١) عيون الأخبار ص ٢٣١ جـ ٢. وراجع هدى النبى ﴿ﷺ﴾ فى الخطابة من هذا الكتاب.

(٢) فتح القدير جـ٢ ص ٥٩.

كلام على آية قرآنية ، جاز جعله ، خطبة للجمعة عند المالكية [1].

الركن الثانى لخطبة الجمعة :

الصلاة على النبى صلى الله عليه وسلم : بلفظه الذى ذكره الله تعالى بقوله : " إن الله وملائكته يصلون على النبى يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليماً " والصلاة عند الشافعية والحنابلة ، ركن واجب، سواء ذكر الرسول باسمه الصريح ، أو بضميره ، وإن كان بعض متأخرى الشافعية ، يشترطون إيراد الاسم الصريح للرسول ، مع الصلاة عليه فى الخطبة .

أما الأحناف والمالكية . فيذهبون إلى أن الصلاة على الرسول فى الخطبة سنة وليست ركناً ، ولا شرطاً .

الركن الثالث لخطبة الجمعة :

الوصية بتقوى الله تعالى : والإجماع منعقد على هذا الركن - صراحة أو ضمناً ، وإن كان الشافعية ، والحنابلة أيضاً . يرون ضرورة التصريح به . أما الأحناف والمالكية . فهم يرون أن بعض الذكر، أوالقرآن يكفى لذلك . لأن فى القرآن الكريم عظة ونصحاً وتوجيهاً .

ولا شك أن الوصية بتقوى الله تعالى . فى موضوع الخطبة ، هو الهدف المقصود منها ، ولذا كان لابد منه .

---

(١) كفاية الطالب الربانى نقلا عن قواعد الخطابة وفقه العيدين للدكتور أحمد غلوش ص ٢٢٧ .

الركن الرابع لخطبة الجمعة :

قراءة شىء من القرآن الكريم ، ولو آية. لأن " جابر بن سمرة قال : " **كانت صلاة رسول الله قصداً وخطبته قصداً. يقرأ آيات من القرآن ، ويذكر الناس** [1] ، وأما اشتراط قراءة شىء من القرآن.لأن الخطبة فرض فى الجمعة. فوجبت القراءة فيها فى الصلاة . يقول الجاحظ: " إن خطباء العصر الأول كانوا يرون أن تشتمل الخطبة على آى من القرآن الكريم . فإن ذلك مما يورث البهاء ، والوقار ، والدقة ، وحسن الموقع ، وكثرة الفائدة [2].

ويلاحظ أن هذه الأركان الأربعة ، واجبة فى الخطبة الثانية . كالخطبة الأولى تماماً .

سنن الخطبة :

ذكر الفقهاء شروطاً كثيرة للخطبة ، واعتبروها سُنناً لها. وقد وصلت عند بعضهم إلى ثلاث عشرة سُنّة ونذكرها هنا باختصار :

١- أن تكون الخطبة على منبر. أى مكان عال مرتفع عن الأرض، يكون موضعه أمام الحاضرين – حتى يتمكنون من رؤيته. بصرف النظر عن نوع هذا المنبر ، هل هو من الخشب. أم من المبانى. أم من غير ذلك. كل ذلك جائز ، وليست له صورة معينة .

٢- أن يُقبل الخطيب بوجهه على الناس. مستدبراً للقبلة لأن ذلك أدعى للانتباه.

٣- أن يسلم الخطيب على الناس. عقب صعوده على المنبر. كما كان

---

(١) صحيح مسلم .

(٢) نقلا عن قواعد الخطابة وفقة العيدين للدكتور أحمد غلوش.

يفعل النبى، ويعتبر ذلك تنبيهاً للناس ، وليستعدوا للحضور معه نفسياً وعقلياً.

٤- أن يجلس بعد سلامه على الناس

٥- أن يخطب قائماً . ما دام يقدر على القيام .

٦- أن يجلس الخطيب . بين الخطبتين للفصل بينهما.

٧- أن يرفع الخطيب : صوته ما أمكن ليسمع الحاضرون صوته .

٨- ألا يحرّك أطرافه إلا إذا كانت الحركة مما تفيد قوله ، وعلى ألا يبالغ فى هذه الحركة .

٩- سهولة الخطبة ، وتناسبها مع المستمعين .

١٠- أن تكون الخطبة قصيرة . بقدر الإمكان . حتى يتمكن الخطيب من التركيز "وعدم الاستطراد".

١١- ترتيب أركانها لتقدّم إلى المستمع . فى صورة مقنعة

١٢- أن تشتمل الخطبة على الدعاء للمسلمين عامة ، والحاضرين منهم خاصة ، تذكيراً بالأخوّة الإسلامية . والعبودية لله تعالى.

١٣- أن يحضر الخطيب للمسجد ، وقت حلول الخطبة ، وهذا مدعاة للاهتمام به . وبكلامه [1].

أهمية الجمعة و آداب الصلاة

لا شك أن هناك حكمة إلهية جليلة فى اختيار يوم من أيام الأسبوع يجتمع فيه المسلمون، يحدثهم خطيب المسجد فى موضوع من موضوعات الحياة ، ويعرض عليهم رأى الدين فى هذا الموضوع ، وبيان ما يجب عليهم

(١) أنظر المهذب جـ١ ص ١١٢ ، والكافى جـ١ ص ٢٩١ ، ٢٩٢ . وتبين الحقائق جـ١ ص ٢٢١.

عمله ، مما يصلح دينهم ودنياهم : ولا شك أن الحكمة سامية، حين جعل الله هذا الإجتماع وهذا اللقاء أسبوعياً. حيث يظل الناس وباستمرار على علاقة ببعضهم البعض، وعلى علاقة أيضاً بحلول مشكلاتهم ، فالفترة بين الإجتماع والإجتماع، لاهى بالقصيرة فيملوا ، ولاهى بالطويلة فتضيع الحكمة من هذا الإجتماع.

هذا والإجتماع الأسبوعى ليس عملا روتينياً. أو لقاء شكلياً كما يتصوره بعض الناس. وإنما جعل الله هذا الاجتماع وهذا اللقاء فريضة من الفرائض، يجب على القادر عليها أن يؤديها أداء كاملا وأن يحاول ما استطاع الاستفادة منها. وإذا كان فيها لقاء الناس بعضهم ببعض. وتعارفهم ومعرفة من غاب منهم ومن حضر . فيسأل الحاضر عن الغائب . وتستمر العلاقات الإنسانية بين الناس . إلا أن هناك مع ذلك شيئاً مهماً لايفطن إليه وللأسف كثير من المسلمين ، وهو هذا الموضوع المثار . هذه الخطبة التى سيقف خطيب المسجد على منبره ليعرضها ويناقشها ويحللها. فيذكر ويعرف الحل لمن جهله أو غاب عنه . وتتفتح أبواب حكمته لمن أراد أن يتأكد ويستزيد.

من هنا وجدنا المولى سبحانه ومن فوق سبع سماوات ينادى المؤمنين إلى صلاة الجمعة. ويستحثهم على أدائها والسعى إليها. ويوضح لهم أنها من الأهمية بحيث لايجب أن يشغلهم عنها بيع ولا شراء. والبيع والشراء، هو أكثر ما يشغل الناس فى هذه الحياة.

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم :(**يا أيها الذين آمنوا إذا نودى للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ، فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض**

وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون)[1].

فالآية الأولى كما ترون تأمر المسلمين أن يتركوا البيع وسائر نشاط المعاش بمجرد سماعهم الأذان .وترغبهم فى ترك شئون المعاش للانشغال بالذكر فى هذا الوقت . ثم بعدها لا مانع من أن يعودوا إلى مشاغل عيشهم . لكن مع ذكر الله تبارك وتعالى الذى يجب ألا يغيب الإنسان عنه ، ولذا كانت الآية التالية :

(فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيراً لعلكم تفلحون) .

إن صلاة الجمعة هى الصلاة الجامعة التى لا تصح إلا جماعة . وهى صلاة أسبوعية كما قلنا يتجمع فيها المسلمون، ويلتقوا ويستمعوا إلى خطبة تذكرهم بالله . وتشرح لهم أمراً من أمور الدين والدنيا. لكننا يجب أن نقف أمام هذه الفريضة التى يجهل الكثيرون معناها ومغزاها- فمثلا نجد أحاديث كثيرة وردت عن النبى صلى الله عليه وسلم فى فضل هذه الصلاة والحث عليها ، والاستعداد لها بالغُسل والطيب ، من ذلك مثلا ما جاء فى الصحيحين عن ابن عمر رضى الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال :

(إذا جاء أحدكم الجمعة فليغتسل)[2] كذلك يروى أصحاب السنن الأربعة من حديث أوس بن أوس الثقفى قوله . سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول :

(من غسل واغتسل يوم الجمعة وبكّر وابتكر ،ومشى ولم يركب، ودنا من الإمام ، واستمع ولم يَلْغ ، كان له بكل خطوة أجر سنة، صيامها

---

(١) سورة الجمعة آية : ٩ ، ١٠

(٢) راجع صحيح البخارى ص ٢١٢ جـ١ والحديث من رواية ابن عمر .

وقيامها" (١) وأحاديث كثيرة أخرى فى فضل يوم الجمعة وضرورة الاغتسال لها ووضع الطيب " وارتداء الثياب الحسنة ، وضرورة الإنصات وكيف أن صلاة الجمعة كفارة لما بينها وبين الجمعة الأخرى.

ولا شك أن الدعوة للاغتسال فى يوم الجمعة وارتداء الملابس النظيفة لا يحتاج إلى تعليل ، خاصة وأن أهل البلد جميعاً يلتقون فى المسجد يضم الجميع مكان واحد، ويقفون فى صفوف متراصة لا تحدد فيها أماكن الأغنياء، ولا أصحاب السلطة، ولا الكبار، ولا الصغار، فالكل سواء فى بيت الله . وفى ضيافته لا صغير، ولا كبير، ولاغنى، ولافقير، . ويجب أن يجلس الناس لا يشغلهم عن ذكر الله فى المسجد رائحة عرق . أو ثياب رثة . أو حشرة تمرح على ملابس صاحبها غير عابئة بهذا الجمع الغفير .

واللافت للنظر فى دعوة النبى صلى الله عليه وسلم الناس إلى التبكير فى الذهاب للمسجد.والإنصات للإمام.والدنو منه.و الاستماع إليه بلا لغو لماذا؟

ليعيش الناس جميعاً مع كل كلمة تقال . وكل قضية تُطرح.بعيدين عن شواغل المعاش وجواذب الأرض . وليخرجوا فى النهاية بما يفيدهم . وإلا ما كان هناك داع مطلقاً لهذا الاجتماع . وهذه المشقة وهذا الجهد.

ولعلنا نتصور مدى اهتمام السلف الصالح بصلاة الجمعة . حين نقرأ مثل ما يرويه ابن أبى حاتم عن عراك بن مالك رضى الله عنه؛ بأنه كان إذا صلى الجمعة انصرف، فوقف على باب المسجد فقال :

(٢) والنص فى البخارى :(لا يغتسل رجل يوم الجمعة وتطهر ما استطاع من طهر ويدّهن من دهن .أو يمس من طيب بيته.ثم يخرج فلا يفرق بين اثنين . ثم يصلى ما كتب له . ثم ينصت إذا تكلم الإمام.إلا غفر له ما بينه وبين الجمعة الأخرى.راجع صحيح البخارى ص ٢١٣جـ١ .

(اللهم إنى أجبت دعوتك وصليت فريضتك وانتشرت كما أمرتنى فارزقنى من فضلك وأنت خير الرازقين) .

إن استهتار الكثيرين من المصلين بصلاة الجمعة وتعمد الكثيرين من المصلين الذهاب إلى المسجد بعد انتهاء الخطبة لأداء ركعتى الجمعة فقط ، هو من وجهة نظرى جرم عظيم فى حق الإسلام وشريعته ، وعصيان لأمر الله الذى دعا الناس إلى السعى للمساجد بمجرد سماعهم النداء ، وترك كل ما يشغلهم من أمور المعاش ، ومخالفة أيضاً لأمر النبى صلى الله عليه وسلم، الذى دعا إلى التبكير، والدنو من الإمام، والإنصات له . فصلاة الجمعة ليست مجرد ركعتين تؤديان فى جماعة.وإلا ما كان هناك داع لفرضيتها ، وإنما هى خطبتان وركعتان ، وأرى أن سماع الخطبتين هما المقصود الأول من الجمعة ، ولا شك أن خطيب المسجد مسئول عن هروب الناس من سماع خطبته ، حيث ينظر كثير من خطباء المساجد الآن، إلى الخطبة، على أنها عمل روتينى ، فلا يحاولون إثارة المشاعر. ولا اتباع الأساليب التصويرية التى تتناسب مع هذا العصر ، ولا يحاولون أيضاً مناقشة الموضوعات التى تتناسب مع المستمعين ، ولا القضايا التى تهمهم.

وقد يضيع الخطباء معنى الخطبة، حين يتكلفون فى النطق ، ويتزيدون فى جهارة الصوت ، أو حين لا يتصرفون بأصواتهم انخفاضاً وارتفاعاً مسايرة لموضوع الخطبة ، وليبعدوا السآمة عن المستمعين ، ويجنبون خطبتهم الرتابة المملة.

فالخطيب لا يؤثر فى المستمع عن طريق الأفكار فحسب ، وإنما يؤثر أيضاً فى حاسة السمع والبصر . وكم من خطبة مفيدة ضاعت على المستمعين بسبب طريقة عرضها الخاطئة . وفشل صاحبها فى التأثير بها على المستمعين.

وقد أُثر عن النبى صلى الله عليه وسلم كراهيته التخلل باللسان ، وقيل إن نجاح الحجاج سياسياً ، لأنه كان خبيراً بأثر الصوت فى الجماهير، وكان من تمام طريقته المسرحية فى التأثير فى سامعيه ، أنه إذا صعد المنبر تكلّم رويداً رويداً حتى لا يكاد يسمع ، ثم يتزيد فى الكلام، حتى يخرج يده من مطرفه، و يزجر الزجرة فيفزع بها أقصى من فى المسجد.

ولابد أن نلاحظ أن الدين هو الدين من يوم أن جاء به محمد صلى الله عليه وسلم ، وإمكانات الدعوة متوفرة أكثر من ذى قبل.ومع ذلك فالأثر ضعيف، إن لم نقل غير موجود على الإطلاق ، فالعيب ليس عيب الدعوة ، وإنما هو عيب بعض الدعاة ، فلنحاول ما استطعنا فهم دين الله فهماً جيداً ، ومعرفة روحه وحكمة التشريعات فيه ، وفى الجمعة يعرف الإمام واجبه تماماً فيؤديه على الوجه الأكمل ، ويعرف المصلون معنى صلاة الجمعة ، وحكمة مشروعيتها. فيُقبلون عليها إقبالا ذاتياً، ليستفيدوا من هذا الخير الذى أراده الله لهم ودعاهم إليه.

ثانياً: الركن الثانى: الخطيب

أهمية اختيار القائم بالتوعية (الخطيب)

الخطابة فى الإسلام مظهر الحياة المتحركة فيه ، الحياة التى تجعل هذا الدين يزحف من قلب إلى قلب ويثب من فكر إلى فكر، وهذا هو السر فى أن النبى ﴿ﷺ﴾ كان يخطب، كل أسبوع، وكل عيد، ويخطب وينيب عنه أميراً فى وفود الحجيج عند جبل الرحمة ، ودعماً للحق جعل الله الخطابة من شعائر الإسلام ، وجعل المسلمين يحتشدون كل أسبوع فى المسجد، ليسمعوا داعية إلى الله يُذكّر به ويعلّم دينه .

وجعل فى كل عيد، خطبة يسمعها الرجال والنساء حين يجتمعون فى الميادين.أو فى الخلاء الواسع ، أو فى المصليات المحيطة بالقرية.أو المدينة، ليسمعوا التوجيه المناسب بعد صلاة العيد .

وفى كل موسم من مواسم الحج، تلتقى وفود الأمة الإسلامية المترامية الأطراف حول عرفة، لتستمع إلى خطاب خطير يتناول شئونها، ويشرح قضاياها وللأسف : فأنا لا استطيع أن اعتبر الخطابة التى يرى الآن شبحها ، والتى نراها ونسمعها فى مساجدنا ومصلياتنا، خطابة إسلامية، أو هى الخطابة فى الإسلام إن مهمة الداعية فى الإسلام جد خطيرة وصعبة المراس ، ونجاح الدعوة فى كثير من الأحيان، يتوقف على شخصية الداعية الذى يقوم بها، وهذه الوظيفة لا يصلح لها كل إنسان، لأنها تتطلب مواهب وصفات خاصة لاتتــوفر لكل الناس .

فمهنة الداعية تستلزم الاتصال بالناس، ومواجهة الجماهير.والتحدث إليها. والتأثير فيها ، فهى نوع ، من القيادة تحتاج إلى كفاءة خاصة، ويجب أن يكون لدى الداعية الموهبة الفطرية، والاستعداد الشخصى لمواجهة الجمهور

والتحدث إليه . وأن يكون على قدر من الذكاء ، وصاحب شخصية جذابة وقادرة على التأثير في الغير .

وليس أصعب من مهمة الداعية الذى يريد توجيه الناس إلى أمر يخالف معتقداتهم الراسخة ، إنه محتاج إلى أكبر قدر من الذكاء واللباقة، وعليه أن يبدأ في التشكيك فى صحة ما يعتقدونه، حتى ينتهى إلى نقضه والإقناع بغيره ، ولذلك كان لابد من شروط خاصة لنجاح الداعية الذى ينوب عن النبى ﴿ﷺ﴾ في هذا الأمر الخطير .

حاجة الخطيب إلى معرفة كل العلوم والثقافات :

قلنا قبل ذلك إن الخطيب كالفنان يجب أن تكون لديه الموهبة الطبيعية والاستعداد الفطرى التى تؤهله لممارسة فن الخطابة بنجاح - هذه الموهبة وهذا الاستعداد لا يغنيان عن ضرورة استمداد الخطيب الدائم علماً، واطلاعه على سائر أنواع المعارف حتى يصل إلى مبتغاه - وحتى يمكنه أن يتعادل مع دوره الهام الذى يقوم به، والذى يضعه فى موضع الصدارة، فهو المفتى، والناصح، والموجه ، ولذا فإن الخطيب لا يتمكن من قيامه بهذا الدور الكبير إلا بعد جهد طويل، وبذل متواصل فى التحليل العلمى والبحث الموضوعى .

والخطيب ليس مجرد ناقل لكلام، أو مردد لفكر - ولذا فهو يعرض عقله على الناس كلما التقى بهم، لأنه يخاطبهم بما وصل إليه من كافة الأدلة والعناصر المرتبطة بالموضوع - وقديماً قيل لعبد الملك بن مروان :

(عجّل عليك الشيب يا أمير المؤمنين) قال : وكيف لا يعجل علىّ، وأنا أعرض عقلى على الناس من كل جمعة مرة أو مرتين) [1] .

ومن أهم المعارف التى يجب على الخطيب المسلم أن يهتم بها :

---

(1) جمهرة خطب العرب . ج ٣ ص ٣٧٦ .

(١) القرآن الكريم.والسنة النبوية المطهرة.والملل والنحل.وعلوم اللغة. والعلوم الإنسانية الأخرى-ونستطيع أن نقول إن على الخطيب الداعية ضرورة الإلمام بالثقافة التاريخية.والثقافة الأدبية واللغوية، والثقافة الإنسانية، والثقافة العلمية ، والثقافة الواقعية .

ولا أحب أن أخوض فى شرح أهمية هذه الثقافات بالنسبة للخطيب الداعية، وضرورة أن يتمثل هذه الثقافات ويهضمها ، ويكوّن منها مزيجاً جديداً طيباً نافعاً أشبه شيء بالنحلة التى تأكل من كل الثمرات ، سالكة كل السبل وبها ذلل ، لتُخرج بعد ذلك شراباً مختلفاً ألوانه فيه شفاء للناس.

فلسنا فى حاجة لأن نبيّن ضرورة معرفة الخطيب بالقرآن الكريم، الذى يجب أن يهتم به حفظاً وفهماً، ويقتبس منه فى خطبه وكلماته، ويتلوه للمستمع للتدليل على صحة ما يقول، باعتباره المصدر الأول للإسلام، وبالتالى للثقافة الإسلامية، لأن تعاليم الإسلام ترجع فى أصولها إلى القرآن الكريم، الذى اشتمل على العقائد، والمفاهيم، والقيم، والموازين، والعبادات، والشعائر، والأخلاق، والآداب، والقوانين، والشرائع، التى وضع القرآن نصوصها جميعاً . وأرسى دعائمها ، وجاءت السنة لتبيّن وتفصّل.وأقامت عليها بنيانا شامخاً لا تنال منه الأيام والليالى .

ولسنا فى حاجة لأن نبيّن، بأن القرآن الكريم هو مقياس الإجادة عند الخطيب ، لأنه هو كتاب الله، الذى لا يكتفى بإيراد الحقائق عن الموضوع المعنى به فقط ، وإنما يخرجها بصورة تلائم عقول المستمعين وأرواحهم ، وتهتم بالشكل والمضمون .

ولذا نجدها فى لفظ بهيج ومعنى مرتب دقيق ، والكل يعرف أن الحديث النبوى، هو المصدر الثانى من مصادر التشريع ، وهو الذى يبين من القرآن ما أُجمل ، ويشرح ويوضّح مااختصر ، كما أن التاريخ هو ذاكرة البشرية، وسجل أحداثها، وديوان عبرها، والشاهد العدل لها أو عليها ، ولا شك أن الخطيب الداعية فى حاجة إلى توسيع آفاقه، ومعرفة أحوال الأمم وتاريخ الرجال

وتقلبات الأيام بها وبهم ، وفى التاريخ نرى كيف تعمل سنن الله فى المجتمعات، بلامحاباة، ولا جور، وكيف ترقى الأمم وتهبط ؟ وكيف تقوم الدول وتسقط ؟ وكيف تنتصر الدعوات وتنهزم ؟ وكيف تحيا الحضارات وتموت ؟ وكيف ينجح القادة ويفشلون ؟ وكيف تنام الشعوب وتصحو ؟ ثم هو مع ذلك كله أصدق شاهد على مايدعو إليه الدين من قيم ومفاهيم ، وفيه ولا شك عِبر بليغة، وعِظات حيّة، الناس فى حاجة إليها ، والخطيب يصل إلى مبتغاه حين يسردها ويذكرها ، ويستخلص منها العظات والعبر ، وصدق الله القائل عن بنى إسرائيل : " **لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب** "(١) .

وصدق أيضاً حين يقول : " **وكم أهلكنا قبلهم من قرن هم أشد منهم بطشاً فنقبوا فى البلاد هل من محيص . إن فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد** " (٢) .

كما أن الثقافة الإنسانية، وهى التى تشتمل بجانب التاريخ على علوم النفس ، والاجتماع ، والاقتصاد ، والفلسفة ، والأخلاق، لايستغنى عنها الخطيب الداعية لأن موضوعها له علاقة وثيقة بموضوع الدعوة ، فموضوعها هو الإنسان فى الماضى أو الحاضر، فرداً أو مجتمعاً، والإنسان هو المخاطب ولابد للخطيب أن يعرف الكثير عنه، من ناحية نفسيته، ومجتمعه، والظروف الاقتصادية له، وغير ذلك مما يتعلق بهذا الإنسان، وبخاصة أن المسلم مطالب بأن يخاطب الناس على قدر عقولهم، وأن يبين لهم بلسانهم ليفهموا عنه ، ولن يتمكن من ذلك ما لم يكن بينه وبينهم جسر مشترك من الثقافة، يقرّب المسافة ويزيل الهوة، أو الفجوة العقلية والنفسية، بين عالم الدين والمثقفين بالعلوم الحديثة .

أما مرادنا من معرفة الخطيب الداعية بالثقافة الواقعية، فهو معرفته للثقافة المستمدة من واقع الحياة الحاضرة، ومايدور به الفلك فى دنيا الناس

(١) سورة يوسف آية ١١١

(٢) سورة ق ، آية ٣٦-٣٧ ، راجع ثقافة الداعية ص ١٠٢، ١٠٣ بتصرف .

الآن ، فى داخل العالم الإسلامى وفى خارجه ، فلابد أن يعرف عالمه الذى يعيش فيه وما يقوم عليه من نظم ، ومايسوده من مذاهب ، وما يحركه من عوامل، ومايصطرع فيه من قوى ، و يجرى فيه من تيارات ، وما يعانى أهله من متاعب، وبخاصة وطنه الإسلامى الكبير، بآماله وآلامه، وأفراحه ومآسيه، ومصادر قوته وعوامل ضعفه، بالإضافة إلى وطنه الصغير وبيئته المحلية، ومايسودها من أوضاع وتقاليد، وماتقاسيه من صراعات ومشكلات، ومايشغل أهلها من قضايا وأفكار ، فهو لاينجح فى دعوته ولافى إقناع الناس بفكرته، مالم يعرف من يدعوهم، ويعرف كيف يدعوهم، ومالذى يقدمه لهم أو يمنعه عنهم .

ولعلماينقص دعاة اليوم ، هو : ـ عدم معرفتهم لواقع العالم الإسلامى، أو واقع القوى العالمية المعادية للإسلام ، وكذا واقع الأديان المعاصرة، والمذاهب السياسية المعاصرة ، بل الحركات الإسلامية المعاصرة ، وقد لايسمع بعضهم عن واقع التيارات الفكرية المعارضة للإسلام، أو يدرس واقع الفرق المنشقة على الإسلام ، ولعل بعضهم أيضاً لايعرف إلا القليل عن مشكلات الأقليات والأكثريات الإسلامية المضطهدة، فى الفلبين، وفى قبرص ، وفى أرتيريا، وفى الحبشة ، وفى الاتحاد السوفيتى، وفى أوربا الشرقية، وفى ألبانيا، ويوغوسلافيا، والصين، والهند .

إنه فى حاجة إلى معرفة الأوضاع الجغرافية، والاقتصادية، والسياسية، للعالم الإسلامى، مع معرفة أسباب تخلفه، وتفرقه، وعوامل تقدمه ووحدته .

إنه فى حاجة إلى دراسة الأسباب والدوافع وراء كيد القوى العالمية المعادية للإسلام، وإلى معرفة وسائل هذه القوى فى حربنا، وخطورة الحرب الفكرية التى تتمثل فى التبشير ومؤسساته، ومحاولة التنصير فى العالم العربى والإسلامى، وإلى معرفة طرق الغزو الشيوعى من الداخل والخارج ، وهو بالإضافة إلى كل ذلك، وحتى ينجح فى إقناع الجماهير، لابد أن يدرس البيئة التى يعيش فيها، ويعرف أوضاعها وتقاليدها، ويتعمق فى فهم مشكلاتها

ونفسيات أهلها ومايؤثر فيها [1] .

صفات الخطيب الدينى

أولاً : الصفات الخلقية

الدعاة أمناء الله تعالى على شرعه، والمحافظون على دينه القويم القائمون على حدود الله،لذا كان لابد من توفر صفات معينة فى الخطيب الداعية ، حتى يكون قادراً على أداء واجبه على الوجه الأكمل، وأن يكون كلامه مقبولاً فى السامعين، وبعض هذه الصفات صفات خُلقية، وبعضها صفات خلقية، وبعضها فطرى، والبعض الآخر يكتسب ، ومن هذه الصفات على وجه الاختصار :

(١)الصفة الأولى :[**العلم بالقرآن والنظر فيه**]

من صفات الخطيب الداعية **العلم بالقرآن والنظر فيه** قبل كل شىء، إلى كونه هدى وموعظة وعبرة، وما صحّ من أقوال الرسول وسيرته وسيرة الخلفاء الراشدين والسلف الصالح، وبالقدر الكافى من الأحكام وأسرار التشريع، مع الصدق فى نشرها .

(٢)الصفة الثانية :**العمل بعلمه فلا يكذب فعله قوله،ولا يخالف ظاهره باطنه**

ومن صفات الداعية الخطيب **العمل بعلمه،فلا يكذب فعله قوله،ولا يخالف ظاهره باطنه** ، بل لايأمر بالشىء ما لم يكن هو أول عامل به، ولا يَنهى عن الشىء ما لم يكن هو أول تارك له، ليفيد وعظه، ويثمر إرشاده، وإلا فلو كان يأمر بالخير ولا يفعله وينهى عن الشر وهو واقع فيه، يكون هو نفسه عقبة فى سبيل الإصلاح وهيهات أن يُنتفع به، ففاقد الشىء لا يعطيه .

---

(١) من كتاب ثقافة الداعية ، بتصرف ص ١٠٣ - ١٠٤ .

وقد قال الله تعالى توبيخاً لأحبار اليهود : " أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم وأنتم تتلون الكتاب " (١) .

ويقول الشاعر :

لاتنه عن خلق وتأتى مثله	عار عليك إذا فعلت عظيم
أبدأ بنفسك فانهها عن غيّها	فإذا انتهت عنه فأنت حكيم
فهناك يسمع مايقول ويشتفى	بالقول منك وينفع التعليم

وقال مالك بن دينار :

إن العالم إذا لم يعمل بعلمه، ذلت موعظته عن القلوب كما يذل القطر عن الصفا . فإن من حث على التحلى بفضيلة وهو عاطل منها، أو أمر بالتخلى عن نقيصة وهو ملوث بها، لايقابل قوله إلا بالرد، ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال، بل يكون موضع حيرة البسطاء، ومحل سخرية فى نظر العقلاء، فإن من تناول شيئاً وقال للناس لاتتناولوه فإنه سم مهلك، سخر الناس منه واستهزؤا به، واتهموه فى دينه وعلمه وورعه، وزاد حرصهم على مانهوا عنه فيقولون لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما كان يستأثر به (٢).

(٣) الصفة الثالثة : [الحلم وسعة الصدر]

ومن الصفات ***الحلم وسعة الصدر*** حتى يستطيع أن يعالج أمراض النفوس وهو هادىء النفس مطمئن القلب، لايستفزه الغضب، ولايستثيره الحمق فتنفر منه القلوب، وتشمئز منه النفوس وقد دعا الله تعالى النبى (ﷺ) إلى الحلم وسعة الصدر فقال له : " ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا

---

(١) سورة البقرة آية ٤٤ .

(٢) هداية المرشدين إلى طريق الوعظ والخطابة للشيخ على محفوظ ص ٩٠

من حولك » (١) .

(٤) الصفة الرابعة الشجاعة

من الصفات التى يجب أن تتوفر فى الخطيب الداعية ـ **الشجاعة حتى لايهاب أحداً فى الجهر بالحق ولا تأخذه على نصرة الحق لومة لائم** ، وفى حديث عبادة بن الصامت : (**بايعنا رسول الله ﴿ﷺ﴾ على أن نقول بالحق أينما كنا لانخاف فى الله لومة لائم** [٢] .

وعن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما عن النبى ﴿ﷺ﴾ أنه قال : (**إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم ياظالم فقد تودع منهم**) [٣] .

وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه قـــال : (**أوصانى خليلى بخصال من الخير ، أوصانى أن لاأخاف فى الله لومة لائم ، وأوصانى أن أقول الحق ولو كان مراً**)

والحقيقة: أن الداعية لابد أن يكون شجاعاً فى الحق، لايهاب أحداً، ولايخشى فى الله لومة لائم ، إلا أنه فى حاجة إلى لباقة وحسن تصرف، حين يحاول إظهار الحقيقة ومكافحة الباطل، لابالمداهنة والنفاق ، وإنما بالحكمة والموعظة الحسنة، وخاصة إذا عرف أن المجاهرة بكشف كل الحقائق ستكون عاقبتها على نفسه وخيمة، وبالتالى تخسر الدعوة واحداً من رجالها ، فى هذه الحالة يكون امتناعه عن محاربة الباطل، لابسبب خوفه على نفسه، ولكن بسبب خوفه على الدعوة نفسها ، ومن أجل استمرارها ، وليس هذا من قبيل المداهنة،بمعنى السكوت على المنكر لداعى الهوى، ولكنه مداراة لداعى الدين نفسه،خصوصاً إذا كانت النتيجة المتوقعة من إظهار المنكر ومحاربته، غير

---

(١) سورة آل عمران آية ١٥٩

(٢) صحيح البخارى الجزء الثامن ص ١٢٢

(٣) رواه الحاكم . وقال صحيح الإسناد

مضمونة.والمداراة فى هذه الحالة مطلوبة شرعاً للحديث المشهور:

(داروا سفهاءكم) .

والداعية يجب أن يكون ذكياً لبقاً فى دعوته ، ويمكن محاربة الظلم وعدم السكوت عليه، عن طريق التلميح لا التصريح.إذا كان التصريح سيوقعه تحت طائلة العقاب، المانع له من الدعوة ، وخصوصاً إذا كان فى زمن كبتت فيه الحريات، واستعمل الحكام فيه القهر والشدة، دون التزامهم بالقانون ، ولذلك كان الأمر الإلهى من المولى عز وجل :

" ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هى أحسن " (1) .

وهؤلاء الذين لايستطيع الداعية أن يجهر بكل الحقيقة بسببهم، لاخوفا على نفسه،وإنما خوفا على الدعوة نفسها كما قلنا . حيث لن تجد لها دعاة بعد تقتليهم وتشريدهم، إنما هم تماماً كالمشركين ، وقد دعا الله تعالى المسلمين إلى نصحهم وعدم مخاشنتهم فقال : " وقل لعبادى يقولوا التى هى أحسن إن الشيطان ينزغ بينهم إن الشيطان كان للإنسان عدوا مبيناً " (2) .

وقال أيضا : " ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدْوا بغير علم " (3) .

وأحب أن أوضح :أنه لايجب السكوت نهائياً على الباطل وترك المنكر حتى وإن أصاب الداعى بعض الضرر، فقد دعا لقمان ابنه إلى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر والصبر على مايصيبه بسبب الدعوة.فقال له كما يحكى القرآن : " يابنى أقم الصلاة.وأمر بالمعروف.وانه عن المنكر واصبر على ما

---

(1) سورة النحل آية ١٢٥

(2) سورة الاسراء آية ٥٣

(3) سورة الانعام آية ١٠٨

أصابك إن ذلك من عزم الأمور » (1) .

وقد روى سعيد الخدرى عن رسول الله (ص) أنه قال : (لايحقرن أحدكم نفسه ، قالوا : يارسول الله وكيف يحقرن أحدنا نفسه ؟ قال : يرى أن لله عليه مقالا ثم لايقول فيه. فيقول الله عز وجل يوم القيامة ، مامنعك أن تقول فىّ كذا وكذا ؟ فيقول : خشية الناس ، فيقول فإياى كنت أحق أن تخشى .) (رواه ابن ماجة ورجال ثقات) ، والمراد بالخشية فيه ، مجرد رهبتهم مع القوة .

(٥) الصفة الخامسة : ـ العفة

العفة واليأس مما فى أيدى الناس صفة يجب أن تتوفر فى الخطيب الداعية فمن يئس مما فى أيدى الناس استغنى عنهم، فيبقى سيداً محبوباً، جليلا يستمع إليه وينتفع به ، أما إذا كان غير عفيف، وتطلع إلى مافى أيدى الناس، فقد باع دينه بدنياه، وصار فى نظر الناس ممقوتاً محقراً. ثقيل الظل مرذولاً، وقد روى عن سعد بن أبى وقاص أن رجلا قال : يارسول الله أوصنى وأوجز ، فقال : عليك باليأس مما فى أيدى الناس فإنه الغنى، وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر ، وصلّ صلاتك وأنت مودّع ، وإياك ومايُعتذر منه (2).

وقال الحسن البصرى رحمه الله : (لايزال الرجل كريماً على الناس حتى يطمع فى دينارهم، فإذا فعلوا ذلك استخفّوا به وكرهوا حديثه وانفضوا : وقال أعرابى لأهل البصرة من سيدكم؟ قالوا الحسن : قال بم سادكم ؟ قالوا : احتاج الناس إلى علمه، واستغنى هو عن دينارهم ، فقال ما أحسن هذا (3) .

---

(1) سورة لقمان آية ١٧

(2) رواه العسكرى والحاكم وغيرهما وصحح إسناده .

(3) هداية المرشدين الشيخ على محفوظ ص ٩٧

والحقيقة أن الداعية يجب أن يكون كريم النفس محتفظاً بكرامته واحترام الناس له، وإلا سقط من أعينهم ، وما يصنعه بعض المشايخ ممن وُكل إليهم مهمة الإمامة أو الوعظ، من تطفلهم ومطالبة الناس باستضافتهم للطعام ، أوالانقياد معهم بسهولة حين يدعونهم لطعام،إنما هي محطة ومذلة ومحقرة لهم ولإخوانهم ممن سلكوا طريقهم .

(٦) الصفة السادسة : [القناعة]

القناعة في الدنيا وعدم الظهور أمام الناس بالحرص الشديد عليها والانهماك في طلبها ، ولا يعني هذا ترك الدنيا نهائياً وعدم البحث عن رزقه ومن يعولهم، وإنما يجب أن يكون ممن يقبلون عليها بغير شراهة أو نهم قد يدفعه إلى المحظور، أي يجب أن تكون الدنيا في يده لا في قلبه، وقد قال بعض الحكماء : (وجدت أطول الناس غمّا الحسود ، وأهنأهم عيشاً القنوع، وأصبرهم على الأذى الحريص إذا طمع،وأخفضهم عيشاً أرفضهم للدنيا ، وأعظمهم ندامة العالِم المفرّط) [١] .

وعلى قدر قناعة العلماء في الدنيا،تكون مكانتهم في نفوس الناس والتفافهم حولهم،والاستماع لنصائحهم والانقياد لهم .

(٧)الصفة السابعة : [التواضع]

أن يكون متواضعاً، مجانباً للكبر أو العُجب،وأن لايبخل بتعليم ما يُحسن ولا يمتنع من إفادة الناس ما يعلم،فقد روى عن النبي ﴿ ﷺ ﴾ أنه قال : (من عَلِم علماً فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار) .

---

(١) المرجع السابق ص ٩٨ .

(٨)صفات أخرى يجب أن تتوفر فى الداعية

ومن الصفات التى يجب أن تتوفر أيضا فى الداعية : الوقار، والرزانة والإمساك عن فضول الكلام، والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح، ومخالطة أهله، وحضور مجالسه، وضبط لسانه ·

فلا يذكر ماأفحش من الكلام، ويبتعد عن المزاح السخيف، خاصة فى المحافل ومجالس المحتشدين، ويجب أن يقلل من الظهور فى غير حاجة · وأن يبتعد عن الجلوس ما أمكن فى مجالس اللهو ، أو الجلوس فى الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة ، فإن الإكثار من ذلك مُخلّ بكرامته ، وأعظم الناس قدراً من ظهر اسمه وخفى شخصه ·

ومن آداب الداعية أيضاً، التقوى، والأمانة، والورع، باتقاء الشبهات، والبعد عن مواضع الريبة، ومسالك التهمة ،وأن يكون صبوراً، كبير الهمة، عالى النفس، قوى الثقة فى الله، موقناً من حصول الفائدة ، وإن طال الأمل .

ثانياً : الصفات البيانية :

١- يضاف إلى ما سبق من الصفات الخلقية للخطيب، أن يكون قوى البيان فصيح اللسان، وإلا كان النفع بعيداً.وليست قوة البيان وفصاحة اللسان، بمعنى أن يختار من الكلمات العربية أصعبها دون ما حاجة إليها، فالعبرة بالبيان،الإفهام والتفهيم، وقد سألها موسى عليه السلام ربه حين بعثه إلى فرعون لتبيين حجته، والإفصاح عن أدلته، فقال : " واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى " (١) وقال أيضاً : " وأخى هارون هو أفصح منى لسانا فأرسله معى ردءاً يصدقنى " (٢) .

---

(١) سورة طه آية ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) سورة القصص آية ٣٤

وقال : " **ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى** " (١) كل ذلك رغبة منه عليه السلام فى غاية الإفصاح بالحجة والمبالغة فى وضوح الدلالة .

وسنوضح ذلك أكثر فى مكان آخر من هذا الكتاب إن شاء الله .

٢- **والصوت فى الخطابة له التأثير الأكبر**، لأنه المترجم عن مقاصد الخطيب والكاشف عن أغراضه لمصاحبته للألفاظ ، ولأنه الطريق إلى قلب السامع والممثل لصورة المعانى أمامه، فيجب أن يهتم الخطيب بطبقة الصوت واللفظ وهما يتضافران مع هيئة الوجه، وحركات الجسم على بيان مافى النفس، وتصوير مافى الخاطر ، فيراعى من جهة الصوت حسن اللفظ، واعتدال الصوت والتفنن فيه،بمعنى أن يُعطى كل حرف حقه، ويُخرجه من مخارجه الطبيعية، مع اجتناب لهجة العامة المبتذلة ما أمكن ، إلا إذا كان ذكر لفظة أو جملة، سيؤدى إلى توضيح المعنى أكثر ، ويحس أنه سيفيد فى توضيح الصورة والتأثير فى المستمعين، وإن كان التزام العربية الفصحى فى الخطابة، ألذّ على الأسماع، وأشهى للنفوس وأقرب إلى قلب السامعين - مع مراعاة مقتضى الحال والابتعاد عن ذكر الكلمات العربية الغير مطروقة ، والتى لايفهمها معظم السامعين - ويحاول أن يعبّر عما فى نفسه بعبارة بليغة بعيدة عن اللبس والخفاء .

٣- **الخطيب الجيد هو الذى يراعى اعتدال صوته**، وموافقته للأحوال والظروف.فالخطبة يختلف إلقاؤها باختلاف الحضور والمكان .

فالمكان الواسع يحتاج نظراً لكثرة السامعين إلى صوت أدق وأجهر .

أما المكان الضيق، والموجود به عدد قليل من المستمعين، فلا حاجة فيه لارتفاع الصوت المطلوب فى المكان الواسع .

وهو حين يتحدث.يتفنن فى هذا الصوت، حيث يجعله مطابقاً للمعانى التى

---

(٣) سورة الشعراء آية ١٣

يصورها بالألفاظ ويمثلها بالصوت . ويكيّف الصوت بكيفيات خاصة، وانفعالات تتناسب مع المعنى الذى يقصده. فيعطى الاستفهام والتفخيم والتهويل، والندم، والتحزن، وغير ذلك حقها فى النطق . وبذلك يؤثر فى نفس السامع بالرغبة، أو الرهبة، أو الندم، أو الفزع، أو الارتياح، تبعا لما يسير عليه المعنى الذى يتحدث فيه .

ويخفض صوته فى مواضع الخفض واللين، ويشتد فى موضع الشدة، ويتأفف فى موضع التأفف . ويشمخ بأنفه مظهراً للعزة وعلو النفس فى مواضع الفخر والحماسة . أو ذِكر شرف العلم والتقوى . وأن يعيش الموضوع بكيانه وعقله ينفعل معه انفعالا كليا . يظهر أثر الانفعال (المعتدل) فى صوته.وإشاراته.وملامح وجهه، فيكون التأثير فى السامعين أقوى وأشد ، وكم من خطبة يُحسن الخطيب إلقاءها ، فيجد الناس فى سماعها من الارتياح وهزّة الطرب فوق مايجدون عندما يقرؤنها فى صحيفة .أو يستمعون إلى من يسردها عليهم سردا متتابعا متشابها .

والخطبة حين لاتؤدى بطريقة جيدة شأنها شأن الشجرة غير المثمرة.والجسم الذى لاروح فيه .

من الصفات البيانية للخطيب :

٤ ــ النطق الحسن :

الذى قال عنه بعض العلماء : إنه الدعامة للإلقاء الجيد، وأنه إذا أعترى النطق مايفسده ضاع الإلقاء ، وإذا ضاع الإلقاء ضاعت الخطبة، وفقد الخطيب مايسمو إليه من وراء البيان) [١] .

والنطق الجيد يجعل الخطيب يجوّد لفظه، ويخرج الحروف من مخارجها الصحيحة، فلا ينطق بالثاء سيناً،ولا بالذال زايا ، ويجعله يبتعد عن التشدق بالكلام وتمطيط الألفاظ، لأن التشادق يُوقع المتكلم فى نقيض مايرغبه ، إذ ينطق بالحرف من غير مخرجه ، ولعلنا نلاحظ أن بعض الخطباء يدفعهم التشدق إلى أن ينطقوا الجيم شينا .

والنطق الجيد يدفع الخطيب لتصحيح الكلام الذى ينطق به، ويلاحظه فى مفرداته وعباراته، فالحركة الواحدة تغيّر اللفظ وتنقله من معنى إلى معنى آخر.

كما أن النطق الجيد، يجعل الخطيب يُتقن إلقاء ألفاظه بشكل يجعل المعانى مصورة من خلال الألفاظ ، وذلك يبرز الاستفهام بطريقته ، والتقرير يجسّمه والسرور يبرزه ، والحزن يخيفه . وهكذا .

كما أن النطق الجيد أيضاً، يجعل الخطيب يتمهل فى إلقاء خطبته، إذ أن النطق السريع المتعجل يشوّه اللفظ – ويضيّع المعنى – ويجعل المستمع لايستطيع متابعة سرعة الخطيب .

وحتى يكون النطق جيداً، فإن على الخطيب أن يضغط على بعض المقاطع دون بعض، بحيث يختار الكلمات الهامة الدالة على الموضوع، أو المؤيدة للعناصر، أو الموجزة للخطبة كلها – ولايصح أن يكون الخطيب عشوائياً .

---

(١) راجع قواعد الخطابة وفقه العيدين للدكتور أحمد غلوش ص ١٨٢ .

هذا إلى ضرورة تغيير الصوت بالارتفاع والانخفاض بما يوضح المعنى ويؤثر بالصوت وبالمعنى معاً، وبما يتناسب مع سعة المكان أو ضيقه، ومع كثرة المستمعين أو قلتهم ، ويقولون عن تغيير سرعة الصوت: إنها من الأمور السارة التى تمكن الخطيب من الوصول إلى هدفه .

يقول (ديل كارنيجى) : (إن هذه كانت إحدى الوسائل المحببة عند (لنكولن)[1] حين يريد الوصول بفكرته إلى الهدف ، وكان ينطق بعدة كلمات بسرعة كبيرة حتى يصل إلى الكلمة أو العبارة التى يريد تأكيدها ، ثم يبطئ من صوته عندها، ويضغط عليها ، ولا يلبث أن يندفع مسرعاً فى الحديث حتى يصل إلى نهاية العبارة كالبرق الخاطف ، وكان يخصص أطول وقت مستطاع للكلمة أو الكلمتين اللتين يريد تأكيدهما) [2] .

ولا يخفى أن الإلقاء الحسن أو النطق الجيد يجعل الخطيب يركّز على أقسام خطبته الأساسية، ويوقف المستمع على هذا التركيز ويفعل ذلك بالمؤثرات الصوتية فى الإلقاء ، التى تأتى عن طريق التوقف عن الإلقاء قبل كل فكرة وبعدها ، ولو للحظات قليلة ، لأن المستمع سيجد نفسه مضطراً للبحث عن سر هذا التوقف، وخلال بحثه سيجد الفكرة المقصودة فيفهمها بإتقان[3] .

٥- ذكر المعانى المقبولة والمفيدة :

لاشك أن المستمع يأتى للخطيب ليستفيد منه، وليخرج فى النهاية بمعنى مقبول يبقى فى ذهنه ويفيده فى حياته - وعلم الخطابة كما عرفنا يهدف فى النهاية، إلى إمداد المستمع بشىء يؤثر فيه ويفيده ، ويرسم له منهجاً صالحاً للقضايا التى تساعده فى حياته .

---

(١) هو أحد رؤساء الولايات المتحدة الأمريكية السابقين .

(٢) التأثير فى الجماهير ص ١٠

(٣) من كتاب قواعد الخطابة وخطبة العيدين بتصرف شديد ص ١٨٠ إلى ص ١٨٤ .

وهذا هو الذى جعل ابن رشد يعرّف الخطابة (بأنها قوة تتكلف الإقناع الممكن فى كل واحد من الأشياء المفردة) (١) .

وضرورة الاقتناع بما يلقى على الناس من كلام هو الذى جعل عالماً آخر يعرفها بأنها (خطاب يلقى من فرد على جماعة بقصد التأثير فى نفوسهم وإقناعهم بأمر من الأمور) (٢) .

وجعل آخر يعرفها بأنها : (فن مشافهة الجمهور وإقناعه واستمالته)(٣) . فالخطبة لايكفى فيها أبداً أن تكون ذات لفظ جميل، وهى خالية من المعانى الدقيقة والآراء الواضحة، والأدلة الصحيحة المقنعة .

وعلى الخطيب أن يراعى أنه يخاطب عقول المستمعين، وعليه حينئذ أن يُجوّد كلمته، وأن ينظّم عناصرها، وأن يجعلها فى مستوى أفهام الناس، بالإضافة إلى ضرورة استعمال الصور البيانية المتعددة .

وعلى الخطيب أن يُحسن الاستدلال بآيات القرآن،ويتحرى ذلك، ويحرص عليه ويحكمه، حتى يتمكن من تقرير وإثبات مايريده من أحكام، وتعاليم، وأفكار .

وحين يحسن الاستدلال بالنص القرآنى ووضعه فى موضعه الصحيح ، يزيل كل شبهة،ويخرس كل معارض ، لأنه لادليل بعد القرآن ، ولا حديث بعد كلام الله ، " **ومن أصدق من الله حديثاً** " (٤) ، " **ومن أصدق من الله قيلاً** " (٥) .

ولذا وجب على الخطيب أن يستدل بالمتفق عليه ، لا بالمحتمل والمختلف

(١) تلخيص الخطابة لابن رشد ص ١٥
(٢) البلاغة والأدب للدكتور ابراهيم الصباغ ٢/٩١
(٣) فن الخطابة للدكتور أحمد الحوفى ص ٩١
(٤) سورة النساء آية ٨٧
(٥) سورة النساء آية ١٢٢

فيه ، لأن الدليل الذي يتطرق إليه الاحتمال يسقط الاستدلال به ، كأن يستدل على شمول القرآن بقوله تعالى : " مافرطنا في الكتاب من شيء " (1) ، لأن الآية تحتمل أكثر من معنى .

كما يجب عليه أن يتجنب الاستدلال بما ليس بدليل ، كما يفعل بعض الناس، حين يستدلون على أن من ثمار تقوى الله.أن يعلّمه ما لم يكن يعلم وذلك أخذاً من قوله سبحانه في سورة البقرة : " واتقوا الله ويعلمكم الله " (2) .

ولو بحثنا : لعرفنا أن هذه الآية لا تدل على هذه الدعوى لأنها ليست أمراً وجوابا.وكان يصح ذلك لو كان لفظها (واتقوا الله يعلمكم الله) .

ولذا كان على الخطيب إذا أراد لكلامه القبول والنجاح ، أن يحذر من الانحراف والتحريف.وسوء التأويل لآيات القرآن الكريم، وحملها على معان تخرجها عما أراد الله بها، وهذا نوع من التحريف الذي ذم الله عليه أهل الكتاب، فقد حرفوا كتبهم لفظياً بالزيادة والنقص، ومعنوياً بسوء التأويل .

وإن كان القرآن الكريم لا سبيل إلى تحريف لفظه، لأن الله حفظه في الصدور والمصاحف، وتعهده بحفظه ، إلا أنه قد يدخل في تفسيره سوء التأويل وهو (التحريف المعنوي) الذي ظهر في عصور سابقة، وزاد وللأسف في هذا العصر ، حيث أراد بعض العلماء وللأسف إخضاع النصوص للواقع الزمني.فأولوا الآيات تأويلا بعيداً عن الظاهر، لتبرير الواقع بإعطائه سنداً من الشرع ، كما رأينا بعض من يسوّغ نظام الفائدة في البنوك، ومن يبرر التأميم والمصادرة للملكيات المشروعة، وذلك إرضاء للحكام وتقرباً إليهم طمعاً في منصب دنيوي .

وفي سبيل تأكيد آرائهم المنحرفة، جزءوا النصوص وفكّكوها، ولم يربطوا

---

(1) سورة الأنعام آية ٣٨ .

(2) سورة البقرة آية ٢٨٢ .

بعضها ببعض كما يتطلب البحث العلمى السليم ، وفى سبيل ذلك أيضاً اتبعوا المتشابهات، وتركوا المحكمات، مع أن ذلك أصل من أصول الزيغ والضلال .

وقد يكون من أسباب التأويل المنحرف أيضاً، تبنى مذهب،أو فكرة،أو اتجاه سابق، ثم تتخذ بعد ذلك دليلا عليه .

وقد صنع ذلك وللأسف كثيرون من علماء الكلام،والفلاسفة،والفرق المختلفة، والمقلدين فى الفقه ، حيث جعلوا مذاهبهم هى الأصل ، ثم شدوا النصوص شداً لتأييد المذهب،حتى وصل الأمر ببعضهم أن لجأوا إلى القول بالنسخ، حين لم يجدوا مجالا للتأويل ، مع أن النسخ لايثبت بالاحتمال .

وقد رأينا ابن سينا وأمثاله من كبار الفلاسفة فى العصور الإسلامية ، يعتقدون صحة ماذهب إليه أرسطو، وغيره من فلاسفة اليونان فى الإلهيات والطبيعيات، وغيرها ، فلما اصطدم ذلك بآيات القرآن الوفيرة، طفقوا يؤولونها تأويلات ترفضها اللغة ، كما يرفضها الدين ، حتى كفَّرهم الغزالى ومن بعده فى ثلاث مسائل معروفة، أنكروا فيها ماهو معلوم من الدين بالضرورة [1] .

لهذا فإن على الخطيب الداعية ، أن يحذِّر من الإسرائيليات التى كدرت صفاء التفسير ، كما عليه أن يحذر من الروايات الموضوعة والضعيفة، التى حُشى بها كثير من كتب التفسير .

ويقع كثير من خطبائنا،وبخاصة الشبان منهم، فى أخطاء كبيرة حين يتصورون أن كل مايجدونه فى كتب التفسير، سواء كان مرفوعا إلى النبى ﴿ﷺ﴾ أو موقوفاً على بعض الصحابة، مثل علىّ، وابن عباس، وغيرهما ، وما كان منسوباً إلى بعض التابعين، مثل مجاهد، وعكرمة، والحسن، وابن جبير، وغيرهم، أو منسوباً إلى غيرهم من أهل العلم ، يُخطئون حين يظنون أن

---

(١) راجع كتاب ثقافة الداعية . د. يوسف القرضاوى ص ٣١ إلى ٣٥ .

ذلك صحيحاً مع أن معظمها روايات ضعيفة وموضوعة، حُشيت بها أكثر كتب التفسير ، ولابد لهؤلاء من أن يعرفوا أن ابن أبى حاتم.وابن مردويه ، وابن جرير الطبرى. يجمعون فى تفسيرهم بين الصحيح والحسن.والضعيف والمنكر، بل الموضوع أحياناً. من الأحاديث المرفوعة، والروايات المقطوعة والموقوفة، وليس كل ماينسب إلى ابن عباس صحيحاً، لأن الطرق إليه تختلف قوة وضعفاً وقبولا ورداً .

ولذا فإن على الخطيب الداعية أن يتحرى مايقوله، وأن يتأكد من صحة سنده، وعدم شك المستمعين فى صحة مايقول، وليس كل ماكُتب يقال . ولا كل ماعُرف ينشر .

ثالثاً : الصفات العامة:

ومن الصفات العامة التى يجب أن تتوفر فى الخطيب الدينى ما يأتى : ـ

١ - **أن يكون مرناً لين العريكة** يمتزج بمن يخطبهم ويقرّب بينه وبينهم، حتى يسيطر عليهم كربان السفينة يلين الريح ويسايرها بمركبه فلا يتحطم دون الشاطىء .

٢- ومن صفات الخطيب الجيد أيضاً :**أن يكون حاضر الذهن سريع البديهة** إذا أحس بملل المستمعين أو بعضهم، عرف كيف يغيّر الحديث وينتقل إلى فكرة جديدة، ويخاطبهم بأسلوب شائق، يدفع عنهم هذا الملل ويعيد الانتباه .

وإذا ماقوطع أو تعرّض لسؤال أو معارضة، عرف كيف يردّ بجواب مقنع مسكت يفحم المعارض، ويكسبه عطف السامعين . ويجب أن يكون ساكن الجوارح . لايضيق صدره إذا هوجم، وإذا استغضبه أحد من المستمعين ، لا يستولى عليه الغضب، فالمرء إذا لم يكن سيداً على أهواء نفسه، لايستطيع أن يتحكم فى أهواء غيره .

٣- **والخطيب الجيد صادق اللهجة ينبض كلامه وأسلوبه بعاطفة صادقة** تشعر السامعين بأنه يحدثهم عن اقتناع عميق بما يقول . وإلا ففاقد الشىء لايعطيه .

والخطيب الذى يقف أمام الناس يحدثهم بلهجة فاترة، وأسلوب ينبىء عن تردده.وصوته خال من الحماسة والتفنن، لن يستطيع أن يُقنع الناس بشىء.

هذا مع معرفته بنفسية السامعين، وإدراكه لأهوائهم وميولهم حتى يستطيع أن يدخل إلى قلوبهم وبذلك يستطيع أن يلعب بأوتار القلوب .

٤- **ومنها أيضاً:العلم بحال المخاطبين** ، وأن يخاطبهم على قدر عقولهم : فلا يلقى عليهم ما لاتقبله عقولهم ولا تسعه مداركهم، لأن ذلك ينفّرهم منه ويحرمهم الاستفادة.ويوقعهم فى الحيرة.وذلك إفساد لا إصلاح .

وقد روى ابن عمر رضى الله عنهما عن رسول الله ﴿ﷺ﴾ (**أُمرنا معاشر الأنبياء أن نُعلّم الناس على قدر عقولهم**) **وقد أُثر عن عيسى عليه السلام** (**لا تضعوا الحكمة فى غير أهلها فتظلموها، ولا تمنعوها أهلها فتظلموهم وكونوا كالطبيب الرفيق يضع الدواء فى موضع الداء** [1] .

وفى لفظ آخر : **من وضع الحكمة فى غير أهلها فقد جهل ، ومن منعها أهلها فقد ظلم ، إن للحكمة حقا، وإن لها أهلاً فأعط كل ذى حق حقه** [2] .

٥ ــ هذا مع ضرورة إلمام الخطيب بالكثير من العلوم الإنسانية كالتاريخ والجغرافيا ، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الاخلاق، ومعرفة الملل والنحل ومذاهب الأمم فيها ، والعلم بلغات الأمم التى يراد دعوتها.

وحينذاك يستطيع بما لديه من علوم أن يكيّف خطبته وأن يقنع العامة والخاصة بما يريد إقناعهم به، وأن يدلّل على صحة مايقول بما يراه مناسباً من هذه العلوم، وألا يكون قد أغلق على نفسه باباً من أبواب الإقناع، وظل حبيس موضوعات معينة يكررها فيكرر نفسه، فيمله السامع، ويهرب منه المستمعون .

هذا مع مراعاة الدخول إليهم من مداخل التشويق والإثارة، وتحريك نفوسهم ومشاعرهم ووجدانهم .

وبهذه العلوم التى قلنا إن الخطيب لابد أن يلمّ بها، يستطيع أن يملك زمام الجميع ، فمسالك القول فى الخطابة متشعبة كمسالك الكتابة ، وكما يكون الكاتب ملماً بكل العلوم، كذلك يكون الخطيب، وإذا فلابد أن يكون واسع الاطلاع خاصة وأن الخطابة تتناول جميع الشؤون الدينية والدنيوية ، ولهذا لايسمى من يخطب خطبة محفوظة، أو يجيد الخطبة فى شىء دون غيره

---

(١) كتاب الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٨.

(٢) نفس المصدر السابق .

خطيباً ، فلو برع بعض الخطباء فى نوع من أنواع الخطابة كالسياسية والقضائية، فإن هؤلاء لايُسمون خطباء على الإطلاق، إلا إذا كانوا يحسنون سوى مابرعوا فيه.وإن كان دونه ٠

٦- ولابد أن يظهر الخطيب بمظهر لائق به وبمركزه.لأن مظهر الخطيب من الأشياء التى يجب الاعتناء به، خصوصاً فى هذا الزمان الذى يُحترم فيه المرء بمجرد حسن هيئته ٠

٧ ـ حسن التصرف

يتوقف نجاح الدعوة فى كثير من الأحيان على شخصية الداعية وحسن تصرفه، ولذا قلنا إن هذه الوظيفة لايصلح لها كل إنسان ، لأنها تتطلب مواهب وصفات خاصة لاتتوفر لكل الناس ، فتوجيه الجماهير، والسيطرة على أهوائها ،عمل عسير لايقوى عليه كل إنسان، ومهنة الداعية تستلزم الاتصال بالناس ومواجهة الجماهير والتحدث إليها والتأثير فيها ، فهى نوع من القيادة التى تحتاج إلى كفاءة خاصة ، ولذلك قلنا: إن من أهم الشروط التى يجب توافرها لدى الخطيب ، الموهبة الفطرية ، والاستعداد الشخصى ، لمواجهة الجمهور والتحدث إليه ، مع باقى ما عرضناه من شروط أساسية وفرعية ٠

وبرغم تنوع وسائل التوعية ، واستخدام المخترعات الحديثة من إذاعة وتليفزيون ، وسينما ، ومسرح ، وتقليل هذه المخترعات للأهمية الكبرى التى كانت تعقد على الداعية العبقرى ، القادر على التأثير فى الجماهير ، إلا أنه سيبقى لشخص الداعية الأهمية الأولى كلما احتاج الأمر إلى الاتصال المباشر بالجمهور ٠

والخطيب ليكون مقنعاً ومؤثراً.لابد أن يكون لبقاً حين يعرض على الجمهور مايريد إقناعهم به ، ومعروف.بل من الأصول المقررة فى فن الدعاية أن الدعاية الناجحة هى التى لاتسفر عن وجهها ، وإنما تصل إلى الناس وتؤثر فيهم

بطريق غير مباشر ، خصوصاً إذا كان الموضوع مما لم يألفه الجمهور قبل ذلك .

والإنسان بطبعه يكره النصح والوعظ لأنه ينهاه عادة عن شيء يحبه ويفعله ، أو يدعوه إلى فعل شيء لايفعله ولايميل إليه ، والنصح يشعر الإنسان بنقصه ، وامتياز الناصح الذى يحاول إرشاده وتوجيهه .

ولما كان الإنسان يكره أن يعترف بنقصه ، فإنه يتولد فى نفسه حصانة خفية ، يقيمها عقله الباطن ضد النصح والإرشاد ، ويحاول ما استطاع أن يقرّب بينه وبينهم ، ليبدد هذه الحصانة النفسية ، ولذا كان من المستحسن أن يتجنب النصح المباشر فى جميع الأحوال .

وإذا كان يريد أن يقنع المستمعين بوجهة نظره ، ويبدد من نفوسهم وجهة نظر أخرى ألفوها ، كان عليه أن يستدرجهم إلى غايته بطريق غير مباشر ، وإلا اصطدمت أفكاره بجُدر من الرفض ، وصكّوا آذانهم عن الاستماع إليه ، بل قد يقفوا فى طريق هذه الدعوة التى يدعو لها ، وهذا النصح الذى ينصحهم به .

والمفروض فى الخطيب أنه طبيب معالج ، فيجب أن يتصرف مع مرضاه بلباقة وحسن تصرف ، وإلا هرب المرضى من الخطيب ودوائه .

ويجب أن يتجنب الخطيب كما قلنا : الاصطدام بمشاعر الجماهير ومعتقداتها الراسخة ، وإلا يكون (حين يقع فى هذا الخطأ) قد حكم على نفسه بالفشل المحقق ، لأنه يثير ضده الجماهير التى يريد إقناعها .

كيف يعالج الخطيب مشاكل مجتمعه :

لقد عالج ابراهيم عليه السلام هذه القضية علاجاً رائعاً ، حين وقف ابراهيم عليه السلام بين قومه موقف الناصح لهم ، الراغب فى هدايتهم .

كان قومه فريقين ، فريق منهم كان يعبد الأوثان من دون الله ، والفريق الآخر كان يعبد الكواكب ، وهؤلاء وأولئك لهم وجهة نظر فى هذه العبادة .

فعبادة الأوثان صنعوها من المواد التى اشتهرت بها الكواكب لتقربهم هذه الأوثان إلى الكواكب ، كى تقربهم الكواكب من الروحانيات التى تسكنها ، لتقربهم هذه الروحانيات إلى الله تبارك وتعالى . (هكذا كانوا يعتقدون)

أما عبدة الهياكل (الكواكب) فقد تقربوا إليها أيضاً لتقربهم إلى الروحانيات ، حتى تقربهم هذه الروحانيات إلى الله ، وقالوا: " **مانعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** " [1].

وقد كانوا جميعاً يتقربون إلى الكواكب ، حتى وجد بعضهم أنه من الأجدر بهم أن تكون آلهتهم قريبة منهم ، فصنعوا هذه الأوثان ، وتقربوا إليها لأن الكواكب بعيدة عنهم تظهر وتختفى .

وكان على إبراهيم عليه السلام أن يقنع هؤلاء وهؤلاء ، بخطأ هذه العبادة. فماذا صنع ؟ .

اتجه إلى عبدة الأصنام محاولاً إقناعهم بخطأ هذه العبادات : مستدلا على صحة مايقول بالأدلة العقلية المقنعة ، ولما لم تُجْد هذه النصائح ، ولم تغيّر فيهم هذه الإرشادات ، اتجه إلى الأصنام نفسها فكسرها ؛ ليحاول أن يثبت لهم عمليا ، أن هذه الأصنام ماهى إلا مواد صماء لاتنفع ولاتضر .

ثم مالبث ابراهيم أن اتجه إلى عبدة الكواكب ، محاولا إقناعهم أيضاً بترك هذه المعبودات وأن يثبت لهم بالدليل خطأ هذه العبادة من غير أن يصدمهم أولا فيما اعتقدوه ، حتى لايثيرهم ضده بادىء ذى بدء ، وحتى يشككهم فى صحة مايعتقدونه، لينثنى إلى نقضه وإقناعهم بوجهة نظره ، فإذا به يجاريهم ، لا إيمانا منه بما يعتقدونه ، ولكن ليشكك كما قلنا فى صحة هذا الاعتقاد ، وكما يحكى القرآن : " **فلما رأى كوكباً قال هذا ربى،فلما أفل قال لا أحب الآفلين ، فلما رأى القمر بازغاً قال هذا ربى فلما أفل قال**

---

(١) سورة الزمر آية ٣.

لئن لم يهدنى ربى لأكونن من القوم الضالين ، فلما رأي الشمس بازغة قال هذا ربى هذا أكبر،فلما أفلت قال ياقوم أنى برىء مما تشركون " إنى وجهت وجهى للذى فطر السموات والأرض حنيفاً وما أنا من المشركين " [1] .

وهكذا استدرجهم ابراهيم عليه السلام وبدأ فى تشكيكهم فيما يعتقدونه ، حتى يمكنه بعد ذلك إقناعهم بغيره .

والدعاة يقابلون فى حياتهم مصاعب ومتاعب حين يُخلصون لدعوتهم ، إنهم كما قلنا: إما ناهون عن عادة درج الناس عليها وألفوها وأحبوها، أو داعون إلى فعل شىء لايفعلونه ولايميلون إليه (وقد يُجَرّ الداعى إليه بسبب إخلاصه للدعوة ، إلى الإهانة من بعض المستمعين ، ممن يخالفون مايدعو إليه ويريدون الاستمرار على ماهم فيه ، بل قد يتعرض للسجن أحياناً ، حين يجهر بكلمة تغضب حاكم ظالم .

خصوصاً وأن بعض الدعاة لايحبون التورية ، ولايرضون بغير الجهر بكلمة الحق بديلا ، ويندفعون حين يعظون ، من غير أن يفكروا فى العواقب.

ولقد دل الواقع العملى على أنه غالباً ما يتعرض دعاة الحق إلى الإيذاء ، وليس عجيباً أن ينصح لقمان الحكيم ابنه بالصبر على ما يصيبه من أذى ، من جراء أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر ، ولقد حكى القرآن ذلك حين قال : **" يابُنَىّ أقم الصلاة وأمر بالمعروف وانْهَ عن المنكر،واصبر على ما أصابك إن ذلك من عزم الأمور "** [2] .

وإن كان من الأصوب ، من أجل الدعوة والداعية على السواء،أن يكتفى بالتلميح بدلا من التصريح ، خصوصاً حين يؤدى التصريح إلى حرمان الداعى

(١) سورة الأنعام ٧٧ - ٧٩.

(٢) سورة لقمان آية ١٧.

من الكلام، أو إيذائه بما قد يودي بحياته ، وعند التأكد من ذلك، خاصة فى وقت غياب القانون فى عصور كبت الحريات، وذلك حتى يعود القانون ويصبح لكلمة الحق صداها وتأثيرها فى من تُوجه إليهم .

مراعاة عدم مصادمة الجماهير فى معتقداتهم [1]

حدث حادث طريف فى الثلاثينات فى قرية من قرى المنوفية ، وقت أن كان الجهل يخيم على كثير من المجتمعات الإسلامية .

فقد كان فى القرية قبر متواضع لرجل يروْن أنه ولى من أولياء الله الصالحين ، يكاد يكون مجهول الاسم والأصل ، لايزوره أحد ، ولايقام له مولد كل عام كعادة أهل هذه البلاد ، وكل مظاهر ولاية الشيخ المجهول قبة صغيرة تعلو الضريح ، الذى يقبع عند طرف المزارع بمدخل القرية ، وعاد إلى القرية ذات يوم شاب من أبنائها ، كان قد ذهب إلى العاصمة لتلقى العلم بها فلم يفلح ، وترك الدراسة بعد أعوام قليلة ، يحاول كسب رزقه فى العاصمة من أعمال مختلفة لايعلم بها أحد على وجه التحقيق .

فلما عاد إلى قريته، كان فى نظر أهل القرية بما حصّل من علم قليل، عالما فذا بين أهلها البسطاء الطيبين ، ولم يضيعْ صاحبنا وقتاً طويلاً فى استغلال سذاجة أهل القرية ، وتفتق ذهنه عن خطة شيطانية قام بتنفيذها على الفور .

لقد وجد القرية بغير ولى من أولياء الله ، يقام له مولد كل عام ، ويزوره الناس للتبرك، ويسألونه الشفاعة وقضاء المصالح.ويقدمون بين يديه النذور.

ورأى أهلَ القرية يقصدون بعض البلاد المحيطة بقريتهم لزيارة الأولياء،

(١) نقلت هذه القصة من كتاب التوعية الاجتماعية بقلم أنور أحمد ص ٣٧ (مطبوعات وزارة الشئون الاجتماعية) .

ولكل بلد ولى تُعرف به وتفاخر غيرها من البلدان ، وفوجىء أهل القرية ذات يوم بعد صلاة الجمعة بصاحبنا يعتلى منبر الجامع ، ويخطب فيهم بصوت مؤثر، ويزف إليهم بشرى عظيمة ، لقد زعم أن ولىّ الله الشيخ (فلان) صاحب الضريح القائم عند طرف مساكن القرية ، جاءه أثناء نومه، وأخبره أنه عاتب على أهل القرية، لأنهم يجهلون قدره، ولاينتفعون ببركته، ولايحتفلون بمولده ، وأنه قد اختاره ليبلّغ إلى الناس رسالته وليكون خادمه ، وقدم إليه منديلاً كبيراً أخضر ليجعله شالا يلف به عمامته ، وقال صاحبنا: إنه ظن أن الأمر ليس سوى حلم ، ولكنه قام من نومه ، فوجد إلى جواره شالا أخضر وأخرج الشال، ولوح به للناس، ثم لفه حول رأسه وهو يقول: إنه يشهدهم على أنه منذ اليوم خادم ولى الله ، يُصلح ضريحه، ويمدّه للزائرين، ويقيم مولده وينفذ مشيئته ، وأقبل أهل القرية على صاحبنا يهنئون ويبايعون، ويقبّلون المنديل الأخضر المعطر فى خشوع ورهبة ، وشرعوا يصلحون الضريح، وأقاموا إلى جواره زاوية ليقيم بها الخادم ويستقبل الناس ، وبدأت كرامات ولى الله تظهر للناس بتدبير الخادم الذكى، الذى وضع صندوقا للنذور، وانهالت عليه التبرعات والهدايا والألطاف .

وتحول الخادم إلى دجال كبير، يكتب الأحجبة والتعاويذ ويبيعها للناس، وأقبل عليه طلاب الشفاء بدلا من الذهاب إلى الطبيب .

وكان طبيب المركز من أهل القرية المجاورة، وسمع بما يجرى فضايقه الأمر، وجاء فى زيارة إلى القرية ، وقابل خادم الولى المزعوم ، وحذره من الاسترسال فى أعماله، وهدده بسوء المصير إذا اقحم نفسه أو وليه فى شئون الطب والعلاج ، وثارت بينهما مناقشة عاصفة ، فأخبره الطبيب بأنه سيصلى الجمعة فى مسجد القرية ثم يتحدث إلى الناس، وينصح لهم عن دجله وألاعيبه .

وفى صبيحة يوم الجمعة، شاهد أهل القرية خادم الضريح، وقد جلس على قارعة الطريق عارى الرأس، وهو يبكى ويحثو على رأسه التراب، ويرفع

صوته بالدعاء والتوسل والابتهال، وسألوه عن الخبر، فقال سوف يرحل الشيخ عن القرية كلها، لأنها تسمح لرجل غريب زنديق، أن يعتدى على كرامته ويهينه فى بيت الله، ومضى الخادم الذكى يقول: إنه بكى وتوسل إلى الشيخ ألا يهجر القرية وأهلها، ويؤكد أنهم لايمكن أن يسمعوا بشىء من ذلك .

وجاء الطبيب يصلى الجمعة ، فلما انقضت الصلاة، وقف يريد أن يخطب فى الناس، وهو يظن أن الأمر لايحتاج إلى شىء من الفصاحة والمنطق ، فلا يلبث أن يُقنع الناس ، ولكنه لم يكد يبدأ حديثه مهاجماً خادم الضريح ، قائلا: إنّ ولىّ الله نفسه لايملك لهم نفعاً ولاضراً، وأن المسألة كلها عملية نصب واحتيال، حتى أطبق عليه الناس، وانهالوا عليه ضرباً بالأحذية والمراكيب وكادوا يفتكون به وهم يصيحون به فى ذعر: (العفو والسماح ياولى الله) .

وأدركه العمدة والفقراء فخلّصوه من أيديهم وأخرجوه من القرية .

إن الطبيب الطيب القلب لم يدرك أنه لايكفى أن يكون الحق فى جانبه، وأنه لاينبغى لمن يريد أن يخاطب الجماهير ويؤثر فيها، أن يصدم شعورها أو يهاجم مقدساتها .

مراعاة الاعتبارات العملية فى موضوع الخطبة :

ومن الأمور الضرورية للخطيب أن يراعى فى موضوعه الاعتبارات العملية، فهو حين يدعو الناس للتخلى عن أمر مرذول، مدللا على صحة ما يقول باعتبارات معينة، صحية أو اجتماعية أو دينية ، لايكتفى أن يدعو إلى التخلى عن هذا الأمر المرذول، بل يجب عليه أن يكون مستعداً لتقديم الحل البديل عن الأمر الذى يدعوهم للتخلى عنه .

لنفرض مثلا أنه يتحدث عن انحرافات الشباب ، فلا يكفى أن يجعل كل خطبته ذكراً لصور من هذا الانحراف ، وأسباب هذا الانحراف، ومن أخطار .

المستمعين وبقدر كاف حلا أو حلولا لهذه المشكلة ، وإلا فلن تجدْ لخطبته أى أثر أو تأثير فى الناس، ويكون هذا الذى يصنعه أمراً يدعو إلى السخرية والضحك، فالمفروض فيه أنه يدعو إلى الإصلاح العام، ويعالج مشاكل المجتمع، فيقدم العلاج للمريض، والمريض ليس فى حاجة لأن يقال له أنت مريض وإلا فسيقال (مافائدة الدين إذا لم يعالج مشاكل الحياة) ؟ .

وإذا كان الخطيب يعظ الناس ويدعوهم مثلا إلى الإسلام. فإن عليه أن يتخير من مبادىء الإسلام مايكون أحب لقلوب المستمعين. وأن يعتصم بالمنطق والدليل على صحة ما يقول، مع ابتعاده عن الشروح الفلسفية وعن مواضع الخلاف. ويجعل أكثر استدلالاته بالقرآن الكريم، والسنة النبوية المطهرة .

وإذا كان موضوع العظة أو الخطبة فى الإصلاح العام للمجتمع، فإن على الخطيب أو الداعية أن يتخير عيبا واحدا، ويجعله موضوع خطبته، ويجمع له الأدلة المفيدة، فلا يتحدث فى أكثر من موضوع، حتى لايشتت أفكار المستمعين، مع ضرورة ملاحظة محتويات الخطبة وأقسامها، ليوفى كل قسم حقه .

التكرار والإلحاح على الفكرة :

المفروض أن علاج المشاكل الذى هو وظيفة الداعية الخطيب. ليس بالأمر الهين السهل ، وان تُحل المشاكل بمجرد سماع خطبة أو خطبتين ، بل إن بعض المشاكل تظل موجودة، برغم المحاولات المتكررة لمعالجتها، وبعضها الآخر يطول علاجه ، لذلك كان من الضرورى على هذا المعالج، أن يحاول التكرار والإلحاح على الفكرة التى يدعو لها، أو يعالجها، فهى فى حاجة إلى دعاية، والدعاية فن، وفى حاجة أيضاً إلى تكرار ، ولذلك كان هتلر يقول : (إن فن الدعاية هو التأثير فى خيال كتلة الجماهير التى تسيطر عليها الغريزة ، حيث

تجد - بعد أن تتخذ شكلا سيكولوجيا ملائما - الطريق إلى هدفها، ثم يقول : إن الدعاية تستطيع فقط أن تؤثر فى النفوس عن طريق التتابع والاستمرار والتنظيم ، يجب علينا أن نعيد ونكرر نفس الشىء من زوايا مختلفة)(١) .

وهذا القول ينطبق على كل أنواع الدعاية بما فى ذلك الخطبة الدينية التى هى من الناحية العملية (دعاية فى الميدان الاجتماعى) .

وإذا كنا نريد اقناع الناس بفكرة معينة ، ونحاول حملهم على سلوك معين، فلا يخطر ببالنا أن ذلك يمكن أن يتحقق بخطبة، أو مقال، أو نشرة مكتوبة ، إن الأمر يحتاج إلى التكرار والإعادة، وإلحاح على الفكرة حتى يقتنع بها الناس .

إن هذا التكرار يساعد على استمرار التأثير المطلوب وتعميقه ، ويمنع الاستجابة للتأثيرات المضادة ، على أنه يجب التنويع فى الأسلوب والوسيلة عند التكرار والإعادة حتى لا يمل المستمع .

أما من ناحية الأسلوب، فيجب أن يتناول الموضوع كل مرة من زاوية مختلفة، ويعالجه بطريقة تخالف المرات السابقة ، ويمكن تقسيم نقط الموضوع وتوزيعها على مرات التوعية، بحيث تغطى الموضوع فى النهاية من جميع النواحى دون أن تكرر التوعية نفسها، وإن كان هدفها واحد فى النهاية .

(ويقول كيرت لندن) إن سر الدعاية الفعالة يكمن - لا فى إذاعة بيانات تتناول آلاف الأشياء ، ولكن فى التركيز على بضعة حقائق فقط وتوجيه آذان الناس وأبصارهم إليها مراراً أو تكراراً (٢) .

وقد يعتمد السياسيون فى الدعاية على أسلوب الإثارة العاطفية لكن الذى يجب أن يعتمد عليه الداعية المسلم فى دعوته (دعايته)، هو أسلوب عرض

---

(١) الرأى العام والدعاية للدكتور حسنين عبد القادر ص ٤٠ .

(٢) نفس المرجع السابق .

الحقائق الذى يطلق عليه عادة (كدعاية) لفظ الإعلام ، وهذا الأسلوب يعتمد أساساً على وصول الحقائق إلى أكبر عدد ممكن من الناس، ثم إيصاله فى النهاية إلى كل الناس، باعتباره دعوة الخير التى فرض الله تبارك وتعالى الدعوة لها على القادرين عليها، وفرض استماعها والعمل بما تأمر به على بقية الناس .

أما أسلوب الإثارة العاطفية الذى يعتمد عليه السياسيون غالبا فى دعايتهم، فلا ينبنى على المناقشة والإقناع، بل يبنى على احتقار دفين للجماهير، واعتبارهم رعايا للدولة عليهم أن يسمعوا ويطيعوا، لا كمواطنين يشاركون فى حكم البلاد، ومن حقهم أن تصلهم الحقائق وأن يناقشوها، قبل الوصول إلى رأى نهائى فيها .

وقد كان هتلر يعتقد أن الجماهير فيها الكثير من خصائص النساء ، وأن استجابة الجماهير تكون استجابة عاطفية أكثر مما هى عقلية ، ولذلك فقد كان يدعو إلى أن تتجه الدعاية إلى العواطف،وخاصة عاطفة الحقد ، وأيسر السبل إلى إثارة الحقد التشهير وإكالة التهم، فيجب تشويه سمعة الناس وتزييف الحقائق .

وكان هتلر يرى أنه لاصلة تربط الدعاية بالحقائق ، فالداعية حر فى أن يكذب طالما أوصله ذلك إلى تحقيق غرضه ، أما الدعاية فيجب أن تُبنى على البساطة وأن تنزل إلى أدنى المستويات العقلية للجماهير [1] .

ولذلك قسم أهل الفن (فن الخطابة) الخطابة إلى أقسام ، منها الخطابة الوعظية الدينية، والخطابة السياسية ، والخطابة القضائية ، والخطابة العسكرية والخطابة الحفلية وغير ذلك من الأنواع .

وقد ركزنا فى هذا الكتاب على الخطابة الدينية باعتبارها أهم أنواع الخطابة بالنسبة للمسلمين، وباعتبار أن الأنواع الأخرى للخطابةعند المسلمين تدخل تحتها، حيث يعتقد المسلم أن الإسلام هو الحياة بكل دقائقها

---

(١) المرجع السابق ص ٤٢ .

وتفاصيلها) .

هل من الضروري أن تقتصر خطبة الجمعة على الأمور الدينية البحتة وحدها ؟

لايفوتنا أن نذكر أن هذا لايعنى أن الخطيب الدينى يجب أن تنحصر موضوعات خطبه فى الموضوعات الدينية الصرفة ، بل على العكس، فالمجتمع كله موضوع خطبته ، ولا فرق بين الدين والدنيا فى الإسلام ، بل هما جزآن لشيء واحد، اسمه الإسلام .

ولذلك قلنا إن الخطيب يجب أن يتزود بجميع أنواع الثقافات، فيجب أن يكون عارفا بالسياسة، وبالقانون، والتاريخ، والاجتماع، وعلم النفس، والجغرافيا، والفلك، والكيمياء، والطبيعة، والطب، وغير ذلك من العلوم الإنشائية ، لا بمعنى أن يكون متخصصاً فيها جميعها، ولكن بمعنى أن يكون عارفا بمضمونها، أو بشيء منها، ليستعين بها فى خطبه ، وليرضى جميع الأذواق وتكون حجته أقوى ودليله أوقع .

ولنضرب لذلك مثلا : هب أنك قمت خطيباً فى يوم جمعة وكان موضوع الخطبة (الوقاية من الأمراض) فماذا تصنع وماذا تقول ؟

المفروض أن الخطوة التالية بعد تحديد الموضوع،هو الوصول إلى المرحلة الثانية فى إعداد الخطبة وهى ما يسمونها (التركيب) والتى سماها (ابن سينا) بـ (العمود) لأنها الأساس المكين فى الخطبة وهى المرحلة الوسطى بين مرحلة الخلق ومرحلة التعبير،وعليها المعول الأكبر فى الترتيب والتنسيق .

وفى هذه المرحلة يختار الخطيب عناصر الخطبة، ويجمعها، ويميز كل عنصر على حدة، ويجعل هذه العناصر تدور كلها حول موضوع واحد، ويحاول أن يجمع الأدلة المناسبة لكل عنصر ، ثم يبدأ إلقاء خطبته بعد اختيار الأدلة وتحديد مصادرها، حتى يكون لكلامه أثر فى النفوس، ولخطبته القدرة على الإقناع .

وقد قلنا إن علاج مشكلة يحتاج إلى تكرار وملاحقة ، والمفروض أن هذا الموضوع وغيره من الموضوعات العامة، قد طُرق أكثر من مرة، فلو ركز الخطيب على نفس الأدلة التى ذكرها قبل ذلك وذكرها غيره،لسبّب ذلك مللا عند المستمعين كما قلنا ، ولذلك كانت معرفة الخطيب لكثير من العلوم الإنسانية، دافعاً له على اختيار أدلة قوية جديدة، تقوّى فكرته، وتزيد أدلته التقليدية،وتعطيه فى كثير من الأحيان، القدرة على استخراج بعض نفائس مافى القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة، الذين تعتمد عليهما خطبة الجمعة اعتماداً كبيراً .

لنفرض أن هذه الآية الكريمة، كانت من بين أدلة الخطيب التى أراد الاستدلال بها على دعوة الإسلام للوقاية من الأمراض (ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض،ولا تقربوهن حتى يطهرن، فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله،إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين " فإذا ما شرح الخطيب رأى الطب الحديث وبيّن أن فرج المرأة فى حالة الحيض يكون رطباً، وأنه يفرز إفرازات مضرّة بالرجل إذا ما جامعها فى هذه الحالة، وأن جماع الحائض يسبّب أمراضاً تناسلية، من بينها الزهرى، والسيلان . لو حاول الخطيب ذلك، واستطاع أن يشرح وجهة نظر الدين بأسلوب طبى مبسط، لاستحوذ على إعجاب الناس أولاً، وأقنعهم ثانياً بهذا الدليل القرآنى إقناعا لا يشوبه شك، ولأثبت لهم أن هذا القرآن ما جاء من عند بشر،وإنما جاء من عند خالق القُوى والقُدَر .

ولو كان من بين أدلة الموضوع مثلا : حديث كحديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ الذى يقول : (اتقوا الملاعن الثلاث) .

أو حديث الرسول ﴿ﷺ﴾:(إذا ظهر الطاعون بأرض فلا تدخلوها . .إلخ) .

وحاول أن يدلل برأى الطب مثلا فى الحديث الأول فيما يؤدى إليه التبول أو التبرز فى الطرقات العامة، أو فى الماء الراكد أو الجارى ، ومايؤدى إليه

ذلك من انتشار أمراض الانكلستوما والبلهارسيا، وهو ما يعاني منه بعض المجتمعات الإسلامية، أو حين يدلل بالحديث الأخير، على أن الرسول صلى الله عليه وسلم دعا إلى الحجر الصحي قبل أن يدعو إليه الغرب بأربعة عشر قرناً من الزمان .

ألا تكون هذه الأدلة، وهذا التطور في الخطبة، من مبررات الاستماع إليها ،وقد يكون ذلك من أسباب الاقتناع بها، ويكون ذلك أيضاً من مبررات احترام الخطيب، والإقبال على سماع خطبه ومواعظه ؟ .

ما الذي يصنعه الخطيب ليجيد الخطابة ؟

إذا كان الخطيب لا يستغنى عن الإطلاع الدائم فى كافة العلوم ، وسائر أنواع المعارف ، فإن عليه أن يعرف أنه لا يمكنه القيام بدوره هذا إلا بعد جهد كبير،وبحث متواصل فى التحليل العلمي،والبحث الموضوعي . وقد ذكرنا كيف أنه فى حاجة إلى معرفة كل الثقافات ، وقراءة الكثير من الكتب واستخلاص الأفكار والنتائج ، إلا أنه يجب عليه أن يعرف أن الذاكرة الضعيفة تنسى كثيراً من المعارف ، وتحرج الكثير من العباقرة ، لأن المرء قد يكون مثقفاً . غزير المادة ، واسع الاطلاع . ومع ذلك إذا صادفه موقف حساس ارتج عليه وخانته ذاكرته . وقديماً قالوا : (**إن المرء بأصغريه قلبه ولسانه**)

وقوة الذاكرة وضعفها، إنما هو ناتج من الممارسة والتعود ، أو عدم الممارسة والعلم . وكل شيء فى هذه الحياة يحتاج إلى تدريب وتعويد، وتعليم وتكرار . يقول أحد علماء النفس الغربيين : (**إن الرجل العادى لا يستخدم أكثر من عشرة فى المائة من قدرته الموروثة فى الاستذكار . وتضيع منه تسعون فى المائة بإخساره قوانين التذكر الطبيعية**) [1] .

---

(١) القائل هو كارل سيشور . راجع كتاب (التأثير فى الجماهير) ص ٦١ .

صحيح أن الله تبارك وتعالى يمنح بعضاً من عباده قوة ذاكرة قد لايمنحها لآخرين .إلا أنه قد ثبت أن الذاكرة يمكن تحسينها بالتدريب والتعليم.وقد درس العلماء طرق تحسين الذاكرة وحصروها فى ثلاثة طرق: -

١- *التركيز* :

بأن يركز من يريد تحسين ذاكرته على المطلوب عند قراءته حتى لايفلت منه ويضيع . ويكون التركيز باستحضار المعنى عند قراءة كلماته وترتيب أفكاره حسب ورودها في الألفاظ .

وقد قالوا : (حبذا لو ارتبطت هذه الأفكار بصورة حية في النفس. لأن التشبيه أسلوب مبيّن ، لأنه يربط المشبه بما هو معروف وحيّ . ولذلك كان ارتباط الأفكار بصورة حية مؤدياً لتحسين الذاكرة)(١) .

ويرى العلماء أن التركيز أيضاً يأتى بالقراءة بصوت مرتفع، حيث تشترك حاستان فى التقاط المعنى . لأن اللسان والأذن فى هذه الحالة يمدان العقل بالمعانى . وهذا يؤدى إلى تحسين الذاكرة .

كما يأتى التركيز كذلك بتسجيل ما يقرأ كتابة ، لأن العقول تعتمد على رؤية المكتوب أكثر من المسموع خمساً وعشرين مرة .ويقولون :إن من الإمكان أن تنسى اسم الشخص فى وقت تحافظ فيه على تذكر صورته(٢) .

وفى إمكان الخطيب أن يسجل ما يقرؤه فى جمل قصيرة .

يقول مارك توين : (كنت ألقى محاضرة كل ليلة وكان لابد لى أن استعين بمذكرات تملأ صفحة كاملة حتى لا يختلط على الأمر . وكانت هذه المذكرات عبارة عن بداية الجمل :

الطقس فى ذلك الإقليم ...

(١)قواعد الخطابة وفقه العيدين .الدكتور أحمد غلوش ص ١٧٣ .

(٢) نفس المرجع السابق بتصرف .

جرت العادة في ذلك الوقت . . .

ولكن لم يسمع في كاليفورنيا أن . . .

جمل من هذا الطراز يتكون منها أول الموضوع تقي صاحبها من الحصر والارتجاج [1] .

ويمكن التركيز أيضاً بإبعاد كافة المعوقات الحسية وقت القراءة، لأنها تصرف بعض التفكر إليها . ولذلك نجد بعض الناس لايفهم جيداً إلا في مكان بعيد عن الناس، والضوضاء، والتكلف .

وقد يتعود الناس على استعمال طرق أخرى للتركيز، وتحضير موضوعات خطبهم . فبعض الناس يقطع الغرفة جيئة وذهاباً . ويُشغل ذهنه بالموضوع دون أن ينطق بما في نفسه . وبعضهم قد يصنع ذلك ويلقي بالكلام بصوت مرتفع . وبعضهم يركز وهو جالس . وبعضهم لا يركز على موضوع إلا وهو يمشي فإذا توقف توقفت أفكاره .

وقد تعجب أخي القارىء حين تعرف أني لااستطيع التركيز ، ولا أجيد تحضير موضوع من الموضوعات إلا إذا دخلت غرفة النوم ، وأسلمت نفسي للسرير، وإذا ما فوجئتُ بندوة أو محاضرة لاأجد وقتاً كافياً لتحضيرها لا يسعفني إلا حجرة النوم.ولابد أن نعرف أن دقائق قليلة من التركيز العقلي النشيط.تأتي بنتائج أعظم من التفكير الذاهل الموزع لمدة أيام عديدة .

٢- الطريقة الثانية لتقوية التركيز هي (التكرار) :

والتكرار عملية مضمونة النتيجة ، وهي طريقة يمكن للكثير أن يحفظوا عن طريقها النصوص الطويلة ، ولعلنا نلاحظ أننا لا نحفظ القرآن إلا بالتكرار .

---

(١) التأثير في الجماهير ص ٦٥ .

إلا أنه يجب ألا يكون التكرار آلياً . يجب أن يكون ذاكياً ، بمعنى أن يستمر التكرار مدة طويلة على فترات متقطعة ، لأن العقل الباطن يكون مشغولاً بين فترة التكرار بتكوين ترابطات أكثر ضماناً ،.لأن العقل حينما يقوم بعمله على فترات لا يرهقه التعب المتواصل .

ولا يجب أن يعتمد الخطيب على قراءاته للموضوع أكثر من مرة ، أو تكراره له تكراراً كثيراً ، فلابد أن يعرف أن العقل ينسى في الثماني ساعات الأولى أكثر مما ينسى في خلال ثلاثين يوماً بعد ذلك . ولذا وجب عليه النظر في الموضوع قبل إلقائه (١) .

٣- الطريقة الثالثة لقوة التركيز : (الترابط) :

يجب ألا يكون الخطيب مجرد جهاز تسجيل يسجل ما يقرؤه ويسمعه.ثم يلقيه كما هو دون تصرف منه . وعرضه بأسلوب قد لا يتناسب مع المستمعين . والخطبة المرتجلة على وجه الخصوص تحتاج من الخطيب أن يكون غزير الاطلاع حاضر الذهن ، واثقاً من نفسه ولذا كان عليه أن يربط موضوع خطبته ونقاطه بشيء موجود في العقل حتى يستطيع أن يتذكر نقاط الموضوع ، أو يربط بعضها ببعض.حتى يسهل إيرادها وقت الإلقاء.ويعرضها بأسلوب يتناسب مع المستمعين .

وهكذا كان على الخطيب بأن يحسّن ذاكرته ليتمكن من النجاح في مهمته.

---

(١) راجع قواعد الخطابة وفقه العيدين للدكتور أحمد غلوش ص ١٧٣بتصرف .

ومن المواهب الطبيعية التى تساعد على أن يؤثر الخطيب فى جمهوره مع ما سبق، أن يكون مقبول الصورة، خفيف الظل، وليس معنى هذا اشتراط أن يكون جميلاً، وإنما المقصود ألا يكون منفراً يؤذى العين بدمامته وقبحه.

ومع ذلك فإن قوة شخصية الخطيب، وجهارة صوته، وبلاغة أسلوبه، وبراعة إلقائه، قد تتغلب على دمامته ، بل قد تجعل منها وسيلة للتأثير على السامعين إذا كان الخطيب عبقرياً من طراز (ميرابو) .

وقد كان (ميرابو) وهو خطيب الثورة الفرنسية ، دميم الشكل، فقد أصيب بالجدرى فى صباه، فترك آثاراً على وجهه زادته جهامة، وكان ضخم الجسم، عريض المنكبين، له رأس هائل يحيط به شعر غزير كعرف الأسد، ونظرات نافذة تقدح بالشرر عند الغضب، وصوت جهير يجمع بين القوة والعذوبة، إلا أنه استطاع برغم دمامته، أن يكون أعظم خطيب فى فرنسا . وكان (ميرابو) يقول عن نفسه (إنهم لا يدركون ماللقُبح وجهى من قوة بيانى) [1] .

ولكن هل تكفى الفطرة والاستعداد الغريزى وحدهما ؟ وهل يمكن بهذه الموهبة أن يكون خطيباً ؟ .

الحقيقة أنه لايكفى الموهبة وحدها لإظهار الخطيب، بل لابد مع الاستعداد الغريزى والموهبة والفطرة، من توافر الشروط الثلاثة الأخرى، وهى على التوالى كما قلنا :

١- معرفة الأصول والقوانين التى وضعها الحكماء .

٢- الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء،ومصانع الخطباء،ودراستها دراسة يتعرف منها على نواحى التأثير وجهات الإقناع بها .

٣- التدريب والتمرين والممارسة ، وإن كانت هذه الأشياء كلها مترتبة على

---

(١) التوعية الاجتماعية،للأستاذ أنور أحمد،من مطبوعات إدارة المعلومات والعلاقات العامة بوزارة الشئون الاجتماعية ص ٥١ .

وجود الاستعداد الغريزي والموهبة، ولذلك كانت أولها وأهمها على الإطلاق .

ومعرفة الأصول والقوانين التي وضعها الحكماء ضرورة حتى تؤتي الخطبة ثمارها المرجوة، ويستفيد منها المستمع، وإلا كانت مجرد كلمات تقال لاتجدي نفعاً ولا تؤتي ثمراً .

وأما الإكثار من مطالعة أساليب البلغاء وخطب الخطباء، ودراستها لمعرفة مناحي التأثير فيها. فهو من الضرورة بمكان، فلا الخطيب ولا الخطبة يمكن نجاحهما بغير هذا الزاد .

ويقول ابن الأثير في المثل السائر[1]: "إن في الإطلاع على أقوال المتقدمين من المنظوم والمنثور فوائد جمة ، لأنه يعلم منه أغراض الناس ، ونتائج أفكارهم، ويعرف منه مقاصد كل فريق منهم ، وإلى أين ترامت به صنعته في ذلك، فهذه الأشياء مما تقوى الذهن وتزكي الفطنة - وإذا كان صاحب الصناعة عارفاً بها تصير المعاني التي تعب في استخراجها كالشيء الملقى بين يديه يأخذ منها ما أراد، وأيضاً فإنه إن كان مطلعاً على المعاني المسبوق إليها، قد ينفتح له من بينها معنى غريب لم يسبق إليه.وعلى الجملة،فدراسة كلام البلغاء، تقدم للقارىء ألواناً من المعاني والأساليب تنمي فيه ملكة الخطابة".

أما التدريب والمران، فذلك بسبب أن الخطابة ملكة نفسية لا توجد دفعة واحدة ، بل لابد لطالبها من الممارسة والمران كي تنمو مواهبه .

وقد قلنا إن الموهبة تحتاج إلى صقل وتمرين وممارسة، لأن الموهبة وحدها لاتكفي لصنع الخطيب .

وقد قلنا أنه يمكن تدريب الخطيب على مواجهة الجمهور والتغلب على خجله كما يمكن أيضاً معالجة بعض عيوب النطق وطريقة الإلقاء [2] .

والإنسان إذا دُرِّب على شيء تعوده واعتاد عليه ، بل إن الغرائز في حاجة

(١) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٥ .

(٢) راجع موضوع عيوب الخطيب ومايمكن علاجه منها من هذا الكتاب .

إلى تدريب وتمرين : وقد قال خالد بن صفوان: (إنما اللسان عضو ، إن مرنته مَرَن،فهو كاليد تخشنها بالممارسة،وكالبدن تقويه برفع الحجر ، والرِّجل إذا عوّدت المشي مشت)(١).

وقد روى المؤرخون أن (ديمستين) أعظم خطيب فى تاريخ الإغريق ، كان فى شبابه ضعيف الصوت، قصير النفس، وكانت بلسانه لثغة تغرى بالسخرية منه ، فلم ينجح فى محاولاته الأولى كخطيب، وهزءوا به فى الجمعية الوطنية ، وفى غمرة اليأس التى استولت عليه صادقه (ساتيروس)،وكان ممثلاً شهيراً يعرف ما يتمتع به (ديمستين) من عقل يتوقد ذكاء، وقلب يشتعل حماسة . فعطف عليه وشجعه، وأعاد إليه الثقة بنفسه، وأقنعه بأن لديه مواهب الخطيب، ولا ينقصه إلا حسن الإلقاء وإجادة النطق، وهو شيء يمكن أن يكتسب بالمران .

وبدأ (ديمستين) رياضة شاقة بعزيمة وصبر، لكى يصل إلى ما يريد.ويروى المؤرخ (بلوترخوس) أنه أنشأ حجرة تحت الأرض كان ينفرد فيها ليتمرن على الخطابة، وكان أمام المرآة ليتخير الإشارات المناسبة وقت الإلقاء ويضع الحصى فى فمه وهو يتكلم ليحل عقدة لسانه ، ويصعد الجبل عدواً وهو يقرأ أبياتاً من الشعر بصوت مرتفع ، وبعد سنوات من التدريب الشاق تكلل جهاده، ولم يعد يخشى الجمهور ، فلما ارتقى بعد ذلك منبر الخطابة ملك الأسماع والقلوب،وأصبح خطيب الجمعية الوطنية الأول بل أعظم خطيب فى التاريخ القديم (٢) .

وقد رأينا فى التاريخ المعاصر زعماء وقواداً أصبحوا خطباء مهرة بعد التدريب والمران، حيث فرضت عليهم مناصبهم ومراكزهم القيادية، أن يواجهوا الجماهير وأن يكونوا خطباء فيهم .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٠

(٢) التوعية الاجتماعية . أنور أحمد ص ٥١ .

وأذكر وأنا طالب بالثانوى الأزهرى أنى كنت أقف أمام المرآة فى حجرة النوم وأغلق على نفسى الباب، ثم أمرن نفسى على الخطابة بصوت مرتفع، وأنا أنظر إلى تعبيرات وجهى، لأرى كيف يكون التأثير بهذه التعبيرات على الجمهور، وكنت أعيد الكلام مرة ومرات حتى أصل إلى ما أرجوه من طريقة ترضى لها نفسى .

ولا زلت حتى الآن أجد نفسى فى بعض الأحيان مضطراً إلى تزوير بعض الجمل والعبارات، وترديدها بصوت عال، خاصة عند التحضير لخطبة أريد أن أجدد فيها، أو أطمئن إلى تأثيرها وتقبل الناس لها .

والحقيقة أن الخطيب فى حاجة دائمة إلى التدريب المستمر، وهو حين يتدرب قد يتوسع فى شرح بعض المعانى، فيبينها بأوجه شتى، ويزينها بما يراه من وسائل تؤثر فى السامعين، ثم يحاول أن يتعود على تلخيص العبارات المبسوطة فى عبارة «وجيزة» وجامعة للمعانى التى حواها المرشوح، لتبقى فى ذهن السامعين .

كما يحاول أن يُعوِّد نفسه على وصف المعانى التى يصل إليها من المشاهدات، بحيث ينقل ذلك إلى نفس السامع وكأنه مشاهد لها ، فالخطيب أحوج الناس إلى ضرب الأمثال وأنواع التشبيه للوصول إلى مايرجوه من التأثير فى نفس السامع، وله أن يبتكر ماشاء من وسائل التأثير التى يراها أرجى للوصول إلى مايريد .

ولذلك كان له أن يغير من الطريقة الأكاديمية المعروفة لخطبة الجمعة، هذه الطريقة التى أصبحت سبباً من أسباب هجر المساجد، وعدم الاهتمام بالخطبة الدينية، حيث أصبح الكثيرون من أئمة المساجد وخطبائها، يكررون أنفسهم وينهجون نهجاً واحداً فى الطريقة والإلقاء، مما سبب عدم الإقبال على أمثال هذه الخطب .

ولا يعنى هذا ترك أساليب المتقدمين نهائياً والاستعاضة عنها بأساليب

أخرى مبتكرة، فاحتذاء أساليب المتقدمين، جزء من التدريب على الخطابة وطريق من طرق تحصيلها ، وانتقاء أثر أساليب المتقدمين الصائغة والنسج على منوالها لا غنى للخطيب عنه، فلابد له من الاقتداء بالسابقين، والاقتباس من الأولين فيما اخترعوه من معانيهم، وسلكوه من طرقهم، والتقليد عريق فى بنى الإنسان :

وتشبهوا إن لم تكونوا مثلهم إن التشبه بالرجال فلاح

وقد روى أن العرب كانوا يأخذون أنفسهم بالتدريب على الخطابة، حتى تصير لهم سجية وعادة ، ويقولون إن عمرو بن سعيد بن العاص الأموى كان لا يتكلم إلا اعترته حبسة فى منطقه، فلم يزل يتشادق ويعالج إخراج الكلام حتى مال شدقه، ولذا لقب بالأشدق وفيه يقول الشاعر :

تَشَدَّقَ حتى مال بالقول شدقه وكلُّ خطيبٍ لاأبالك أشدقُ(١)

فالخطيب بالدربة والمران، يمكنه أن يتغلب على كثير من عيوبه - إنه فى هذا يشبه الممثل الموهوب، الذى يلتحق بمعهد التمثيل ليدرس أصول فن وقواعد الإلقاء، ويتدرب على التمثيل تدريباً عملياً .

وقد روى أن (نابليون بونابارت) كان يلجأ إلى صديقه الممثل العظيم (تالما) كى يدربه على الإلقاء، فقد كان نابليون يخطب جنوده فى كثير من الأحيان قبل المعارك فيلقى عليهم خطباً رائعة ملتهبة،تلهب حماسهم، وترفع روحهم المعنوية .

وقد عرف عن واصل بن عطاء أحد شيوخ المعتزلة،أنه وجد نفسه عاجزاً عن الخطابة الجيدة،بسبب اللثغة التى نشأت معه فى حرف الراء ، ولما وجد نفسه كذلك لم ييأس ويترك الخطابة، ويبتعد عن الناس، وإنما أخذ يُقوّم نطقه فلجأ إلى الراء وأسقطها من كلامه ، حتى استقام لفظه وصار من أوائل الخطباء ، يقول الجاحظ معلقا على هذه الظاهرة عند واصل ، ومبيناً غرابة الجهد المبذول :

(١) الخطابة للشيخ على محفوظ ص ١٦ .

(ولولا استفاضة هذا الخبر ، وظهور هذا الحال ، حتى صار لغرابته مثلا ولطرافته معلماً لما استجزنا الإقرار به والتأكيد له ، ولست أعنى خطبه المحفوظة ورسائله المخلدة ، لأن ذلك يحتمل الصنعة ، وإنما عنيت محاجة الخصوم ومناقلة الأكفاء ، ومفاوضة الإخوان)[1] .

ويشير (بشار بن برد) إلى هذه الظاهرة فى خطب واصل فيقول :

تكلفوا القول والأقوام قد حفلوا   وحبروا خطبا ناهيك من خطب

فقام مرتجلا تغلى بداهته   كرجل القين لما حف باللهب

وجانب الراء لم يشعر به أحد   قبل التصنع والإغراق فى الطلب [2]

وقد عرف أن (نلكولن) مؤسس أمريكا الحديثة كان لايجيد الخطابة إلا أنه اكتسبها بعد قليل بالتلقى والمران يقول (هور ندن) :

كان (لنكولن) يبدو من العسير أن يلائم بين موقفه وبين مايحيط به، وقد ناضل بعض الوقت تحت وطأة شعور ظاهر من التردد،وكان صوته يبدو شبيهاً بالولولة والصياح ، ولكن هذا كله لم يلبث إلا وقتاً ثم اختفى بعد ذلك [3] .

ولا شك أن ممارسة الخطابة فى بدايتها عملية صعبة عند بعض الناس، مثلها مثل أى عمل آخر يحتاج إلى تدريب ومران، حتى يمكن ممارسته ممارسة سليمة، ولسنا مع من يقول بالفطرة المجردة للخطيب، وإلا كان معنى ذلك إلغاء دور التربية وأثرها في تكوين الإنسان وتنشئته ، وحتى على فرض وجود هذه الفطرة، فإن الخطابة الفطرية، لا تتمكن من القيام بدورها فى هذا العصر، ولابد للخطيب من الممارسة والاستعداد بالإضافة إلى الفهم والتعلم حتى يستطيع النجاح .

---

(١)البيان والتبيين.ج ١ ص ٥ .

(٢) علم الخطابة.د. أحمد غلوش ص ١٣٣.نقلاً عن معجم الأدباء .

(٣) التأثير فى الجماهير عن طريق الخطابة.(ديل كارنيجى).ترجمة رمزى يسى ص ١٤ .

ولابد أن نعرف أن للخطابة عند الخطيب صفات بيانية وملاحظات نفسية، وترتيب عقلى منظم، ومن المعلوم أن الصفات البيانية نتاج طبيعى لتعلم علوم اللغة والبلاغة ، والملاحظات النفسية آثار ضرورية لإجادة علوم الاجتماع والنفس بفروعها المختلفة، والتنظيم العقلى المرتب أحد الآثار التى يحققها تفهّم علوم المنطق والفلسفة .

ومادامت الصفات الأساسية الموجودة للخطبة آثاراً لعلوم مختلفة فإنها تكون اكتساباً يتحقق بالدراسة والتعلم .

إن العلوم الحديثة تعتمد فى تعلمها على المنهج النظرى،والطريقة العملية. والخطيب يمكنه أن يكتسب فنه بالمنهج النظرى والعملى معاً .

كيف يتمكن الخطيب من الإجادة بسرعة :

أولاً : يجب على من يريد أن يكون خطيباً ناجحاً أن يبدأ عمله برغبة قوية، لأن الرغبة الهزيلة لا تحقق النجاح، وأن يثق فى نفسه تماماً ويستسهل الوصول إلى غرضه، ويتفهم دراسته الذاتية، ويقتنع بمنفعتها ويفكر فيما تعنيه بالنسبة له .

وفى رأيى أنه لايوجد من هو أكثر شهرة وجاهاً من خطيب يرضى الناس ويجذب انتباههم، ولقد رأينا خطباء ومتحدثين يبلغ بهم التأثير الجماهيرى درجة أكبر بكثير من تأثير رؤساء الدول، يقول (فيليب أرمور) وهو أحد كبار الرأسماليين فى العالم الغربى :

(كنت أفضل أن أكون خطيباً مفوهاً على أن أكون رأسمالياً عظيماً)(١) .

ثانياً : على الخطيب ألا يخجل من نفسه،وألا يحجم حين يخفق مرة أو يرى نفسه فى بداية الممارسة على غير المستوى المطلوب - فالحديث لايقويه إلا

(١) المرجع السابق ص ١٥ .

حديث يشبهه والخطبة لاتجود إلا بتكرارها ، ولابد أن يعلم أن من يريد أن يتعلم السباحة، عليه أن يلقى نفسه في الماء – ولو خاف الغرق ماأقدم على تعلم السباحة أبداً .

يقول روزنفت : إن أول مبتدىء معرّض لحمى الكلام، وهذا معناه حالة هياج عصبي شديد، يترتب عليها أن يُطلق الخطابة كلية، وهذه قد تؤثر فى الشخص فى أول موقف خطابى له أمام جمهور المستمعين،ومثل هذا الرجل لاتنقصه الشجاعة،ولكن ضبط الأعصاب ورباطة الجأش يجب عليه - عن طريق التعود،والتدريب المتوالى على ضبط النفس،وأن يجعل أعصابه باستمرار خاضعة لسيطرته، وهذا أمر مرده فى معظم الحالات إلى العادة،ويعنى أنه جهد معاد، وتدريب متكرر لقوة الإرادة، فإذا كان لدى الشخص المادة الملائمة فإن قوته ستتزايد مع كل تدريب [١] .

ويقول الشيخ محمد أبو زهرة [٢] : (ورياضة النفس على الخطابة تكون بأمور كثيرة، بعضها يتعلق بالأسلوب والفكرة، لأن الخطابة فكرة وأسلوب وإلقاء محكم ، ومن الرياضة التى تتعلق بالفكرة أن يُعوِّد نفسه ضبط أفكاره ووزن آرائه، وعقد صلة بينها وبين مايجرى فى شئون الناس وعامة أمورهم .

ومنها أن يكون كثير التأمل فى شئون الحياة ، وأن يتعود الاتصال بالناس ليخالط نفوسهم بنفسه .

---

(١) نفس المرجع السابق ص ٢٠ .

(٢) أصول الخطابة محمد أبو زهرة ص ٢٠ .

كيف ينجح الخطيب الديني في إقناع الجمهور

إذا كنا قد ذكرنا قبل ذلك أهم الصفات التى يجب أن تتوفر فى الخطيب ، فإننا هنا نذكر أهم الأمور التى يجب أن يراعيها الخطيب الدينى حتى يتمكن من إقناع الجمهور ، وتؤدى الخطبة دورها كما ينبغى .

أولاً :

ألا تكون الخطبة طويلة مملة لارتباط المستمعين لها بحالة الطهارة، مع التزامهم الصمت والجلوس، أو القيام فى مكان محدود مزدحم، وقد يكون معهم النساء والأطفال والضعفاء، وقد يكون الوقت شديد الحرارة أو شديد البرودة فيتأذى المصلون ؛ وهذا بالنسبة لخطبة الجمعة أو العيدين على وجه الخصوص .

ثانياً :

ألا يتعمد الخطيب تجريح الأشخاص أو الجماعات، أو المبالغة في الثناء عليهم، فلم تُشرع خطبة الجمعة للسب والشتم، وإنما شرعت لتذكير الناس بشئون الآخرة، على سبيل الاجمال، وتعليم أمور دينهم بما يصلح دنياهم، دون الدخول فى تفاصيل ووقائع محددة معينة إن كان ثمت مايدعو لإصلاح عيب أو تغيير منكر .

ثالثاً :

على الخطيب أن يراعى **حسن الاختيار فى مادته،** بأن يختار الموضوع المناسب والأسلوب المناسب للمستمعين، وأن يراعى فى اختياره الموضوعات التى تضيف جديداً إلى ثقافة المستمعين، مثل الكلام، والصمت، والمشورة، وكتمان السر ، والصبر ، والجزع ، والمروءة ، وآداب المعاشرة ،

ومظاهر الإحسان، والتعاون ، والمواساة بين الناس ، إلى غير ذلك من الموضوعات الاجتماعية التي يحتاج إليها المسلمون .

رابعاً :

اختيار اللفظ والعبارة : فالمعروف أن مستمعي الخطبة ليسوا على مستوى واحد من الثقافة، ولذا فلابد أن يراعي الخطيب أن تكون الألفاظ التي يعبّر بها عن موضوعه من الألفاظ السهلة المألوفة، والتي يمكن للناس استيعابها وفهم مقاصدها ، وليس من الضروري أن يأتي بالألفاظ الوحشية الغريبة،فلا داعي لأن يقول (اشرأبت)،وإنما يمكنه أن يقول (تطاولت)،ولا داعي يقول مثلا(يجشمها)،وإنما يمكن أن يقول (يكلفها)ولا(تفاقمت)ويقول (اشتدت)، فهذا تكلف غير مرغوب فيه وصدق الله حين يقول لنبيه ﴿ ﷺ ﴾ " قل ما أسألكم عليهِ منْ أجْرٍ وما أنا من المتكلفين " (١) .

وبالنسبة لخطب العبادات يجب أن يعتمد الخطيب على المقاطع الواضحة القصيرة، وليس السجع المتكلف، ولابد أن يعرف الخطيب أن بعض السامعين سيُحرِّف الكلام عن مواضعه بحسن نية أو بسوء نية،فلا داعي لإيراده كلاما يحتمل سوء التأويل .

ومن الخطأ أن يصطدم الخطيب بالأمور المسلّم بصحتها لدى الجماهير دون مقدمات مقنعة، كما أنه من الخطأ التورط في المسائل الخلافية التي تحزّب الناس وتشتت الانتباه .

وإذا أثير الخلاف من غير الخطيب، فعليه أن يعالجه بأيسر سبيل ، وعليه أن يعرف أنه مطالب بإزالة الفرقة ودواعيها ليؤلف بين الناس، لأن تجميع الجمهور هو في حد ذاته هدف من أهداف الدعوة التي يقوم بتبليغها للناس، ولا داعي لكثرة إيراد التعبيرات المألوفة، بل يحسن أن يبتكر ويجدد (والعلم بالتعلّم).

---

(١) سورة ص آية ٨٦ .

ويجمل بالخطيب أن يتعلم ما يقال فى المناسبات، كالتعزية، والتهنئة، والزواج، وعيادة المريض، وغير ذلك ، ولابد أن يحفظ بعضا من القطع الأدبية ومختارات من أشعار العرب، بالإضافة إلى القرآن الكريم، والحديث الشريف بل يجب أن يكون حافظاً لكثير من آيات القرآن ونصوص الحديث، وذلك للاستشهاد بها، والاقتباس منها عند الحاجة .

خامساً :

على الخطيب **أن يتحرى الوقت الملائم لموضوعه، والزمن المناسب** الذى لايشق على السامعين أن يحضروا فيه ، فليس جميلا أن يشرع الخطيب فى حديث عقب حديث طويل لخطيب آخر،فى سرادق أقيم مثلاً لأخذ العزاء ، ولا أن يشرع فى حديثه عقب خطبة طويلة من خطب الجمعة،حيث يتهيأ الجميع للانصراف، إلا إذا كانت عادة مألوفة فى بعض المساجد تعود الناس عليها ، وعلى ألا يطيل الخطيب أكثر من اللازم، ولا يصح أن يفعل ذلك فى أوقات الحر الشديد والبرد الشديد ، وكذلك عندما توجد مناسبة عاجلة، كتجهيز ميت، أو حلول موعد إلقاء بيان هام من قبل الحاكم وينتظره الجميع ، أو اللحاق بقطار ،ونحو ذلك .

هذا بالإضافة إلى ضرورة تخيّر المكان المناسب ، وليست كل الأماكن تصلح لإقامة حفل ما ، فلا يصلح مكان وسط مصانع ذات ضجيج،أو حين يتأكد الأذى للجيران، وكذا إقامة الحفل بجوار مستشفى،أو فى دور اللهو أو فى دور أحد الزعماء المتنافس مع الآخر،أو الأماكن النائية عن العمران .

سادساً :

على الخطيب **أن يراعى عدم الإطالة أكثر مما ينبغى،** وهى للأسف آفة الخطباء المحدِّثين،وهى تضر غالباً أكثر مما تنفع ، ولهذا وجب على الداعى أن يحذر الإطالة، التى تنشأ غالبا من إعجاب المرء بنفسه ، وتصوره أن علمه جديد على الناس، إذا لاحظ بعضهم استحساناً من الناس وثناء،

وهذا ولا شك غرور يجب ألا يقع فيه الخطيب، وقد تكون الإطالة حباً فى الشهرة والمديح. والانشغال بالنفس، وهو من الرياء الذى يجب على الداعين أن يخافوا على أنفسهم منه،لأنه شرك خفى والعياذ بالله .

وقد تكون الإطالة بسبب الغفلة والنسيان، وعدم تقدير مصلحة الآخرين، وربما يكون التطويل مقصوداً من بعض الخطباء،لما يظنونه من تحقيق المنفعة أو لأن الموضوع فى ذاته طويل ومتشعب ، ولابد لنا أن نعرف ونعلم : أن الشعوب العربية والإسلامية قد طالت محنتها، وكثر عليها الكلام الذى لم تجن منه إلا القليل، لهذا فقد أصبح الناس يزهدون فى كثير الكلام وقليله على السواء ، وخير للمرء أن يعرف أشياء قليلة معرفة تامة، على أن يعرف أشياء كثيرة معرفة عامة .

ولابد للخطيب أن يعرف أن الطاقة الذهنية محدودة، ولا يمكن السامع فى العادة أن يتابع بانتباه لأكثر من ربع ساعة، وبعدها يصيبه الإعياء أو الشرود ويتمنى أن يستريح حتى يجد مشوقاً آخر . ولابد أن يعرف الخطيب أن الكلام فى المجال الدينى معروف للمسلمين خاصة، ففى كل موضوع دينى جاءت آيات وأحاديث معينة . والمستمع الذى عاش ثلاثين عاما، لابد أنه سمع هذه النصوص عشر مرات على الأقل، ولذا قلنا قبل ذلك : إنه لابد للخطيب أن يجدد، ويتجدد وإن لم يستطع فعليه أن يجتهد ويختصر.

وبعض الخطباء يحاول أن يبرر حرصه على الإطالة بقوله : (أخشى أن أطيل عليكم)،كأنما يطلب تجديد الثقة، وهذا غير مستحسن، وبعضهم يخشى أن يتهم بالتطويل فيترك الموقف مبتوراً لا يسده غيره، وهذا أيضاً غير حسن، ولذا فإن على الخطيب أن يحدد الموقف،والموضوع من قبل، وأن يحترم ذلك بدقة .

سابعاً :

لا ينبغى أن يبدأ الخطيب حديثه بالاصطدام بالآراء والمعتقدات المستقرة عند

الناس . ويمكن أن يساق القول حكاية عن الآخرين ، ويلاحظ فى بعض البلاد وجود طوائف متنافرة من الأسر والجماعات، فعلى الخطيب أن يعرف أن الانحياز لأحدهما يكفى لاستثارة حقائد الآخرين، ولابد أن يعرف أن الجدال والمراء لا يأتى بخير - فإذا استدرج إلى شىء من ذلك،فلينتبه لما يراد به.وكذلك المفاضلة بين حزبين أو جماعتين، وعلى أن يختار الموضوعات التى تبعده عن مثل هذه الأمور الجدلية .

وعلى الخطيب أن يراعى عدم إحراج الأشخاص أو الجماعات، وأن يتفادى ذلك،فليس له مثلاً :- أن يورط السامعين فى عمل شىء ما ، أو دفع شىء ما ، قبل أن يتأكد من إمكانية التنفيذ،ولا يكلف أحد بعمل أو تضحية دون اتفاق سابق معه، حتى يكون مستعداً لما يراد منه،أو مصدقاً لما قيل عنه.فليس له مثلاً : أن يعلن على الناس أن فلانا سيتبرع بأرض لعمل مشروع معين،أو سيدفع مبلغاً معيناً لهذا المشروع، دون أن يأخذ رأيه أو يتفق معه عليه، وكثيراً ما يحدث ذلك، ويضع الخطيب نفسه بعد ذلك فى موضع حرج، حين يكذب أمام الجمهور .

وإذا كان على الخطيب أن يتفادى الإحراج كما قلنا ، يجب أيضاً أن يكون لبقاً، حسن التخلص من المواقف المحرجة، وما أكثر ما يتعرض الدعاة والخطباء لمواقف محرجة، تستدعى سرعة البديهة وحسن التخلص والتصرف.

وقد يُعدّ بعض السامعين أسئلة دقيقة يتعمد إلقائها عليه ليختبر بها اتجاهه أو ميوله الخاصة ، أو يلقى عليه ببعض الاستفسارات التى ليست من اختصاص الخطيب، أو يسأله عن أشياء خارجة عن نطاق الموضوع الذى يتحدث فيه، ولذا كان على الخطيب أن يتعلم كيف يخرج من هذه المآزق من غير مآخذ عليه، فلا ينقطع ولا يبطىء الجواب .

ذكر أن زعيماً اشتهر بالقدرة الخطابية ففاجأه ذات مرة أحد السامعين أثناء المحاضرة بقوله : هذا غير صحيح ، وكان الخطيب ذكياً ففطن إلى ما يريده المعترض فاكتفى بقوله :(هذا رأيك) واستمر دون أن ينقطع .

ويحكى أن طالباً كان يؤدى اختباراً فى دروس التربية العملية تحت إشراف أحد الأساتذة،فوقف أحد التلاميذ ووجه إليه سؤالا كان لا يعرف الإجابة عليه، إلا أن الطالب (المدرس)كان سريع البديهة وقال للتلميذ : (ذكّرنى فى آخر الدرس)؛وبمجرد أن دق الناقوس خرج التلاميذ يهرعون إلى فناء المدرسة، ونسى التلميذ سؤاله فكتب المشرف الملاحظة الآتية : (الطالب ذكى حسن التخلص)[1].

ثامناً :

على الخطيب أن يتدرج فى كلامه من المعلوم إلى المجهول ، وهو من طرق الإقناع فعليه أن يتدرج بالسامع من الحقائق المقررة إلى ما يراد تثبيته فى الأذهان، كأن يقول مثلاً : إن الله أعطانا العقل وميزنا به على سائر المخلوقات، فنحن نتحمل المسئولية بقدر هذه النعمة، وعلينا لأجل ذلك ضريبة لازمة هى معرفة الحق والدعوة إليه .. إلخ) وعليه أيضاً أن يراعى الالتفات للدقائق، التى قد لا يهتم بها كثير من الخطباء ويؤدى عدم اهتمامهم بها إلى مشاكل وتوريطات .

فلا يصح مثلا أن تكون له عادة لازمة، من قول، أو حركة، غير طبيعية .

ولا يصح أن يشير إلى جماعة من الحاضرين، وهو يتحدث عن أهل الكفر والنفاق – أو يضرب المثل المنكر بواحد من الحاضرين .

ولابد أن يراعى عدم المبالغة فى نقده العادات الاجتماعية المستقرة عند بعض الناس، بما يسىء إلى مشاعرهم،أو يكون فى لباسه أو مظهره أو رائحته ما يخالف المألوف، أو أن يتجاهل زملاءه الخطباء، أو يسفه أقوالهم بما يشعر أنه يستعلى عليهم .

هذا مع ضرورة أن يكون الموضوع واضحا فى ذهنه، ولا يمنع من أن يحتاط بتدوين رؤوس المسائل فى وريقة صغيرة، يرجع إليها بلمحة سريعة، حتى لا

---

(١)راجع كتاب " كيف ندعو الناس".للأستاذ عبد البديع صقر ص ٤٦ بتصرف .

يرتج عليه فى الخطابة، ثم يعود يبحث ويخلط، أو يستطرد، أو يبحث عن المعانى فلا يجدها، على أنه إذا فرغت ذاكرة الخطيب من المعانى المرتبة فعليه أن ينهى الحديث دون إبطاء .

ويلاحظ الخطيب، ضرورة اتزان النبرات، ولايصح أن تحمله الرغبة فى الإسراع على شحن العقول بالأفكار المهوشة المكدسة - كما لا يصح أن يتكلف الهدوء والأناة، فيمطط الكلام، مما يدفع على تبليد الأذهان، وإثارة الاستياء العام ، وقد قيل : الإسراع يرهق الأذهان فتكلّ، والبطء الشديد يعزل الخطيب عن الجمهور، كما لا يصح أن يتكلم فترة بصوت معتدل، ثم يُخرج صوته تدريجياً، ثم يرتفع فجأة،ثم يرجع فيكرر نفس الطريقة . وبعض الخطباء يبدأ هادئا، ثم تأخذه الحماسة فلا يتوقف إلا وقد تهدج صوته وتعبت حنجرته، وينتهى وقد تصبب عرقه، ولا يزال هذا دأبه دائماً . ولذا فإن عليه أن يحاول إدراك الوسط، وهذا لا يأتى إلا بعد المران، على أن يصطفى بعضاً من زملائه يذكرون له ملاحظاتهم بإخلاص، حتى يصل بعد ذلك إلى حد الاعتدال [1] .

تاسعاً :

من الأمور المستحبة تشويق المستمعين، وبراعة استهلال الخطيب لخطبته، ويأتى ذلك بالتمهيد للموضوع بمقدمة مناسبة، أو حكاية طريفة، أو نكتة بارعة ، ولا بأس من قراءة بعض النصوص من المقطوعات، والاستدلال بنماذج واقعية من واقع البيئة ، أو احصاءات أو غير ذلك ، إذ كلما أحس السامع بجهود الخطيب وباخلاصه فى التحضير ، كلما كان أكثر احتراما له، وهذا يتطلب ضرورة تقسيم الخطيب لموضوعه، وأن يجعل له عناصر أساسية يوضحها للمستمعين، فيقول مثلا : (تقوم هذه القضية على ثلاثة أصول) .

أو يقول :(سنتحدث اليوم فى أربع مسائل، أولاها كذا ثانيها كذا .

(١) كيف ندعو الناس ص ٥٣ .

إلخ) ثم يلتزم بهذا التقسيم أثناء الكلام، ويعود لعناصر البحث بترتيب ويقظة كلما همّ أن يستطرد، وميزة هذه الطريقة، أن الناس إن عجزوا عن استيعاب التفصيلات، فلن يعجزوا عن استيعاب العناصر الأساسية، التى عرضها المتحدث واضحة مقسمة، وبامكان كل منهم أن يفسرها لنفسه . وبهذا يظل الموضوع حيّاً واضحا فى الأذهان، باقيا ببقاء القرينة وهى التقسيم فتحديد الفكرة، وحصر الأهداف من البداية، يساعد على الفهم . وعلى العكس من ذلك سترى الكلام الكثير المهوش، ينسى بعضه بعضاً ويضيع أوله آخره .

وقد ذكر أحد العلماء، أن أحد الخطباء ألقى خطبة طويلة استغرقت ساعتين بعد أن انتهى منها ترجه إليه أحد المستمعين وكان نائماً وقال له :

سامحنى يا سيدى : (ماذا قلت الليلة) وكان الخطيب مرهقاً فأجابه قائلا : سامحنى يا سيدى فقد نسيت [1] .

عاشراً :

لابد **أن يعيش الخطيب واقع الناس**، ولاداعى لأن يجر السامعين إلى أعماق التاريخ، إذ لافائدة من ذلك إذ أن التاريخ يدرّس لنا لنأخذ منه الحكم والعبر، نقيس عليها أو نستفيد منها لراقعنا، لاليجعله مادة للوعظ والتربية إذ أن التربية والتوجيه، تستمد منهاجها عادة من الواقع الحى لكل مجتمع بذاته، بمعنى أنها تختلف باختلاف الزمن، ثم تختلف باختلاف البيئة ، وإذاً فالانشغال دائماً بقصص التاريخ، يعتبر خروجاً على الموضوع ، ولا مانع من عملية المقارنة بين القديم والجديد، على أساس ضرب المثل للعظة والاعتبار ، لكن لا يصح كما قلنا أن نحكى التاريخ القديم كتاريخ فقط .

---

(١) المرجع السابق ص٥٣ بتصرف .

حادي عشر :

لعل من أهم الأمور التي يجب أن يهتم بها الخطيب الداعية إتقان التلاوة للقرآن الكريم وحسن إيراد الحديث الشريف، وهذا يفرض على الخطيب أن يعيش في معاني القرآن الكريم، ويميز بين الجمل الإنشائية والخبرية، وبين ما هو تساؤل وما هو تقرير ، فعدم اهتمامه بالوقف عند أماكن الوقف، وقراءة القرآن بطريقة واحدة، دون مراعاة لاستفهام، أو وعد، أو وعيد، أو غير ذلك، لايؤدى إلى نتيجة ، والمعروف أن حسن الأداء للقرآن الكريم يجعله عند المستمع كأنه مفسّر .

كما أن حسن إيراد الحديث الشريف، يقتضى منه الإلمام بمصطلح الحديث، وهو أمر غير عسير ، وذلك لإمكان تمييز الصحيح من غيره .

وبعض الخطباء يسمع كلاما فيعجبه معناه، فيطرحه ويستشهد به استناداً لهذا الإعجاب - وقد لايكون حديثاً أصلاً - وقد يكون موضوعاً أو مقلوبا أو غير مسند ، ويتداوله غيره من بعده فيكثر الخطأ ويتضاعف .

ولذا فعلى الخطيب إما أن يذكر الحديث بسنده وتخريجه كما ورد في كتب الصحاح وإما أن يكتفى بذكر الصحابي وذكر صاحب التخريج، فيقول مثلا جاء في صحيح البخاري عن أبي هريرة أن رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ قال : " ....

ولا بد أن يتحرز من ذكر الأحاديث التي لم يتأكد من صحتها ، لأن الحديث دين، يُحلّ حلالا ويحرّم حراما.ولذا فلابد من العناية به والحذر من الخلط فيه لقوله ﴿ ﷺ ﴾ :(**من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار**).

ولا مانع عند الضرورة ، من ذكر الحديث بمعناه، ولكن بشرط أن يكون متأكدا من صحته أساساً .

ولابد أن يلاحظ الخطيب أن هناك اضطراباً عند كثير من المسلمين، بين المنهاج العقلي والمنهاج النقلي ، ولذا كان لابد على الخطيب الداعية أن يخاطب الناس بما يعقلوه وبما يفقهوه، فإن الحجة المقنعة كالطعام الجيد

يهضمها العقل وينتفع بها ، ولذا فإن الخطباء مطالبون دائما بأن يسوقوا تفسيراً مقبولا لما يدعون الناس إليه ، ولا يلام أحد إذا رفض ما يستسيغه عقله (مادام داخلا فى دائرة اختصاص العقل) .

ونعنى بذلك، الأمور التى يعرض لها الخطيب مما لم يقرر الدين فيها حكماً معيناً، أو التى تقع تحت طاقة الحواس الخمس، وخصائص العلاقات الإنسانية والسلوك البشرى، لأن دور العقل فيها هو الدور الرئيسى ، ولولا ذلك ما تقدمت البشرية خطوة واحدة .

أما الأمور التى تقع تحت طائلة المدركات، وهى ما تعرف باسم (الغيب) كوجود الله، واليوم الآخر، والجنة والنار . . الخ) فإنه برغم أن المسلم مطالب بأن يؤمن بها ، وأن يصدّق المنقول عنها . إلا أن على الخطيب أن يراعى عدم الخوض فى التفاصيل ، وبخاصة ما لم يثبت فى هذه التفاصيل من نصوص حتى لا يحدث بلبلة وخللا بعقول الناس .

وقد روى عن على رضى الله عنه قوله : (**أتحبون أن يكذب الله ورسوله ؟ حدثوا الناس بما يعرفون ودعوا ما ينكرون**)[1]وعلى الخطيب أيضاً أن يتجنب الأحاديث النبوية التى تُشكّل على جمهور الناس، ولا تسيغها عقولهم وثقافتهم ، لأن لها تفسيرات وتأويلات قد لا يهضمونها - وربما كانت أعلا من مستواهم ، أو تَغُص فى حلوق بعضهم ، مثل حديث الذبابة أو حديث سجود الشمس كل يوم تحت العرش، أو ما شابه ذلك من الأحاديث .

فليس من فقه الداعية أن يتلو على مسامع الناس هذه الأحاديث بغير ضرورة تقتضيها ، ولا مناسبة تُوجبها، بل الداعية الفقيه هو الذى يعنى بالأحاديث التى لها صلة بواقع الناس. ويتحرى البعد عن المتشابهات والمشكلات ومالا تبلغه عقول الناس [2] .

---

(١) ثقافة الداعية للدكتور يوسف القرضاوى ص ٧١ .

(٢) " " " " " " " .

ثانی عشر :

على الخطيب أن يعرف أن التركيز والتلخيص هما من أسباب نجاح خطبته، ويتم ذلك بعرض المعلومات التى يتناولها الموضوع ،ثم يعيدها بشكل موجز مختصر .

وهذه الطريقة مع كونها مفيدة للمستمعين، إلا أنها تمثل الانطباع الأخير، الذى يجعل المستمع ينصت للخطيب، كما أن التلخيص الأخير يزيده علماً بما فات ويذكِّره بما نسى، ويجعل له ما كان متصلاً ، فيقول المحاضر مثلاً :

لقد عرضنا عليكم موضوع كذا . . . وكذا . . وقلنا فيه كذا . . . ثم انتقلنا إلى كذا . . وخرجنا بالنتيجة الأخيرة . . وهى تشمل كذا نقطة . . . أولاها . . وثانيها . . وثالثها . . . إلخ .

قد يظن بعض الناس أن الدعوة مادامت تقوم على قول الكلمة الخيّرة فبإمكان أى إنسان أن يقوم بها فى أى وقت وفى أى مكان ، وهذا خطأ كبير يقع فيه كثير من الدعاة . لأن الدعوة ليست مجرد كلام يقال، قد يُقبل وقد يرفض، وإنما هى فنّ وقيادة لايصلح لها كل الناس، كما أنها تقوم على التخطيط العلمى والمتابعة المستمرة، وبعض الدعاة قد يتسبب - حين لايقدّر الأمور قدرها - فى إهانة نفسه، وإهانة مايدعو إليه أيضا. فهناك دعاة لايحالفهم التوفيق فى المنطق والأسلوب، أو اختيار الوقت المناسب، فيرفُضون وتُرفض دعوتهم .

وفى نفس الوقت نجد دعاة موفقين، آتاهم الله قدرة فائقة على التبليغ، وتراهم يألَفون ويُؤلَفون، وقد ألقى الله لهم القبول فى قلوب الخلق .

ومع ذلك فإن الجميع بحاجة إلى معرفة مبادىء الدعوة، وأساليب تبليغها والتدرب على ذلك، لأن الدعوة فنّ يُتلقى، وقواعد وأساليب تطوّر، ووسائل تتأثر بالتحديث والمعاصرة، وإذا كان أعداء الإسلام يضعون العقبات فى طريق الدعوة، فقد يضع المسلم نفسه وهو لايعلم، عقبات أيضا فى طريق هذه الدعوة بسبب سوء تصرفه، حيث يضجَر مثلا ويضيق صدره، حين يحس بعدم تقبل دعوته، ويرفض الاستجابة إليه أو عدم الاهتمام بما يقول، ولاشك أنه بسأمه وقصر نظره، وضيق صدره، يضع عقبات فى طريق دعوته ، والداعية الناجح هو الذى لايفقد صوابه واتزانه، مهما كانت الظروف والأحوال .

وعلى الدعاة أن يعرفوا أنهم يبتغون إيصال الحق والهدى إلى قلوب الناس، وليس لهم أن يتصوروا أنفسهم فى حلبة مصارعة، يودون الظفَر على خصومهم والانتصار عليهم بأى طريق وأى سبيل ، ويريدون أن يثبتوا لمن يجادلونهم أو يناقشونهم، إثبات تفوقهم فى الحجة والدليل ، ولعل هذا هو السبب فى أن المولى سبحانه، دعا إلى استعمال الحكمة والموعظة الحسنة،

والمجادلة بالتى هى أحسن .

فالدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة، هى التى تؤدى إلى كسب الأنصار، بينما تبقى المجادلة بالتى هى أحسن، لإقامة الحجة على الخصوم . واستعمال الحكمة والموعظة الحسنة يجعل المدعوين يقفون مباشرة أمام الدعوة، فى حين أن الغلظة تكون حاجزا ومانعا لوصول الدعوة إلى قلوب المدعوين . وقد رأينا كيف أمر الله موسى أن يدعو فرعون، باللين فقال له ولأخيه هارون {اذهبا إلى فرعون إنه طغى. فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى } فاللين شعار كل دعوة، وهو أقطع من الشدة، وأقدر على إيصال الكلام إلى قلوب المستمعين ، وكثيرا مايجد الداعية عقبات فى طريقه، بسبب كلمة قالها، أو تصرف أساء فيه للمدعوين .

أسلوب الخطاب

ولايصح أبدا أن يتصور الداعية أنه مادام المدعو على خطأ، فإن من حقه أن يبيّن له خطأه بأى أسلوب، ويحرجه أمام الناس ، ولو فكرنا جيدا فى قول المولى سبحانه لموسى وهارون { اذهبا إلى فرعون إنه طغى فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى } لعرفنا كيف تكون الدعوة ؟ وكيف يتعامل الداعية مع المدعوين ؟ فمع طغيان فرعون كما تقول الآية، لم يقل المولى لموسى وهارون بيّنا له طغيانه، وإنما قال لهما: (فقولا له قولا ليّنا لعله يتذكر أو يخشى).

لأن الداعية إن أراد أن يصل إلى رتبة البلاغ، فإن عليه أن يخاطب المدعوين باللين لا بالغلظة والشدة ، بل عليه مع التلطف معه، والرفق به، أن يتخيّر له أحب الأسماء إليه، وأقرب الأساليب إلى قلبه، وعليه أن يعرف أن هذا اللين مع المدعو يجب ألا يؤدى إلى التساهل فى أحكام الشرع، ولا إلى مجاراة أهل الباطل على باطلهم، ولافى السكوت مطلقا على المنكرات، لأن

المؤمن على كل حال، لايخشى إلا الله ولايرجو إلا ثوابه .

تنويع الأساليب

وتنويع الأساليب لابد منها للداعية، لأن مالايصل إليه بالجهر قد يصل إليه بالسر ، ومالايصل إليه فى الليل قد يصل إليه فى النهار ، وما لايستقر فى القلوب مع انشغالها، قد يستقر فيها عند فراغها ، والذى لايؤثر فى الصحيح قد يؤثر فى المريض وهكذا .

وفى سورة نوح، تطبيق كامل لهذا المبدأ وهذه القاعدة، قال تعالى على لسان نوح **(قال رب إنى دعوت قومى ليلا ونهارا، فلم يزدهم دعائى إلا فرارا، وإنى كلما دعوتهم لتغفر لهم جعلوا أصابعهم فى آذانهم، واستغشوا ثيابهم وأصروا واستكبروا استكبارا، ثم إنى دعوتهم جهارا، ثم إنى أعلنت لهم وأسررت لهم إسرارا فقلت استغفروا ربكم إنه كان غفارا)** [1].

يقول ابن كثير [2]: إن نوحا نوّع عليهم الدعوة، لتكون أنجح، فدعاهم بالليل حيث السكون الداعى إلى حسن الاستماع ، وحيث النجوم الدالة على خالقها ومنشئها ، ودعاهم بالنهار، حيث العمل.واللقاء.والمحاورة.والمناظرة ، وكان شأنهم التنكر له عندما يدعوهم، ولكنه لم يتنكر لهم، بل واصل دعوته، وأمعنوا فى التنكر فوضعوا أصابعهم فى آذانهم، وتلفعوا بثيابهم، وصاح بأعلى صوته كى يصل إلى أسماعهم ، ولما ألقوا بأسماعهم أسر لهم إسرارا ويقول القرطبى: أسررت لهم **(أى أتيتهم فى منازلهم)** وهذا فهم طيب للإمام القرطبى. إذ أن الذهاب بالمدعو بعيدا عن أعين الناس، أبلغ فى التأثير، فى حين أن اللقاء معه أمام أعين الناس، قد يسبب له حرجا بالإضافة إلى أنه ينبه أعداء الإسلام، فيحاولون ضرب هذه العلاقة بمجرد معرفتهم بهذه الصلة، وقد

---

(١) سورة نوح الآيات من ٥ : ١٠.   (٢) تفسير ابن كثير.

يحذّرون المدعو ويطلبون منه عدم الاستماع إلى الداعى أو الدعوة ، فيؤدى ذلك إلى عدم استجابة المدعو أو تأخيرها ، وبخاصة حين يكون ذلك قبل أن تتمكن الفكرة فى نفس المدعو، ويعرف حقيقتها ويقتنع بها .

اختيار المناسب لكل فئة أو جماعة

وإذا كانت الدعوة تقوم على الحكمة والموعظة الحسنة، فإن من الحكمة أن يعرف الدعاة مايناسب كل فئة أو جماعة من الناس ، والمنكرات تختلف فى نوعها ، كما تختلف فى تمسك الناس بها من مكان إلى مكان، ومن عصر إلى عصر ، والمعروف أن العادات إن تكررت ومر عليها زمن طويل ، أصبحت غرائز وعقائد مرتكزة فى النفس، وتحتاج إلى فنية واقتدار لمعالجتها ، ومحاولة بيان مخالفتها لأحكام الإسلام ، ولذا فعلى الداعية ألا يبدأ مباشرة فى مصادمة هذه المعتقدات، مع أنه مطالب أساسا ببيان الحق وإعادة الناس إلى الطريق القويم، على خلاف ما إذا كانت هذه البدع والأفكار الخارجة، لم تترسخ فى النفوس بعد ، ولم تصبح ظاهرة من الظواهر، ويعلم غالبية الناس أنها تخالف شرع الله وأحكام دينه، وهنا تكون الحكمة فى معالجة هؤلاء وأولئك ، وعملية مواجهة الدعاة للمدعوين، وتخطيئهم وتجهليهم، ومواجهتهم بزيف معتقدهم ليس من الحكمة فى شىء، بل سيكون ذلك من أسباب رفض الدعوة والداعية على حد سواء ، والداعية الحكيم، لايقول كل مايعرف لكل من يعرف ومن لايعرف ، ويجب أن يتعامل مع العقول حسب مقدرتها لاحسب مقدرته، حتى لايحمّلها فوق طاقتها ، وقد فسر ابن عباس رضى الله عنهما قول الله تعالى **(ولكن كونوا ربانيين)** بأن معناها كونوا حلماء فقهاء، ويقول الإمام البخارى : **(ويقال الربانى الذى يربى الناس بصغار العلم قبل كباره)** [1] .

ويعلق ابن حجر على هذا الكلام فيقول : والمراد بصغار العلم ماوضح من

(١) صحيح البخارى متن فتح البارى جـ ١ ص ١٦٠.

مسائله ، وكباره : مادق منها (١) .

بأى شىء يبدأ الدعاة

ولاشك أن بدء الداعية بصغار العلم، مرجعه مراعاة العقول حتى لاتنفر من الدعوة .

وهذا يجعلنا نقول : إنه لايصح أن يخاطَب كل الناس بكل مايرغب الداعية فى توصيله إليهم ، وقد قلنا:إنه يجب أن يتعامل مع العقول حسب مقدرتها لاحسب مقدرته ، وربما كان هذا من أسباب أن البخارى رحمه الله خصص بابا فى صحيحه أسماه (**باب من خص بالعلم قوما دون قوم.كراهية أن لايفهموا**) وقال علىّ : (**حدثوا الناس بما يعرفون أتحبون أن يكذب الله ورسوله**) (٢)ولاشك أن إثارة موضوعات لايستوعبها عقول الناس بسهولة، خصوصا العوام منهم، قد يؤدى إلى عكس مايرغبه الداعية ، فليس كل الناس على قدر واحد من الفهم، أو عندهم القدرة على فهم المعانى بسهولة ووضوح ، وقد يؤدى عرض الداعية لموضوع من الموضوعات التى لايستوعبها العامة ولايفهمها إلا الخواص، إلى الشك فيما يقال ، أو فهمها فهما خاطئا، فيتخذها المستمع وسيلة لشىء آخر قد لايقره الشرع، ولايرتضيه الذوق السليم بل قد يكون ذلك من أسباب الهجوم على الدعوة من أعدائها الكثيرين، الذين يتربصون بها الدوائر .

يقول الإمام ابن حجر عليه رحمة الله: (ومن كره التحديث ببعض دون بعض)(٣) .أحمد ومالك فى أحاديث الصفات، وأبو يوسف فى الغرائب (٤)

(١) فتح البارى جـ ١ ص ١٦٢ .

(٢) صحيح البخارى متن فتح البارى جـ ١ ص ٢٢٥ .

(٣) أى كره الحديث ببعض الأحاديث التى لايفهمها العامة .

(٤) فتح البارى جـ ١ ٢٢٥ .

وقد روى البخارى عن أبى هريرة أنه قال :(حفظت من رسول الله ﴿ﷺ﴾ وعاءين فأما أحدهما فبثثته (أى ذكرته وأعلنته) وأما الآخر فلو بثثته لقطع هذا البلعوم) والمقصود به أحاديث الفتن.

وقد أخرج الإمام مسلم بسنده إلي ابن مسعود أنه قال: (ماأنت محدثا قوما حديثا لاتبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة) (١)

وقد بلغ الأمر بالنبى ﴿ﷺ﴾ أنه طلب من معاذ بن جبل ألا يخبر الناس بكلام أخبره به ورواه له،حتى لايحمل الناس هذا الكلام إذا سمعوه على محمل خطأ ، ويفهموه فهما خاطئا حين يأخذونه على ظاهره ، فيتركون العمل ويكتفون بالإقرار لولا أن معاذا خشى أن ينقطع الحديث بوفاته،فأخبر به ليبقى وفى ذلك يروى البخارى أن النبى ﴿ﷺ﴾ قال : (يامعاذ بن جبل ، قال : لبيك وسعديك ، قال : يامعاذ ، قال : لبيك وسعديك . قال :لبيك يارسول الله وسعديك (ثلاثا) قال : مامن أحد يشهد أن لاإله إلا الله وأن محمدا رسول الله من قلبه إلا حرمه الله على النار، قال : يارسول الله أفلا أخبر به الناس فيستبشرون؟ قال : إذاً يتكلوا ، وأخبر بها معاذ عند موته تأثما) .

تناسب الخطاب مع المخاطبين

إذا كنا قد ذكرنا بأن من الحكمة أن يعرف الداعية المناسب من الدعوة لكل فئة من الناس، وأن الداعية الحكيم يجب ألا يقول كل مايعرف، لكل من يعرف ومن لايعرف.وأن يتعامل مع الناس حسب عقولهم ومقدرة هذه العقول على الفهم والاستيعاب، حتى لايتسبب فى صدود الناس عنه وعن دعوته ، فإن علينا أن نعرف، بأن الناس أمام هذا الأصل أصناف، يحتاج كل صنف منهم إلى معاملة خاصة، وأسلوب خاص، بل يحتاج كل صنف منهم إلى دعاة مخصوصين مدربين، يعرفون قواعد الدعوة لكل صنف من هذه الأصناف، دعاة مدربين تدريبا عمليا على فنّية الدعوة، ومخاطبة المدعوين، ولاشك أن تعرّف

(١) المرجع السابق جـ١صـ ٢٢٦ .

الداعية على مخاطبة جماهير معينة من الناس، وتكرار لقائه بهم، ودعوته إياهم، يكسبه مقدرة خاصة على فهم طبيعة وإمكانية هذا الجمهور. الذى يخاطبه ويتعامل معه، والداعية الذى يعيش مع صنف معيّن محدد من الناس، يصبح أقدر من غيره على إفهامهم وإقناعهم ، وقد يصعُب عليه مخاطبة صنف آخر، ونوعيات أخرى من الناس، قد تضطره الظروف للجلوس معهم، وعرض القضايا الدعوية عليهم ، فلاشك أن كثرة الجلوس مع نوعيات معينة من الناس، سيكون له أثر كبير على أسلوبه وطريقة عرضه، والنماذج والأمثلة التى يضربها لهم ، ولذا فقد يظهر أمام هذه النوعية الجديدة من الناس، وكأنه فاشل فى عمله، غير قادر على أداء مهمته ورسالته ، ولكن الحقيقة: أنه لم يتعود على مخاطبة مثل هذه النوعيات، حيث تأثر كثيرا بالأسلوب الذى يتعامل به مع النوع الاخر .

ولذا فلابأس عندى من تخصّص بعض الدعاة، لمخاطبة أصناف محددة معينة، يتدربون على مخاطبتهم، ويعرفون حاجاتهم الخاصة، وظروف حياتهم، ويتدربّون على استعمال الوسائل القريبة إلى قلوبهم التى تتناسب معهم، وأعترف: أنى أجد صعوبة فى كثير من الأحيان، فى توصيل كثير من المعلومات إلى عقول العوام من الناس، مثل الفلاحين، أو العمال، أو غيرهم، من أصحاب المهن والحرف، التى قد لاأعرف مايرضيهم أو يستهويهم، أو يشحذ هممهم، ولاشك أن بعض الدعاة العاديين، حتى من أنصاف المتعلمين، ممن يعيشون وسط هذه البيئات، يكونون أكثر قدرة منى. ومن غيرى من أصحاب الدراسات التخصصية، ممن تعودوا على مخاطبة المتعلمين من خريجى الجامعات، أو من أصحاب التخصصات العلمية المعينة .

وهذا لايعيب الداعية إطلاقا، ولايشكك فى مقدرته العلمية أو تحصيله لعلوم الدين، وإن كان هذا لايمنع من تعويد الدعاة أنفسهم على مخاطبة كل الأصناف من الناس، وأن يتعودوا التعامل معهم والجلوس إليهم، ومعرفة الوسائل التى يحتاجون إليها وذلك عند الضرورة.

ونستطيع أن نقول: إنه بإمكاننا أن نصنف الناس إلى أصناف ثلاثة : -

١- الصنف الأول : (العوام غير المتعلمين)

وقد يتصور بعض الناس أنهم أسهل الأصناف التي يمكن للدعاة أن يتعاملوا معهم، بل على العكس من ذلك ، فالتعامل مع غير المتعلمين في غاية الصعوبة، وبخاصة إذا كانت دعوتنا لهم يترتب عليها تغيير أفكارهم، أو تغيير ماألفوه من عادات ، وحال هؤلاء كحال المبتدىء في تعلم القراءة والكتابة، ولذا فإنه إذا لم يستعمل معهم الأسلوب الملائم لفكرهم وقدراتهم، قد ينصرفون عن الدعوة، ويرفضون الاستماع إلى الداعية ، ولذا فإن الأمر في منتهى الحساسية، فيجب ألا يجد هؤلاء الناس صعوبة أو تعقيدا فيما يعرض عليهم، سواء كان من ناحية المعنى أو من ناحية الأسلوب، فالمسائل العويصة، والتفاصيل الدقيقة، والبراهين المعقدة، والنظم المتشعبة، لايصح أن تُلقى عليهم، وذلك لأن هذا الصنف من الناس يعتمد على الحس أكثر مما يعتمد على الفكر أو الكلام المجرد ، كما أن حاجاتهم الخاصة وظروف حياتهم لها أثر كبير عليهم ، ولذا كان لابد من أن تكون الوسائل أقرب إلى قلوبهم ، والأمثلة من واقع بيئاتهم وحياتهم.

ولعلنا نلاحظ أن القرآن الكريم ركّز على هذا الجانب، وخاطب المشركين في مكة بأسلوب يتناسب مع بيئتهم الصحراوية فمثلا يقول القرآن: (**أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت.وإلى السماء كيف رفعت.وإلى الجبال كيف نصبت.وإلى الأرض كيف سطحت**) (الغاشية) .

وهذا نلاحظه أيضا في دعوة كل الأنبياء لأقوامهم، حيث كانوا يلفتون أنظار العامة إلى المشاهدات الحسية في بيئتهم وأنفسهم، بالإضافة إلى مخاطبة المثقفين منهم بأسلوب التحليل والاستنتاج ودلائل الإعجاز .

ولاشك أن الأمثلة المنتزعة من البيئة الخاصة، هي الأمثلة المفهومة، وعوام الناس تحركهم العاطفة أكثر مما يحركهم العقل، وهؤلاء العوام يحتاجون

للترغيب والترهيب، لأن لهما فى نفوسهم أثر كبير، كما يشحذ هممهم قصص الصالحين وأحداث السيرة على طريق السرد ، لا عن طريق التحليل . ولذا فإن هذا الصنف يحتاج للتخصص فى فن دعوتهم ومخاطبتهم .

٢- الصنف الثانى: المتعلمون من خريجى الجامعات ومن فى مستواهم علما ومعرفة .

وهؤلاء لابد من مراعاة منزلتهم العلمية، ومعرفة أنهم يبحثون عن التحليل، والاستنتاج، والمعنويات، ودلائل الإعجاز، وهم يحتاجون أيضا إلى أمثلة يفهمونها تتناسب مع مستواهم العلمى والمعرفى، ولابد أن يكون الدعاة لهؤلاء على مستوى طيب وفهم كبير لكثير من موضوعات العلوم، والذى يستطيع مخاطبة العوام والتأثير فيهم، قد لايستطيع مخاطبة الخواص، ولابد لنا أن نعرف أن هؤلاء إذا خاطبهم من هو دونهم فقد يفتنهم ، وقد لايرضيهم مايقوله، فيبتعدون عنه ويستنكرون قوله ، وقد يحاربون دعوته استنادا إلى فهمه الخاطىء للأسلوب الذى كان يمكن أن يتعامل به معهم .

٣- أما الصنف الثالث: فهم أصحاب التخصصات العلمية، وهؤلاء لايصلح معهم إلا دعاة من نوع خاص . فلكل تخصص مصطلحاته ووسائله ، والداعية الذى يتعرف على هذا المناخ الخاص، يكون أقدر على توجيهه، ولفت نظر أصحابه إلى دلائل مما فى أيديهم، فالداعية الذى يجلس بين المحامين يخاطبهم ويناقشهم، يحتاج ولاشك إلى معرفة شىء عن القوانين، ومعرفة الصالح والطالح منها ، والذى يجلس مع الأطباء يكون تأثيره قويا إذا عرف بعض الجوانب التى تلفت نظر الطبيب، وتوقفه على عظمة الله تعالى وتدرته فى خلق الإنسان ووظائف أعضائه ، وإذا كان هذا الداعية من المتخصصين فى الدعوة، المتفرغين لها، المزودين بالعلوم الشرعية ، فلاشك أن النتيجة ستكون أفضل، وأن المردود سيكون أعظم.

ومن هنا فإننا دائما مانكرر: بأن على الدعاة أن يثقّفوا أنفسهم بكل أنواع

الثقافات، وأن ينوعوا معارفهم، وإذا كُلّف أحدهم بالدعوة فى قطاع متخصص، فالأجدر به أن يدرس هذا القطاع، وأن يزوّد نفسه بالمعرفة فى هذا الجانب الثقافى .

وأذكر أنه بعد تخرجى من قسم الدعوة والإرشاد بكلية أصول الدين جامعة الأزهر، عينت واعظا بالقوات المسلحة، وتنقلت بين وحدات عسكرية متنوعة، وقد كنت حريصا على قراءة كثير من المعارك الحربية القديمة والحديثة فى كتب التاريخ ، وكثيرا ماكنت أتناقش فى بعض القواعد العسكرية وفنون الحرب والقتال، مع بعض الضباط ومدرسى هذه العلوم، خاصة حين نقلت واعظا للكلية الحربية بالقاهرة ، وقد استطعت بعون الله أن أجمع كثيرا من القواعد العسكرية من خلال القرآن والسنة ، وأن أبيّن للطلاب والضباط كثيرا مما يجهلونه، من التخطيط العسكرى للرسول ﴿ﷺ﴾ فى غزواته وسرياه ، كما كنت أحاول المقارنة بين خطط خالد بن الوليد، وسعد بن أبى وقاص، وغيرهما من القادة العسكريين فى دولة الإسلام الأولى، وبين من يعتبرونهم من قواد الحرب العظام، من أمثال نابليون بونابرت، وهتلر، وموسولينى، ومنتجمرى وغيرهم، ممن يفخر بهم الغرب الآن ويفاخر.

مراعاة القواعد والضوابط الدعوية :

إذا كنا قد ذكرنا بأن على الداعية ألا يسوى بين الناس فى الدعوة، ويجب أن يراعى ضرورة التفريق فى المنهج والأسلوب، بين معالجة المنكر العارض، والمنكر المستحكم، والمنكر الخاص، والمنكر العام. على ألا يعطى الشيء أكثر من حكمه، وألا يكون قد أخرجه عما هو له ، فعليه أولا أن يعرف: هل هذا الأسلوب وهذا المنهج يؤدى إلى النتيجة ويتناسب مع المدعوين أم لا؟ لأن القاعدة الشرعية أن درء المفاسد مقدم على جلب المصالح- كما أن الضرر الأعلى يُدفع بالضرر الأدنى، وصدق الله حين يقول (فذكّر إن نفعت الذكرى).

وقد ساق البخارى حديثا ترجم له بقوله (باب من ترك بعض الاختيار مخافة أن يقصر فهم بعض الناس عنه - فيقع فى أشد منه) ، ثم اخرج من طرقه إلى (الأسود) قال : قال لى (ابن الزبير): كانت عائشة تُسرّ إليك كثيرا، فما حدثتك فى الكعبة ؟ قلت: قالت لى: قال النبى ﴿ﷺ﴾ : ياعائشة لولا أن قومك حديثٌ عهدهم، لنقضت الكعبة فجعلت لها بابين باب يدخل الناس وباب يخرجون [1] .

يقول ابن حجر عليه رحمة الله تعليقا على هذا الحديث (ويستفاد منه ترك المصلحة لأمن الوقوع فى المفسدة) .

ونقول: ان كثيرا من الشباب يخطىء حين يركز على جوانب معينة من الدعوة ، قد تكون من السنن أو المستحبات، ويركز عليها كأنها أصول، ويترك أموراً أخرى هى من الأصول وأهم مما يركز عليها، وقد يؤدى ذلك فى بعض المجتمعات إلى فهم الإسلام فهما خاطئا، واتهامه باتهامات تشوهه، وقد يعطل بذلك أمورا كان بالإمكان الحصول عليها، مالو أجلنا مثل هذه القضايا إلى وقت يناسبها، وظروف أخرى يمكن أن يستجيب الناس إليها ولنضرب لذلك مثلا :

---

(١) صحيح البخارى متن فتح البارى جـ١ ٢ ص ٢٢٤.

الأخذ بظواهر النصوص وإن أدت إلى تشويه صورة الإسلام

هناك أمور خلافية مثل مسألة النقاب بالنسبة للمرأة، أو غير ذلك من قضايا اختلف فيها الفقهاء، يأتى بعض الدعاة ممن يعتنقون رأيا معينا من هذه الآراء، ويركزون على الدعوة إليها وتخطيىء غيرهم ممن يعتنق الرأى المخالف لهم، ويركزون على هذه القضية وحدها، مع أن هناك موضوعات أخرى تهم الناس أكثر، وتشغل بال الكثيرين منهم، بالإضافة إلى أن أتباع الرأى الآخر، قد يكونون من الكثرة والتعصب للرأى الذى يرونه هم، بحيث يصعب على هؤلاء الدعاة إقناعهم بالرأى المخالف، بل قد يكون هناك بعض من يحاربون الإسلام من غير المسلمين، أو من المسلمين الذين يعتنقون فكرهم، يستغلون مثل هذه القضايا، ليحاولوا أن يشوهوا الإسلام بها، ويثبتوا من خلالها عدم قدرة الإسلام على مسايرة العصر، ويأخذون من ذلك دليلا عن تخلفه أو تشدده ، ولانقول:

إنه يجب أن نساير هؤلاء أو نستسلم لهم، لكن علينا ألا نتعصب لآرائنا ونتمسك بها، مادامت غير قاطعة حتى لايؤدى ذلك إلى ضرر بالدعوة ذاتها .

ولنضرب مثالا آخر: الديمقراطية بمفهومها العام لاتتفق مع الإسلام ، لكن معظم الشعوب الآن تتعامل مع هذا الاسم، على أنه يعنى الحرية، والمساواة بين الناس، وإعطاء الناس حقوقهم، وحكم أنفسهم بأنفسهم دون طغيان- وبصراحة شديدة- فإنه يقال الآن: إن الإسلام يرفض الديمقراطية ولايقرها، ومعناه فى نظر كثير من الناس، أن الإسلام لايسوّى بين الناس فى الحقوق والواجبات ويقر الدكتاتورية وتسلط طبقة الحكام فى عامة الناس ، وقد يُنهى هذه المشكلة أن نقول: إن الشورى فى الإسلام هى بذاتها الديمقراطية، بشرط أن يكون حكم الشعب للشعب محدودا بحدود الشريعة الإسلامية ، فهى ديمقراطية أيضا، لكنها ليست بمعناها العام المطلق.وهى أحقية ممثلى الشعب فى التشريع بدون ضوابط، طالما أقرت الأغلبية ذلك، وبخاصة أن كلمة

الشورى قد لاتكون واضحة المعنى عند كثير من الناس أو الشعوب في هذا العصر ، فقد يفهم الناس أن هذه الشورى غير ملزمة للحاكم كما يقول بعض علماء المسلمين أنفسهم[1]، كما قد يفهم حين يقال إننا نريد تطبيق النظام الإسلامى الذى يرفض الديمقراطية، بأننا ندعو إلى مايسمونه حكم رجال الدين، مع أن الإسلام لايعرف هذا النظام، وقد استغل أعداء الإسلام قيام هذا النظام فى إيران، فادعوا أن الدعوة لتطبيق النظام الإسلامى أو الشريعة الإسلامية هى الدعوة لقيام حكم رجال الدين .

---

(١) يرى هذا الرأى، فضيلة الشيخ محمد متولى الشعراوى وآخرون - (المؤلف) .

كيف يتعامل الدعاة مع القضايا المختلف فيها ؟

يشغل بعض الدعاة أنفسهم بدعوة غيرهم إلى اتباع مذاهبهم والإنكار على غيرهم ماهم عليه، حتى وإن كانوا يستندون إلى مذاهب أخرى تقرهم على مايفعلون ، وهى مذاهب صحيحة أيضا، لهاقدرها ومكانتها فى قلوب أتباعها .

ولعل ذلك من أسباب تخلف الدعوة فى هذا العصر، بسبب انشغال كثير من الدعاة بهذه القضايا الجانبية، وتركيزهم على الاختلافات الفقهية، وتعصبهم لمذاهبهم كأنها وحدها هى الحق وغيرها الباطل، أو هى الصواب وغيرها الخطأ الصريح .

مما يثير النزاع والشقاق ويولّد الأحقاد، مع أن المتتبع لأقوال العلماء فى ذلك الأمر، يرى أنهم وعلى مختلف المذاهب وفى كل العصور شبه مجمعين على أن من شروط الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، أن يكون المنكر المنهى عنه مُتفقا على كونه منكرا، وبعض هؤلاء الدعاة، قد لايكون مستوعبا لآراء الآخرين فى هذه المسائل التى يصمّم على فرضها على الناس .

وقد روى أبو نعيم بسنده عن الإمام الثورى عليه رحمة الله أنه قال :

(إذا رأيت الرجل يعمل العمل الذى قد اختلف فيه وأنت ترى غيره فلا تنهه) (١) .

كذلك روى الخطيب البغدادى عن أبى نعيم أيضا أنه قال :

(ما اختلف فيه الفقهاء فلا أنهى أحدا من إخوانى أن يأخذ به)(٢).

---

(١) حلية الأولياء لأبى نعيم جـ ٦ ص ٣٦٨ .

(٢) الفقيه والمتفقه جـ ٢ ص ٦٩ .

كذلك يقول ابن رجب الحنبلي في كتابه (جامع العلوم والحكم) (والمنكر الذي يجب إنكاره ماكان مجمعا عليه ، فأما المختلف فيه فمن أصحابنا من قال : لايجب إنكاره على من فعله، مجتهدا أو مقلدا لمجتهد تقليدا سائغا، واستثنى القاضي في الأحكام السلطانية ماضعف فيه الخلاف [1]

ويقول ابن قدامة رحمه الله (لاينبغي لأحد أن ينكر على غيره العمل بمذهبه فإنه لاإنكار على المجتهدات [2].

أما الإمام الغزالي فيقول في كتابه (إحياء علوم الدين) عند حديثه عن الحسبة (مافيه الحسبة : كل منكر موجود في الحال الظاهر للمحتسب بغير تجسس معلوم كونه منكرا بغير اجتهاد) .

ثم يقول عند حديثه عن الشرط الرابع للمنكر :

(أن يكون كونه منكرا معلوما بغير اجتهاد،فكل ماهو في محل الاجتهاد فلا حسبة فيه . فليس للحنفي أن ينكر على الشافعي أكله الضب والضبع ، ومتروك التسمية . ولا للشافعي أن ينكر على الحنفي شربه النبيذ الذي ليس بمسكر، وتناوله ميراث ذوي الأرحام، وجلوسه في دار أخذها بشفعة الجوار،إلى غير ذلك من مجال الاجتهاد) [3] .

ويقول الإمام النووي في شرحه لحديث مسلم (من رأى منكم منكرا فليغيّره بيده .... الخ) مانصه :

" ثم إنه يأمر وينهى من كان عالما بما يأمر به وينهى عنه ، وذلك يختلف باختلاف الشيء، فإن كان من الواجبات الظاهرة، أو المحرمات المشهورة، كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والزنى، والخمر، ونحوها، فكل المسلمين عالم بها . وإن كان من دقائق الأفعال والأقوال ومايتعلق بالاجتهاد لم يكن للعوام

(١) نقلا عن الاحكام السلطانية ص ٢٩٧.

(٢) نقلا من الآداب الشرعية جـ ١ ص ١٨٦، ١٨٧ .

(٣) إحياء علوم الدين جـ ٢ ص ٣٨ ومابعدها .

دخل فيه، لأن إنكاره على ذلك للعلماء ، ثم العلماء إنما ينكرون ماأجمع عليه الأئمة ، وأما المختلف فيه فلا إنكار فيه، لأنه على أحد المذهبين : كل مجتهد مصيب، وهذا هو المختار عند كثير من المحققين أو أكثرهم، وعلى المذهب الآخر المصيب واحد، والمخطىء غير متعيّن لنا ، والإثم مرفوع عنه .

ويستطرد النووى فيقول :(ولكن إن ندبه على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف، فهو حسن محبوب، مندوب إلى فعله برفق، فإن العلماء متفقون على الحث على الخروج من الخلاف، إذا لم يلزم منه إخلال بسنة أو وقوع فى خلاف آخر .

وينسب الإمام النووى لأبى الحسن الماوردى نقلا من كتابه" الأحكام السلطانية " قوله :(بأن هناك خلافا بين العلماء، فى أن من قلده السلطان الحسبة، هل له أن يحمل الناس على مذهبه فيما اختلف فيه الفقهاء، إذا كان المحتسب من أهل الاجتهاد ؟ أم لايغير ماكان على مذهب غيره ؟ .

ويقول الماوردى: والأصح أنه لايغير لما ذكرناه ، ولم يزل الخلاف فى الفروع بين الصحابة والتابعين فمن بعدهم رضى الله تعالى عنهم أجمعين، ولاينكر محتسب ولاغيره على غيره، ثم يقول (وكذلك قالوا ليس للمفتى ولا للقاضى أن يعترض على من خالفه، إذا لم يخالف نصا ، أو إجماعا ، أو قياسا جليا ، والله أعلم) (١).

وقد نقل كل من العلّامة ابن حجر المكى، والعلامة الشيخ مُلاً على القارى، جزءا من كلام النووى السابق وأيدوه واعتمدوه (٢) كذلك نقل ابن حجر عن القرطبى قوله: (ماصار إليه إمام وله وجه ما . فى الشرع، لايجوز لمن رأى خلافه أن ينكره ، وهذا مما لايختلف فيه) (٣).

---

(١) راجع شرح مسلم للنووى جـ ٢ ص ٢٣

(٢) راجع مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح جـ ٥ ص٣ ، ٤ .

(٣) فتح المبين فى شرح الاربعين ص ٢٦٤

ويقول الدكتور محمد أبو الفتح البيانوني : بعد أن نقل هذه الآراء التي ذكرناها وآراء أخرى بنصها في كتابه (دراسات في الاختلافات الفقهية) يقول : كلاما جيدا أرى أن من الفائدة أن أنقله بنصه، يقول (١).

(ويظهر لنا مما سبق، أن العلماء متفقون على أصل هذه المسألة، وهو أنه لا ينكر على المخالف إذا كانت مخالفته في أمر اجتهادي ، وإن فرق بعضهم بين الخلاف القوي والضعيف).

والذي نميل إليه، ونراه أولى في الجمع بين الأقوال، وأسلم نتيجة في مسائل الاختلاف، أن نفصّل في المسألة تفصيلا يتعلق بنوع المسألة المختلف فيها من جهة ، وبنوع المنكر من جهة أخرى فأقول :

١- الأصل في المسائل الاجتهادية المختلف فيها عدم الإنكار، ويستثنى من ذلك مايلي : -

أ- ماكان الاختلاف فيه تاريخيا لايصح استمراره، كاختلاف السلف في الصدر الأول في حكم ربا الفضل، أو في حكم نكاح المتعة، الذي نقل العلماء رجوع المخالفين فيها إلى قول الجمهور، أو اعتبروا القول المخالف فيه قولا شاذا ، فالواجب في مثل هذا، الإنكار بمراتبه وشروطه المطلوبة .

ب- أما ماكان الخلاف فيه ضعيفا عند العلماء، فيفرق فيه بين حالين .

الحالة الأولى : ما اشتد ضعفه وكان مصادما لنص شرعي ثابت، وقال به قائله لشبهة ضعيفة ، كإباحة آلات المعازف مثلا فينكر عليه .

أما الحالة الثانية : ماكان اجتهادا لانص فيه مطلقا ، فلا إنكار على من عمل بأي قول من الأقوال إلاعلى سبيل النصيحة، والأمر والنهي برفق، خروجا من الخلاف. لأن مثل هذه المسألة وإن ضعفت عند كثير من العلماء، فقد تقوى عند غيرهم، وحسبنا فيها أنها اجتهاد لأحد الأئمة المعتبرين ، وإلا وقع

---

(١) راجع الموضوع من ص ٨٣ : ٩٤ من الكتاب المذكور.

النزاع والخلاف وثار الجدل، لأنها مسألة تتفاوت فيها الآراء والافهام [١].

ويضيف الدكتور / محمد البيانوني فيقول [٢]:

وهذا الذى ذكرناه فى الجهة الأولى، إنما هو موقف العالم العارف بالخلاف الوارد فى المسألة، أما العامى الذى لايفرق بين الأقوال الضعيفة وغيرها، فلايصح له أن ينكر فى شىء من المختلف فيه، إلا إذا عرف عن عالم موثوق به حكم المسألة ، أو اشتهر إنكار العلماء لمثلها ، فيكون إنكاره عندئذ تقليدا للعلماء، ذلك التقليد الذى لامصير لمثله إلا إليه، ولايكفيه مبررا للإنكار أن يرى غيره عاملا بخلاف مايعمله، أو ماأفتاه به أحد العلماء ، فما أكثر المسائل الاختلافية والاجتهادية التى يحسبها كثير من العامة مسائل قطعية لامجال للاختلاف فيها،وبها يُسدّ باب عظيم خطير،ويدفع عن المسلمين ويلات الشقاق والنزاع، الذى أدى بهم فى بعض الأزمنة إلى القتال والخصام .

ثم يقول الدكتور البيانوني[٣]: وسأختتم حديثى فى هذا الفصل بما ذكره العلامة الدهلوى رحمه الله، مبينا موقف العلماء من الاختلافات الفقهية، وسيرتهم العملية فى عدم إنكار بعضهم على بعض، حيث قال: (أى الدهلوى) وقد كان فى الصحابة والتابعين ومن بعدهم من يقرأ البسملة، ومنهم من لايقرؤها ، ومنهم من يجهر بها ، ومنهم من لايجهر بها ، وكان منهم من يقنت فى الفجر، ومنهم من لايقنت، ومنهم من يتوضأ من الحجامة والرعاف والقىء، ومنهم من لايتوضأ من ذلك، إلى أمثلة أخرى ثم قال:(ومع هذا فكان بعضهم يصلى خلف بعض، مثل ماكان عليه أبو حنيفة أو أصحابه

---

(١) وأرى أنه حتى لو كان هناك نص،إلا أنه ليس قطعى الدلالة ، وله تأويل سائغ عند العلماء المعتمدين، أو أن هناك نصا آخر يعارضه فى الظاهر وأمكن التوفيق بين النصين ، فإنه لايصح الإنكار على أصحاب الرأى المخالف ، إلا على سبيل النصيحة والأمر والنهى برفق ، لاحتمال عدم معرفتهم للرأى المخالف لرأيهم . (المؤلف)

(٢) ص ٩٠ - ٩١.　　(٣) ص ٩١.

الشافعى وغيرهم رضى الله عنهم، فقد كانوا يصلون خلف أئمة المدينة من المالكية وغيرهم، وإن كانوا لايقرأون البسملة لاسرا ولاجهرا .

نماذج من احترام كبار الأئمة لآراء الآخرين وعدم اعتراضهم عليها

وينقل الدكتور البيانونى عن العلامة الدهلوى من كتابه (الإنصاف فى بيان أسباب الاختلاف) ص ٢٤ ، ٢٥ نماذج من مواقف بعض كبار الأئمة مع غيرهم، مما يدل على احترامهم لآراء الآخرين، بل العمل ببعض هذه الآراء احتراما لإخوانهم، مع اعتقادهم غيرها .

يقول الدهلوى :

صلى الرشيد إماما وقد احتجم، وصلى الإمام أبو يوسف خلفه ولم يُعِد . وكان أفتاه الإمام مالك بأنه لاوضوء عليه .

وكان الإمام أحمد بن حنبل يرى الوضوء من الرعاف والحجامة ، فقيل له : فإن كان الإمام قد خرج منه الدم ولم يتوضأ، هل تصلى خلفه؟ فقال : كيف لاأصلى خلف الإمام مالك وسعيد بن المسيب ؟!!!

ورُوى أن أبا يوسف ومحمدا كانا يكبّران فى العيدين تكبير ابن عباس لأن هارون الرشيد كان يحب تكبير جده .

وصلى الشافعى رحمه الله ، الصبح قريبا من مقبرة أبى حنيفة رحمه الله فلم يقنت، تأدبا معه ، وقال أيضا أى (الشافعى) رحمه الله :-

ربما انحدرنا إلى مذهب أهل العراق

وقال : مالك رحمه الله للمنصور وهارون الرشيد: ماذكرنا عنه سابقا ، يريد بذلك ماذكره فى رسالته سابقا وهو :

ولما حج المنصور قال لمالك : قد عزمت أن آمر بكتبك هذه التى وضعتها ، فتنسخ، ثم أبعث فى كل من أمصار المسلمين منها نسخة ، وآمرهم بأن يعملوا

بما فيها ولايتعدوه إلى غيره.

فقال: ياأمير المؤمنين لاتفعل هذا، فإن الناس قد سبقت إليهم أقاويل، وسمعوا أحاديث، ورووا روايات، وأخذ كل قوم بما سبق إليهم، ودانوا به من اختلاف الناس، فدع الناس وما اختار كل أهل بلد منهم لأنفسهم.

وحُكى نسبة هذه القصة إلى هارون الرشيد، وأنه شاور مالكا فى أن يعلق الموطأ فى الكعبة، ويحمل الناس على مافيه، فقال:

لاتفعل فإن أصحاب رسول الله ﴿ﷺ﴾ اختلفوا فى الفروع، وتفرقوا فى البلدان وكل سنّة مضت، قال: وفقك الله ياأبا عبد الله. (حكاه السيوطى).

ثم قال الدهلوى [1]:

وفى البزازية عن الإمام الثانى، وهو أبو يوسف رحمه الله، أنه صلى يوم الجمعة مغتسلا من الحمام، وصلى بالناس، وتفرقوا، ثم أخبروا بوجود فأرة ميتة فى بئر الحمام، فقال إذاً نأخذ بقول إخواننا من أهل المدينة: إذا بلغ الماء قلتين لم يحمل خبثا.

وسئل الإمام الخجندى رحمه الله، عن رجل شافعى المذهب ترك صلاة سنة أو سنتين، ثم انتقل إلى مذهب أبى حنيفة رحمه الله، كيف يجب عليه القضاء؟ أيقضيها على مذهب الشافعى؟ أم على مذهب أبى حنيفة؟

فقال: على أى المذهبين قضى بعد أن يعتقد جوازها جاز.

وفى جامع الفتاوى أنه: إن قال حنفى: إن تزوجت فلانة فهى طالق ثلاثا، ثم استفتى شافعيا فأجاب أنها لاتطلق ويمينه باطل، فلابأس باقتدائه بالشافعى فى هذه المسألة لأن كثيرا من الصحابة فى جانبه.

قال محمد رحمه الله فى أماليه:

لو أن فقيها قال لامرأته: أنت طالق البتّة، وهو ممن يراها ثلاثا، ثم قضى

---

(1) الإنصاف ص ٧١.

عليه قاض بأنها رجعية، وسعه المقام معها ، وكذا كل فصل مما يختلف فيه الفقهاء من تحريم، أو تحليل، أو إعتاق، أو أخذ مال، أو غيره ، ينبغي للفقيه المقضى عليه الأخذ بقضاء القاضى، ويدع رأيه ويلزم نفسه ماألزم القاضى، ويأخذ ماأعطى .

ويقول الدهلوى أيضا فى مكان آخر من رسالته [1] :

(وكان الإمام أحمد رضى الله عنه يقول: **لاينبغى لأحد أن يفتى إلا أن يعرف أقاويل العلماء فى الفتاوى الشرعية، ويعرف** مذاهبهم فإن سئل عن مسألة يعلم أن العلماء الذين يتخذ مذهبهم قد اتفقوا عليها. فلا بأس بأن يقول : هذا جائز ، وهذا لايجوز ، ويكون قوله على سبيل الحكاية ، وإن كانت مسألة قد اختلفوا فيها ، فلا بأس بأن يقول: هذا جائز فى قول فلان، وفى قول فلان لايجوز، وليس له أن يختار فيجيب بقول بعضهم مالم يعرف حجته) .

النهى عن تشويه آراء المذاهب المخالفة :-

وهكذا يتبين لنا كيفية استعمال منهج وأسلوب الدعوة فى الأشياء المختلف فى حكمها ، ومايجب أن يفعله الداعى حين يود الأمر أو النهى فيها ، ولعلنا نستطيع أن نعرف كثيرا من هذه الأمور المختلف فى حكمها ، والتى اختلفت فيها المذاهب والتى يجب أن نقول: **إن جميعها صواب ، وإن كان بعضها يحتمل الخطأ فهى صواب من حيث نظر صاحبها إليها** ، وتحتمل الخطأ من حيث أنها اجتهادات بشرية فى فهم النصوص الشرعية وتطبيقها، ولاعصمة لأصحابها عن الخطأ ، وأما من حيث حقيقة أمرها. فلا يستطيع أحد أن يحكم بصواب هذا جملة، أو خطأ هذا جملة، فأمرها موكول إلى الله، والذين يتعصبون لمذاهبهم أكثر مما ينبغى، ويخطئون غيرهم إلى حد وضع

---

(١) الإنصاف ص ٦٣.

طعون تنتقص المذاهب المغايرة لمذهبهم، يقعون فى خطأ كبير، ويعود ذلك للأسف إلى جهل عميق، وتعصب ذميم، لايرضى عنه الله تعالى، ولايرتضيه الأئمة أنفسهم، إضافة إلى ماتتركه هذه المواقف من بغضاء وشحناء، وجدل ومراء بين أتباع المذاهب المختلفة . بل إن هناك بعضا من الناس يصل بهم الأمر إلى اعتبار الخلاف العلمى من الخلاف فى الدين - مع مايؤدى إليه ذلك من التفرق إلى شيع ومذاهب، ويستشهدون على ذلك بالآيات الذامة للخلاف، والمتوعدة على ذلك بالعقاب، وهم بذلك يحرّفون الكلم عن مواضعه، ويطعنون على سلف الأمة وخلّفها من الصحابة والتابعين، ومن تبعهم بإحسان، وقد عرفنا أنهم اختلفوا جميعا فى كثير من الأحكام .

وبعض الناس قد يصور العامى المقلد لإمام من الأئمة المعتبرين، تاركا الكتاب والسنة، وآخذاً بأقوال الرجال، وأحيانا يوردون عليه نصا ظنى الدلالة، يخالف ظاهره مذهب هذا العامى، وحين يتمسك العامى بمذهب إمامه، لأنه ليس أهلا لفهم النصوص، يُجهّله هؤلاء،ويعتبرونه مُعرضا عن النصوص الشرعية، ومتعبدا بأقوال الرجال ، ولو أنصفوا لجعلوه معرضا عن فهمهم للنص الشرعى إلى فهم إمامه لهذا النص ، فتكون المقابلة بين فهمين، لابين نص وقول رجل كما يصورون، فيهون الأمر عليهم وتظهر الحقيقة لهم .

وقد يصل الأمر ببعض المتعصبين لمذهب من المذاهب وبدافع حب الظهور، أن يسىء تصوير آراء الآخرين، ويعرضها عرضا شائنا - أو يختزل أدلتها ويشوّهها ليبرز على أنقاضها رأيه ومذهبه على أنه الحق المبين ، والصواب الذى لايحتمل الخطأ ، وكان على هؤلاء أن يعرفوا أنهم إن كانوا ملتزمين برأى إمامهم، مقتنعين برأيه ووجهة نظره فى أمر من الأمور، فإن الآخرين أيضا يعتقدون ذلك فى أئمتهم ويمكنهم أن يتعصبوا أيضا لآرائهم ووجهات نظرهم ، وقد تكون أقوى أدلة وأقرب للحقيقة من غيرها، ولكنه التعصب الأعمى، والجهل الكبير بيسر الإسلام وسماحته، والذى لايستطيع أن يقوم إلا على انقاض غيره، يكشف بعمله هذا عن جهله وضعفه ، وإلا لما احتاج لمثل

هذه المواقف واكتفى بعرض رأيه فقط مع احترام آراء الآخرين، وعليه أن يترك الفرصة أمام الناس ليناقشوا قوله، ويوازنوا بينه وبين غيره، ثم هم مخيّرون بعد ذلك، فكم من أقوال لعلماء شقت طريقها إلى الناس، واستحسنها العلماء المحققون فيها بعدهم، على الرغم من وجود المذاهب المعتمدة والآراء المتعددة .

إذاً كيف يعالج الداعية مشاكل المجتمع ؟

المفروض في الداعية أنه طبيب يعالج أمراض النفوس، ونفوس الآخرين بالنسبة لنا هي كهوف مجهولة، ولابد من الكشف عن بعض دروبها، ومعرفة مكنوناتها من خير أو شر، وتحويل طاقات البشر إلى الاتجاهات الخيّرة أمر بالغ الصعوبة، لأن النفوس بفطرتها تنزع إلى الجوانب الأخرى، والمرء يتأثر بالعاطفة كما يتأثر بالعقل، وكما يخطىء الطبيب في علاج مرضاه ويصف لهم دواء لايبرئهم وقد يزيد مرضهم، كذلك فإن الداعية قد يسيء من حيث يظن أنه أحسن، وإذا كان بالإمكان أن نقول:- ليس كل من دخل كليات الطب، وارتدى الجلباب الأبيض، ووضع السماعة في أذنيه يمكن أن يكون طبيبا ناجحا، أو معالجا مقتدرا، كذلك نستطيع أن نقول أيضا : ليس كل من أوتى طلاقة اللسان أجاد البيان ، ولاكل من أجاد البيان نجح في الإقناع ، ولاكل من نجح في الإقناع أثمر عملا نافعا ، ولذا كان على الداعية أن يكون حريصا على ثقة الناس فيه، واحترامهم له، واقتناعهم به ، ولن يتأتى ذلك إلا إذا تعرف على ماعند المدعوين قبل أن يفاجئهم بمالايعرف أثره .

صحيح أن صاحب الدعوة يكون عنده أحيانا الجديد الغريب على أكثر الناس، ولكن لابد لنا أن نعرف، أنه ليس كل ما عنده يعجبهم أو يودّون سماعه، ولابد له من الاختلاف معهم أحيانا ، وإذا كان على الزارع أن يتبين طبيعة الأرض قبل أن يحرثها، ويلقى فيها بالبذور، فإن على الداعية أيضا

أن يعرف طبيعة الناس ومدى تقبلهم لدعوته، والأسلوب الملائم، والوقت المناسب، إلى آخره ، وصدق الله حين يقول: (**فذكر إن نفعت الذكرى**) وحيث يقول: (**وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم**).

إذا فلابد للدعاة إن أرادوا النجاح أن يكون عندهم أناة وتلطف مع الآخرين.

بل إن على الدعاة أن يوفّروا الاحترام للسامعين، ولو كانوا على غير رأيهم فإن قضية الرأى، تختلف عن قضية الكياسة والمجاملة.

وفى الأثر : (**المؤمن كيِّس فطن**)

وإذا كان الداعية يريد أن يُسمع الآخرين رأيه، ويعرض عليهم فكره، فينبغى أن يعرف أن الجانب الآخر ربما يود أن يسمعه أيضا وجهة نظره، فعليه أن يستمع بقدر مايجب أن يُسمع منه. بل عليه أن ينتقد نفسه، ويعرف عيوبه ليبتعد عنها، فلا يصح أن يكون كثير الكلام أكثر مما ينبغى، ولا عالى الصوت، أو شديد الحمق، أو جارح اللفظ، وأخطر شىء على الدعاة أن يستعلوا بعلمهم، وعليهم إن أحسوا بشىء من ذلك، أن يعدّلوا من طريقتهم فورا، ولابأس بالاعتذار للمستمعين ، وعليه أن يعود معهم إنسانا طبيعيا ، وإلا فقد يستغل ذلك أعداؤه، والحاقدون عليه، أو من يتربصون به الفرصة ، وتتحول المسألة إلى صراع على غير الموضوع، بل على الذوات (أى ذات الشخص) أما إذا التزم الداعية المنهج العادل، وأدب البحث، وتواضع العلماء، فإنما يقطع بذلك الطريق على مقتضيات الخلاف، ويبقى للمستمعين إما النزول على رأيه، أو مفارقته وهم شاكرون أو عاذرون ، بل ربما دعوه هم إلى لقاء آخر وذلك هو المطلوب .

والداعية الذى يبيّت سلفا أن كلمته هى العليا، وأن المخالف له كافر أو آثم أو جاهل ، هو داعية فاشل، فالمفروض فى الداعية أن يتمتع بروح السماحة ، وأن يعرف أن الحقيقة هى بنت البحث ، وكثيرا مايحدث أن يبعد

الداعية فى موقفه ضعفا فيلزمه حينئذ ألا يكابر، وعليه أن يتحين فرصة أخرى لاستكمال البحث، وهذا نور يقذفه الله فى قلب من شاء من عباده، ولايعيب الداعية أن يؤجل البحث حتى يستكمل ماخفى عنه ، وحتى يتبين وجه الحجة فيه ، وعليه أن يعرف أنه يأخذ كما يعطى، ولم يجعله الله قدرا مسلطا على المخلوقات .

وإذا أشعر الداعية جمهوره أو مناقشيه بأنه مصمم على تغيير معتقدهم، وحريص على ذلك ، فليثق أن ذلك ليس من صالحه ولاصالح الدعوة، فقد يكسب حين يتكلم موقفا خطابيا أو سياسيا يتحدث به إلى الناس، لكنه فى سبيل حرصه على هذا الربح وتصميمه عليه، قد يحدث حرجا خفيفا أو عميقا فى مشاعر الآخرين، فلا تلبث هذه المكاسب أن تتحول إلى خسائر، ولعلنا نعرف أن قلوب الناس هى الأولى بالرعاية والعناية، لأنها لو صلحت صلح الجسد كله ، وخير مايؤثر فيها هو شعور الحب والإيثار ، ولذا فإن على الدعاة ألا يعملوا على تنفير المستمعين بما يثقل عليهم، ولايكثروا عليهم المجادلة ، ولايصمموا على إلزامهم التسليم بوجهات نظرهم ، وليعرفوا قبل كل شيء أن الدعوة لله، والله غنى عن العالمين .

وهنا لابد أن نشير إلى نقطة هامة.

على الداعية ألا يفتح حوارا مع إنسان إلا إذا توقع أنه ربما يقتنع برأيه ، ويجب عليه أن يعرف، أن من يحاوره لم يدخل معه إلا لمثل هذا الغرض، وإذا ثبت له أن الحوار لن يجدى.وأن كل واحد متمسك برأيه ولايقتنع أحدهما بالحق إن جاء، فيجب أن يتوقف الحوار، لأنه لافائدة من ذلك .

وبإمكان الداعية الناجح، إن وجد المخاطَب لايؤمن أساسا بما يناقشه فيه، واضطر إلى ترك هذه المناقشة، عليه أن يبحث عن طريقة أخرى للدخول إلى الموضوع من باب آخر، ولعل ذلك هو الأسلوب الذى اتبعه ابراهيم عليه السلام مع النمروذ ، حين جلس معه يجادله ويحاوره، فلما بدأ النمروذ يغالط ويكابر،

دخل معه ابراهيم إلى الموضوع من ناحية أخرى وزاوية ثانية .

ونتبه: إلى أنه لابد للداعية أن يكون موقنا بفكرته التى يدعو إليها، ممتلىء النفس والعقل بها ، عارفا بحدودها وصحتها، حريصا على أن يشغل الآخرين بها وهنا يكمن السر فى أننا نسمع خطباء فنتأثر بهم، ونسمع آخرين وننساهم على الفور ولانقيم لكلامهم فى أنفسنا وزنا .

وقد قيل: لابد من الاقتناع قبل الإقناع ، ولابد من الإخلاص قبل العمل .

وقد روى أن الحسن بن على رضى الله عنه سمع خطيباً فلم يعجبه ولم يتأثر به، فقال له : (**ياهذا إن بقلبك سوءا أو بقلبى**)

وعندما كلف الله موسى عليه السلام بدعوة فرعون وقومه، سأل الله تعالى أشياء تعينه على تلك المهمة الشاقة : -

١- سأل الله أن يشرح صدره لأداء الرسالة ، حتى تصبح عنده هواية أو متعة تهوّن معها الشدائد (**قال رب اشرح لى صدرى**) .

٢- وسأله تيسير الأمر وتذليل العقبات، ومن ذلك تليين القلوب وتحويلها بالعطف عليها ، ودفع الشدائد التى تعرقل السبل ووقايته من كيد الكائدين (**ويسّر لى أمرى**) .

٣- وطلب منه أن يحل عقدة لسانه ويرزقه الفصاحة والكلمة المؤثرة ليكون ذلك أعون له على التأثير (**واحلل عقدة من لسانى يفقهوا قولى**) .

٤- وطلب رفيقا ومساعدا من أهله تتوفر فيه الثقة والأمانة (**واجعل لى وزيرا من أهلى.هارون أخى أشدد به أزرى وأشركه فى أمرى**) ولاشك أن الدعوات تنتفع بالعصبيات، على أن تكون الدعوة هى المستفيدة، وليست هى محل الاستغلال .

٥- وأوضح أنه مؤمن بربه راغب فى رضاه : (**كى نسبحك كثيرا ونذكرك كثيرا**) .

٦- وأوضح كذلك أنه عارف بطلاع الله على خفايا النفوس إذا أرادت استغلال الدين، وأنه لايصلح معه إلا الاخلاص وحسن الانقياد **(إنك كنت بنا بصيرا)** [١].

ونستطيع أن نقول إن الداعية الذى يريد أن يعالج مشاكل مجتمعه عليه أن يضع الخطط والمناهج المناسبة لعلاج هذه المشكلات، وفى كل مجتمع من مجتمعات المسلمين مخالفات شرعية سائدة فى حياة الناس، فعلى الداعية الناجح أن يحصر أهم المخالفات الشرعية السائدة فى المجتمع ، ويصنفها إلى قضايا أصلية وفرعية، ومتفق عليها ومختلف فى حكمها، وأن يصنفها أيضا إلى قضايا عقدية، وعبادية، وسلوكية ، ويرتبها بحسب الأولويات للتدرج فى معالجتها، وذلك بتقديم الأصول على الفروع، والفروض على الواجبات، والمتفق عليه على المختلف فيه ، كذلك عليه أن يراعى تقديم المسائل العقدية على غيرها من المسائل العبادية والسلوكية ، وأن يتدرج مع المدعويين ولايصادمهم فى معتقداتهم كما قلنا قبل ذلك.

ولايعنى هذا ترك بقية المخالفات، وإنما المطلوب منه أن يركز على أكثر هذه المخالفات وأهمها، وهى تختلف من بيئة لأخرى ، وتحتاج فى معالجتها إلى حساسية شديدة، ومايراه البعض مهمًا فى بيئة ، قد لايرى كذلك فى بيئة أخرى، تكون فيها مخالفات أهم وأكبر، تحتاج إلى تركيز أكثر واهتمام أكبر، وأن يراعى خاصة فى المجتمعات التى سادت فيها هذه المخالفات أن تجريح الأشخاص أو الجماعات، والسخرية مما يعتقدونه بطريق مباشر أو غير مباشر، لن يوصله إلى النتيجة التى يرجوها ، وعليه أن يراعى الوقت الملائم لموضوعه والمناسب لعرض فكرته ، وأن يراعى أيضا الزمن الذى لايشق على السامعين الحضور فيه ، فليس مقبولا أن يشرع فى إلقاء حديثه عقب خطبة من خطب الجمعة والناس يتهيأون للانصراف ، كذلك ليس من اللائق أن يحدثهم فى مكان حر شديد، أو برد قارص.أو أثناء انشغالهم بمناسبة عاجلة، كتجهيز ميت أو اللحاق بقطار... ...الخ.

(١) راجع كتاب كيف ندعو الناس، للشيخ عبد البديع صقر ص ٣٤، ٣٥.

أهم المحذورات التى يجب أن يبتعد عنها الخطيب

١ - *الوقوع فى الروايات الموضوعة والضعيفة :* -

إذا كان على الخطيب أن يحذر الوقوع فى الروايات الموضوعة والضعيفة التى حشيت بها كتب التفسير. فإن عليه أيضاً أن يحذر من سوء الفهم للأحاديث الصحاح والحسان ، التى وردت فى كتب السنة وتلقاها علماء الأمة بالقبول ، فحرّفها بعض الناس عن مواضعها ، وتأولوها على غير تأويلها وبعدوا بها عما أراد الله ورسوله .

وقد فعلت بعض الفرق ذلك مع الحديث ، كما فعلوا مع القرآن ، لتؤيد مذاهبها وتعضد أفكارها ، حيث اتخذوا المذاهب أصلا . وجعلوا النصوص لها تبعاً .

ووقع فى ذلك أيضاً القدامى والمحدثون ، ورأينا فى عصرنا الحاضر من يفهم بعض الأحاديث فهماً خاطئاً، ويستدل بها استدلالا خاطئا . لغرض أو لغير غرض . كمن يستدل بحديث رسول الله ﴿ﷺ﴾ : (**بدأ الإسلام غريباً وسيعود غريباً كما بدأ فطوبى للغرباء**) على أن هذا سنداً له وحجة للقعود عن واجب الدعوة إلى الإسلام ، وترك فريضة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، ويعارض به كل دعوة جادة لاستعادة حكم القرآن وإقامة دولة الإسلام.

ولا يتصور أبداً أن الرسول قد قال هذا الحديث، ليثبط به عزائم أمته عن الدعوة والعمل لدينهم ، أو ليطفئ جمرة الأمل فى قلوبهم .

وإنما أراد الرسول ﴿ﷺ﴾ أن يحذّرهم لينتبهوا ، أو ينبههم ليحذروا . كما أن المدقق فى الحديث يرى فيه دعوة صريحة إلى إصلاح ما أفسد الناس من

منهج الإسلام . وفيه دعوة للعمل الجاد لرد الشاردين إلى الطريق المستقيم وبخاصة حين يقف أمام نهاية الحديث الذى يقول : **(قيل ومن الغرباء يارسول الله ؟ قال : الذين يصلحون ما أفسد الناس بعد من سنتى)** [1] .

وقد قلنا قبل ذلك إن على الخطيب أن يتجنب الأحاديث التى تُشكِل على جمهور الناس ولا تسيغها عقولهم وثقافتهم ، لأن لها تفسيرات وتأويلات قد لايهضمونها . أو كانت أعلى من مستواهم .

وقد حذر علماء السنة من رواية الحديث الموضوع إلا مع التنبيه عليه ، وبيان أنه موضوع ، ليحذر منه قارئه أو سامعه . ويقول النووى عليه رحمة الله :**(تحرُم روايته مع العلم به فى أى معنى كان - سواء الأحكام والقصص والترغيب وغيرها إلا مبَيّنا أو مقرونا ببيان وضعه)** [2] .

ولذا فعلى الخطيب أن يحذر من الأحاديث الواهية والمنكرة ، والموضوعة، ولعل من أسباب تسرب هذه الأحاديث الموضوعة الساقطة.إعتماد كثير من الدعاة على كتب لاتعنى بانتقاء الأحاديث التى توردها - وترى الأكثرين منهم ينقلون من كتب الوعظ،والتصوف،والتفسير،من غير تمحيص ، أو بحث فى مدى صحة ماينقلون ، ويظنون أن نقلهم من هذه الكتب يعفيهم من البحث فى درجاتها والاطمئنان عليه . مع أنه لابد من أن يعرفوا أن هذا مما يسىء إليهم وإلى الدعوة التى يدعون إليها .

ولذا فإن عليهم أن يتحرزوا ويتحفظوا،فلا يعتمدوا على كتب الوعظ والرقائق بالنسبة لنقل الحديث ، لأنها تجمع بين الغث والسمين . ولا تدقق فيما ترويه من أحاديث أو آثار . أو قصص وأخبار ، بدعوى أنها لا تتعلق بحكم شرعى .

---

(١) رواه الترمذى .

(٢) راجع ثقافة الداعية ص ٧٣ .

ولعل هذا هو السبب فى هروب المدعوين عن أئمة المساجد، ونفور كثير من الشباب عنهم، وبخاصة المثقفين منهم، الذين يعرضون كل مايسمعونه على عقولهم ، ولا يقبلون إلا ماتسيغه هذه العقول .

٢- المبالغة فى تعليل العبادات : -

يجب على الخطيب ألا يبالغ فى تعليل العبادات بأمور دنيوية، ويتحرز من ربطها بهذه الأمور ربط العلة بالمعلول . فعليه أن يعرف أن العبادات مطلوبة لذاتها، بغض النظر عما وراءها من منافع وثمرات، ولذا فعليه أن ينظر إليها نظرة الغايات والمقاصد ، لا نظرة الأدوات والوسائل - وقد تؤدى المبالغة فى هذا الجانب بقصد ، أو بغير قصد إلى الهجوم عليها من أعداء الإسلام أو محاولة نقض مايثبته الخطيب ، فلا تؤدى عظته ولا خطبته إلى مايرجوه لها من اقناع وتأثير . فقد يقول بعض الناس ، مسلمين أو غير مسلمين : إذا كان هدف العبادات هو تربية الضمائر وتسلية الأنفس وتقويم الأخلاق، فعندنا وسائل أخرى توصلنا إلى الهدف .

وهذا لا يمنع الخطيب من أن يبينّ أن العبادات التي فرضها الله، فيها فوائد ولا شك لبنى البشر، وأنها فرضت من أجل مصلحتهم ، وأنه يمكن استخلاص بعض هذه الفوائد التى نستطيع أن نتعلمها من أجل مصلحتهم ، وأنه يمكن استخلاص بعض هذه الفوائد التى نستطيع أن نتعلمها من حكمة التشريع، وأنها كذا وكذا ، ثم يبين أن هذه الأمور ليست هى كل الغايات والمقاصد ، وأن الجانب التعبدى فيها هو الأصل والأساس ، وأن الالتزام بها أمر ضرورى لأنها أوامر إلهية وجب على الناس أن يقبلوها، وأن ينفذوها دون مناقشة أو تعليل .

- ولذا فإن على الخطيب أن يحذر تعليل الحكم الشرعى بأمر غير جامع - وإن كان فى الإمكان تعليل بعض الأحكام ، على ألا يؤكد للمستمعين بأن

العلة التى ذكرها أو استخلصها من حكمة التشريع ليست هى كل الأسباب التى أدت إلى هذا الحكم .

وذلك كأن يعلل تحريم لحم الخنزير بأن سبب التحريم هو أكله للقاذورات،لأنه قد يُردّ على ذلك ، بأن هذا لاينطبق إلا على الخنازير السيئة التغذية، وفى هذه الحالة يكون التعليل غير صائب وغير مقبول، وبخاصة حين يعرف أن هناك خنازير تُربى فى حظائر خاصة ، ويشرف عليها مختصون يعنون بها ولا تأكل القاذورات .

والتعليل الغير جامع ولا مانع ، ينطبق أيضا على قول من يرى أو الخنزير حرم لحمه لأن اعتياد أكله،يورث فقدان الغيرة على النساء والحرمات، وقد يحاول البعض أن يستدل على وجهة نظره هذه بما يشاهده لدى الأوروبيين من فقدان الغيرة عندهم ، ولا شك أن هذا تعليل متهالك ، لأنه يُنقض بقول من يقول : إن ذلك يكون مرجعه للبيئة والتربية ، وليس إلى لحم الخنزير، ويمكن للمعترضين أن يستدلوا بأن النصارى فى صعيد مصر وفى البلاد الشرقية عامة، لا تنقصهم الغيرة مع أكلهم للخنزير . كما أن اليهود أيضاً فى الغرب وهم يحرّمون الخنزير كما يحرمه الإسلام،يسلكون فى أمر الغيرة مايسلكه مواطنوهم من المسيحين .

وهكذا يجب ألا يجازف الخطيب الداعية بالتعليل فى مثل هذه الأمور، مالم يكن تعليلاً ثابتاً محكماً ، ويكون مطرداً فى كل الأحوال التى تقوم عليه الأدلة العلمية الناصعة التى لا مطعن فيها .

يقول الدكتور : يوسف القرضاوى فى كتابه ثقافة الداعية :-

"وقد سمعت مسلماً يناقش أحد خطباء المساجد فى العلة التى ساقها لسبب تحريم أكل لحم الخنزير ، حيث ذكر الخطيب أن علة التحريم ما اكتشف من ديدان شديدة الخطر على صحة الإنسان كالدودة الشريطية ، وقال له : إن هذه الديدان ياأخى ترجد فى لحوم الأبقار أيضاً وقد أحل الشرع أكلها ".

وكما قلت إنه لابأس من أن يستدل بمثل هذه الأمور على أنها مجرد تلمس

بشرى لحكمة التشريع ، لا على أنها هى العلة والسبب المباشر للحكم ، وعليه أن يبين أنه إذا كنا قد اكتشفنا أو عرفنا بعض أسباب التحليل أو التحريم فإن على الناس أن يعلموا أن هناك حكمة جليلة فى إخفاء المولى سبحانه وتعالى لبعض حكمه وأسرار شرعه ، ليتم الابتلاء ، وتظهر حقيقة العبودية للخالق سبحانه .

والخطيب الداعية يجب أن يحرص كثيراً على عدم تعريض نفسه لاعتراضات الناس من هذا وذاك، ومن هنا وهناك . وهذا يدخل فى باب اللباقة التى يجب أن يتعلمها الداعية .

وماأكثر مانراه من بعض خطباء المساجد الذين يحصرون أنفسهم فى تعليلات الأحكام الشرعية ، بطريقة جعلت جمهورهم لايقتنع بكلامهم ولا تعليلاتهم التى يسهل الاعتراض عليها . فلا يصح مثلا أن يعلل الخطيب تحريم الزنا بمنع اختلاط الأنساب، ويحصره فى ذلك ، لأن هذا يعنى بناء على هذه القاعدة أنه لاحرج من زنا الحامل ، ولاحرج أن تزنى المرأة العقيم،أو من تتناول أقراص منع الحمل، لأنه لاخوف على أية واحدة من هؤلاء أن تحمل وتلد دون أن يحدث اختلاط الأنساب .

وهكذا بالنسبة لمثل هذه الأحكام ، يجب ألا تقال الحِكَم والتعليلات للناس إلا بعد دراسة وتثبت ، وإلا اكتفى بالحِكَم الإجمالية العامة .

٣- على الخطيب الداعية أن يحذر حين يريد ذكر الحكمة والعلة، الاقتصار على التعليل بالأمور المادية الحسية ، وبخاصة فيما يتعلق بالعبادات الشعائرية كالوضوء ، والصلاة والصيام والحج ، ونحوها .

ونحن نلاحظ أن كثيرين من خطباء المساجد حين يتحدثون عن الوضوء وحكمة التشريع له، يقفون عند النظافة على أنها هى الحكمة من تشريع الوضوء ، والصلاة فى نظرهم حكمتها تمرين الجسم على الرياضة والحركة واتباع النظام ، كما أن الصوم عندهم لم يشرع - من وجهة نظرهم - إلا

لإراحة المعدة شهراً فى كل عام .

أما الحج ، فهو فى نظرهم ليس إلا رحلة كشفية للتدريب على تحمل المشاق . وهكذا يوقعون أنفسهم فى مآزق وتوريطات، حين يفتحون على أنفسهم أبواباً لايقدرون على إغلاقها ، وكما قلنا : قد تستعمل هذه الأدلة سلاحا فى أيدى الذين يريدون أن يتفلتوا من تكاليف الدين وشعائره ، أو يقدمونها سلاحاً للأعداء يحاربون بها الإسلام .

وأولى بالخطيب الداعية أن ينهج نهج القرآن الكريم، ويعطى التعليل بالأمور الدينية والروحية الأولوية حين يريد ذكر الحكمة من تشريعها .

والخطيب ولا شك يلاحظ كثيراً من هذه الحكم للتشريعات كلها بما فيها العبادات مثل قوله تعالى عن الصلاة :" **إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والمنكر** "[1].

وعن الصيام : " **ياأيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون** " [2] .

وعن الزكاة :" **خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها** " [3] .

وفى الحج : " **ليشهدوا منافع لهم** " [4] .

إلى غير ذلك من حكم الشرع التى نراها منتشرة بين ثنايا المصحف الشريف .

٣- *مراعاة الأحكام المهمة :*

على الخطيب الدينى أن يعمل على تطعيم عظاته ودروسه بالأحكام المهمة التى يحتاج إليها الناس فى وقتها ، ولا يصح أن يقتصر حديثه على محض

(١) العنكبوت : ٤٥ — (٢) البقرة : ١٨٣
(٣) التوبة : ١٠٣ — (٤) الحج : ٢٨

الترغيب والترهيب ، كما يفعل كثير من أئمة المساجد، ولذلك لم تعد عظاتهم تفيد أو تؤثر فى المستمعين ، بل لابد من أن يحرص على إعطاء خلاصة الأحكام الأساسية لكل موضوع من الموضوعات التى يتكلم عنها، أو الأحكام والعبادات التى يعرضها عليهم، وبأسلوب سهل مقبول ، وبذلك يستنير الناس ويتعرفون على أحكام دينهم بيسر وسهولة .

والداعية الناجح ، (هو الذى يعظ الناس ويفقههم بحيث لايغطى وعظه على فقهه ، ولا فقهه على وعظه) [1] .

ولذا فعليه أن يحرص على ربط الأحكام بأدلتها من الكتاب والسنة ومأأرشدا إليه من اعتبارات أخرى، كالإجماع، والقياس، والاستصحاب والاستحسان، وغيرها من أدلة ممالانص فيها .

وأحذّر إخواننا الخطباء والدعاة إلى الله ، من الخوض فى دقائق علم الكلام وخلق الأفعال، ورؤية البارى يوم القيامة ، لأن هذه من الأمور التى لايصح عرضها على عوام الناس، مخافة اختلال يتطرق إلى عقائدهم ، يصعب عليهم الخلاص منه بعد ذلك، وعلى إخواننا الخطباء الاقتصار فى وعظهم وإرشادهم على ملء قلوب العوام بالتصديق الجازم، بكل ماجاء به رسول الله (ﷺ) وقبوله والإذعان له . تصديقاً سليما من كل شك بالمقدار الذى نطق به الكتاب وصحت به السنة .

وعليه أن يبتعد عن المتشابه من آيات الصفات وأخبارها، ويبين - إن سئل- أن الأمة الإسلامية قد أجمعت على أن الله منزّه عن مشابهة المخلوقات وأنه قد قام البرهان العقلى والنقلى على هذه العقيدة، فكانت هى الأصل المحكم فى الاعتقاد الذى يجب أن يُرد إليه غيره وهو التنزيه .

ولابأس أن يبين لمن يسأل عن نصوص الكتاب أو السنة التى وردت وظاهرها ينافى هذا التنزيه ، لابأس من أن يبين طريقتى السلف والخلف فى

---

(١) ثقافة الداعية ص ٨١ .

هذا الأمر وهما ينزهان المولى سبحانه عن المماثلة والمشابهة بالحوادث ، إلا أن السلف يفوضون الأمر إلى الله فى فهم الحقيقة ، مع توضيح أن المولى يعلمنا بمضمون كلامه، مانستفيد به فى أخلاقنا وأعمالنا وأحوالنا ، ويأتينا فى ذلك بما يقرب المعانى لعقولنا ، ويصورها لمخيلاتنا ، وأما الخلف فطريقتهم التأويل ، لإيمانهم بأن قواعد الدين الإسلامى وضعت على أساس العقل ، وأنه لايخرج شىء منه عن المعقول ، ويقولون بأن العقل إذا جزم بشىء كالتنزيه عن مشابهة المخلوقات وورد فى النقل ماخالفه ، يكون الحكم العقلى قرينة على أن النقل لايراد به ظاهره . ولابد له من معنى موافق يحمل عليه ويأتى ذلك عن طريق التأويل .

ثم يبين أن الطريقتين صحيحتان : وإن كانت طريقة السلف أسلم ، لما فيها من السلامة من تعيين معنى قد يكون غير مراد الله . والبعد عن المخاطرة فيما لاضرورة ولا حاجة إليها . أما طريقة الخلف فهى أعلم وأحكم ، لما فيها من مزيد الإيضاح والرد على الخصوم ، وهى أولى فى تعليم الناس وأبعد لأفكار العامة عن توهم التجسيم [1] .

أهم الكتب التى يمكن للداعية أن يعتمد عليها :

أولاً : بالنسبة لكتب التفسير :

الخطيب الداعية فى حاجة إلى اقتناء مراجع التفسير الكبرى مثل: القرطبى - الفخر الرازى - الألوسى - ابن كثير - بالإضافة إلى كتب التفسير الحديث كتفسير - المنار - فى ظلال القرآن - التفسير الواضح - وغيرها من التفاسير الكثيرة .

وبالنسبة للتفسير على وجه الخصوص، وقد دوّن فيه مئات من الكتب،

---

(١) راجع كتاب هداية المرشدين ص ١٢٢ - ١٢٥ .

يراعى فيه كما قلنا عدم الاعتماد على آراء المفسرين التى اعتبرها جمهور العلماء ضعيفة أو شاذة ، ولا نغتر أبداً بكون صاحب الرأى من المفسرين الكبار فهو بشر قبل كل شىء (وجلّ من لايخطىء) فها هو مثلا شيخ المفسرين الإمام ابن جرير الطبرى على جلالة قدره ومنزلة كتابه فى التفسير · يختار أحياناً تأويلات ضعيفة بل هى غاية فى الضعف · كتفسيره لقوله تعالى : " واهجروهن فى المضاجع " بأن معناها (قيدوهن) . . من هجر البعير إذا شده بالهجار · وهو القيد الذى يقيد به · والمراد : تقييد النساء لإكراههن على ماقتمن عنه . .

ولعنا نعرف كيف مُلئت كتب التفسير بالإسرائليات، وقصة أم المؤمنين زينب بنت جحش · وأسباب طلاقها من زيد بن حارثة ،تجد مفسرين كباراً يروون - وللأسف - قصة حب عاطفى - لرسول الله (ﷺ) كانت هى سبب الطلاق ، مما جعل المستشرقين والمبشرين يصنعون منها قصة درامية غرامية. يتخذون منها وسيلة للطعن فى رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ وحجتهم أن ذلك موجود فى أمهات كتب التفسير .

وقصة الغرانيق موجودة أيضاً فى كتب التفسير، وقصص كثيرة أخرى شوهت وجه الإسلام الأبيض، وعكرت صفو تراثنا الثقافى ،تجدها فى كتب التفسير، ولهذا فإن على الخطيب الداعية ، أن يكون حريصاً حين يقرأ كتب التفسير، وأن يتريث كثيراً قبل أن يتعرض لموضوع فيه خلاف أو غير مستساغ عقلا · وعليه ألا يكتفى بكتاب واحد من هذه الكتب ويهمل سائرها، فإن لكل منها مزية لاتوجد غالباً عند غيره · وعليه أن يأخذ ويقبس من كل كتاب خير مافيه، ولب مايتميز به · ويحترز مما فيه من أهواء وشطحات ، وليحاول أن يعرض عن الحشو، والفضول، والاستطراد ، الذى ملئت به كتب التفسير، ولاداعى للاستغراق فى المباحث اللفظية، أو المسائل النحوية، أو النكات البلاغية، كما لاداعى لذكر الخلافات الفقهية أو التطويل فى المجادلات الكلامية .

وإن كنت أنتقى لخطبائنا من الكتب القديمة، تفسير ابن كثير، لأنه جمع خلاصة ابن جرير الطبرى مع زيادة تنقيح وتهذيب وحسن وترجيح وتعقيب ، ويكفى فيه ماقاله السيوطى : (إنه لم يؤلف على نمط مثله) [1] .

وأعتقد أن تفاسير المحدثين لايستغنى عن الاستفادة منها دعاة هذا العصر، كتفسير القاسمى، والمنار، وفى ظلال القرآن، والتفسير الحديث لدروزه - أيضاً مع الحذر مما قد يكون فيها من غلو أو تقصير ؛ لأنهم بشر غير معصومين ، وكل بشر غير معصوم يؤخذ من كلامه ويترك .

ثانيا : كتب السنة : -

لايستغنى الخطيب الداعية عن كتب السنة فهى المصدر الثانى للتشريع ، وكتب السنة كثيرة ، ولذا فإن على الخطيب الداعية أن يقدم الأهم منها ،

ومن كتاب (ثقافة الداعية) للدكتور يوسف القرضاوى أنقل ماجمعه من كتب السنة المهمة، والتى ينبغى للداعية أن يهتم بها والتى أرى أنها كافية فلا أحذف منها أو أضيف إليها شيئاً [2] .

وكتب السنة كثيرة جداً ، ولكن ينبغى للداعية أن يقدم ماهو الأهم منها - مثل الكتب الستة ، ومسند الدارمى ، وموطأ مالك،ومسند أحمد .

ولبعض هذه الكتب مختصرات يمكن أن تكفى من لم تسعفه الهمة والوقت بقراءة الأصول ذاتها ، مثل التجريد الصريح للزبيدى ، وهو مختصر للبخارى حذف منه المكررات والمعلقات والأسانيد ، وكذلك : مختصر صحيح مسلم للمنذرى بتحقيق الألبانى ، وهناك كتب عملت على جمع هذه الكتب أو بعضها مثل : جامع الأصول لابن الأثير جمع فيه أحاديث الأصول الخمسة : الصحيحين، وسنن أبى داود ، والترمذى، والنسائى، وجعل سادسها موطأ

---

(١) راجع (التفسير والمفسرون) للدكتور محمد حسين الذهبى ج١ص٢٤٧ الطبعة الأولى

(٢) راجع كتاب ثقافة الداعية صفحات (٥٣، ٥٤، ٥٥، ٥٦) وقد نقل كما هو دون تصرف .

مالك ، بدلا من **سنن ابن ماجة** لأن فيه كثيرا من الضعيف . بل فيه أحاديث موضوعة ، ولهذا ودّ بعض الحفاظ لو كان **مسند الدارمي** مكانه (وذلك بعد حذف المكرر منها) .

ومثله : **مجمع الزوائد للهيثمي** . جمع فيه زوائد **مسانيد الإمام أحمد والبزار وأبى يعلى** ، **ومعاجم الطبرانى الثلاثة** ، وهو مطبوع فى عشرة أجزاء ، والمراد زوائد هذه الكتب على الكتب الستة على اعتبار ابن ماجة منها .

وقد قام أحد علماء الحديث فى القرن الحادى عشر – وهو العلامة محمد بن محمد بن سليمان المتوفى بدمشق سنة ١٠٩٤ – بجهد مشكور فى الجمع بين كتابى ابن الأثير والهيثمى ، وأضاف إليهما **زوائد الدارمى وابن ماجه** ، فكان هذا الكتاب بحق موسوعة حديثة جمعت أكثر من عشرة آلاف حديث نبوى من أربعة عشر كتاباً ، وسمى كتاب (**جمع الفوائد من جامع الأصول ومجمع الزوائد**) .

ويجوار هذا اللون من تجميع الأحاديث ، وجد لون آخر أو طريقة أخرى وهى التجميع حسب أوائل الحديث ، وفقاً لترتيب الحروف الهجائية .

ومن ذلك ماصنعه الحافظ السيوطى فى كتابيه (**الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير**) وقد أضاف إليه زيادات ضمها الشيخ النبهانى فى كتاب سماه (**الفتح الكبير بزيادة الجامع الصغير**) .

والكتاب الآخر هو (الجامع الكبير) الذى حاول أن يجمع فيه كل ما وصل إليه من كتب الحديث.وقد رتبه الشيخ علاء الدين (**على المتقى**) من علماء الهند على الأبواب والموضوعات، فى كتابه الذى سماه (**كنز العمال فى سنن الأقوال والأفعال**) .

وثمت كتب أخرى متخصصة هدفها تجميع نوع معين من الأحاديث كأحاديث الأدعية والأذكار، ومايتعلق بها فى مثل كتاب (**الأذكار**) للإمام النووى – وكتاب (**الكلم الطيب**) لشيخ الإسلام ابن تيمية ، وأحاديث

الآداب والفضائل ومايتعلق بها مثل كتاب (**الأدب المفرد**) للبخارى ، وكتاب (**شعب الإيمان**) للبيهقى ، وكتاب (**رياض الصالحين**) للنووى ، والأحاديث التى تتضمن الترغيب والتحبيب فى الخير والطاعة ، والترهيب والتخويف من الشر والمعصية ، مثل (**الترغيب والترهيب**) للحافظ المنذرى أو الأحاديث المتعلقة بالأحكام الفقهية مثل (**عمدة الأحكام**) للحافظ المقدسى ، ويشمل أحاديث الصحيحين فقط ، و(**الإلمام**) للإمام ابن دقيق العيد ، و(**منتقى الأخبار من أحاديث سيد الأخيار**) للمجد بن تيمية ، و (بلوغ المرام من أدلة الأحكام) للحافظ ابن حجر .

وإلى جانب هذه الأنواع من الكتب توجد **كتب الشروح** ، وهى كتب جد نافعة ولا يستغنى عنها داعية ، ففيها من الفوائد الحديثية ، والفقهية والأصولية ، واللغوية، والأدبية، والتاريخية، والأخلاقية، مايزهد فيه ذو عقل فهى مفاتيح لمن أراد أن يفتح مغاليق ماأشكل من الأحاديث، أو بدا تعارضه فى الظاهر ، وهى مصابيح تنير الطريق لمن يريد معرفة ماتضمنته الأحاديث من أحكام، وآداب، وتشريع، وتوجيه . ولا يسع عالماً أن يعرض عن هذه الثروة ويبدأ وحده من جديد ، فهذا مناف لمنطق العلم ، ومنطق العقل ، ومنطق التاريخ .

من هذه الكتب :

(أ) **شروح البخارى** : مثل عمدة القارىء للعينى ، وإرشاد السارى للقسطلانى ، وفتح البارى لابن حجر ، وهو الذى قال فيه الشوكانى : (لاهجرة بعد الفتح) !

(ب) **شروح مسلم** : وأبرزها شرح النووى ، وشرح الأبىّ والسنوسى.

(ج) **شروح أبى داود** : مثل : (معالم السنن) للخطابى ، و(بذل المجهود) للسهار نفورى ، و(المنهل العذب المورود) لمحمود خطاب السبكى ولكنه لم يكتمل .

(د) **شروح الترمذى** : مثل : (عارضة الأحوذى) لابن العربى ، (تحفة الأحوذى) للمبار كفورى .

(هـ) **شروح النسائى** : أعنى تعليقات السيوطى والسندى على السنن الصغرى .

(و) **شروح الموطأ** : مثل : (المنتقى) لأبى الوليد الباجى ، و(تنوير الحوالك) للسيوطى و (المسوى) للدهلوى ، (أوجز المسالك) لمحمد زكريا الكاندهلوى .

(ز) **شرح المسند فى (الفتح الربانى)** لأحمد عبد الرحمن البنا ،ويتضمن ترتيب وشرح وتخريج المسند ، وكذلك تعليقات أحمد محمد شاكر على الأجزاء التى صدرت من المسند بتحقيقه .

(ح) **شرح (مشكاة المصابيح)** المسمى (مرقاة المفاتيح) للعلامة على القارى فى خمسة مجلدات و (مراعاة المفاتيح) للمباركفورى .

(ط) **شرح (الجامع الصغير)** للعلامة المناوى فى كتابه (فيض القدير) فى ستة مجلدات وقد اختصره فى شرح مختصر سماه (التيسير) . وقد طبع فى مجلدين ، (السراج المنير) للعزيزى ، وقد طبع فى ثلاثة مجلدات.

(ى) **شرح (رياض الصالحين)** وهو المسمى (دليل الفالحين) فى أربعة مجلدات .

(ك) **شروح الأربعين النووية** و (الخمسين الرجبية) وأعظم شروحها بلاشك هو شرح ابن رجب الذى سماه (جامع العلوم والحكم فى شرح خمسين حديثاً من جوامع الكلم) .

(ل) **شروح أحاديث الأحكام** : مثل : (الإحكام - شرح عمدة الأحكام) لابن دقيق العيد ، وعليه حاشية الصنعانى المساة (العدة) . .ومثل (نيل الأوطار) - شرح منتقى الأخبار للعلامة الشوكانى ، و(سبل السلام شرح بلوغ المرام (للصنعانى) .

كما ينبغي الاهتمام بكتب (الغريب) وهى التى تعنى بشرح المفردات والجمل الغريبة فى الحديث ، مثل (غريب الأحاديث) لأبى عبيد، (الفائق فى غريب الحديث للزمخشرى)(والنهاية) فى غريب الحديث، (والأثر)لابن الأثير،وهو موسوعة جليلة ، ومشارف الأنوار للقاضى عياض) ٠انتهى٠

ومما يجب الالتفات إليه أن يعرف الداعية الخطيب أن هناك حملات تشكيك يشنها خصوم الإسلام من المبشرين والمستشرقين والملحدين، على حديث الرسول والسنة المطهرة ٠ ووصل الأمر إلى حد تأثر بعض المسلمين بهذه الحملات، حتى رأينا منهم من يطعن فى كرام الصحابة، ومن يشكك فى دواوين السنة الأصلية ، حتى صحيح البخارى ومسلم ، ولذا فإن عليه أن يكون واعياً لهذه الحملات ، قادراً ومستعدا للدفاع عن سنة النبى ﴿ﷺ﴾ ويمكنه الاستعانة ببعض الكتب التى ألفت للرد على هذه الحملة الاستشراقية التبشيرية ويكشف زيفها مثل :

١- الحديث والمحدثون الدكتور محمد أبو زهو ٠
٢- السنة ومكانتها فى التشريع الدكتور مصطفى السباعى٠
٣- السنة قبل التدوين الدكتور عجاج الخطيب ٠
٤- الدفاع عن السنة الدكتور محمد أبو شهبه ٠
٥- الدفاع عن أبى هريرة الدكتور عجاج الخطيب ٠

ثالثاً : كتب السيرة النبوية :

السيرة النبوية هى الجزء العملى من السنة المطهرة ، وهى التى تتعلق بسيرة النبى وتسجيل موقفه فى كل أمور الحياة ، وهديه فى كافة شئون الدين والدنيا ، فحياة الرسول ﴿ﷺ﴾ كلها كانت تدريباً وتعليما وإرشاداً للمسلمين ٠ وفى هذه الحياة العملية نستطيع أن نقول : إن الإسلام كان مجسماً فى شخص رسول الله ﴿ ﷺ ﴾ ٠ ولعل قول عائشة رضى الله عنها عن رسول

الله ﴿ ﷺ ﴾ حين سئلت عن خُلقه، يوضح ذلك تماماً ويبين لمن يستمع إلى هذا القول أن النبى ﴿ﷺ﴾ كان قرآنا يسعى على قدميه ، أو أن القرآن كان إنسانا يسير على قدمين . قالت عائشة حين سئلت عن خلقه ﴿ﷺ﴾ : (كان خلقه القرآن) . أى أنه ﴿ﷺ ﴾ كان نموذجاً حياً للفضائل والأخلاق التي دعا إليها القرآن الكريم .

وهكذا وجب على الداعية الخطيب، أن يعرف كيف أن معرفته لسيرة النبى هامة إلى أبعد حد ، وهى من أساسيات مصادر وعظه وخطبه ودروسه ومحاضراته .

وللسيرة مصادر شتى غير كتب السيرة المعروفة، مثل(**سيرة ابن هشام**)أو (**السيرة الحلبية**) أو (**الروض الأنف**) وهى شرح لسيرة ابن هشام و(**إمتاع الأسماع**) للمقريزى .

فالخطيب الداعية يستطيع أن يجد السيرة النبوية فى مصادر أخرى كثيرة : -

١- يجدها فى القرآن الكريم وتفاسيره، وبخاصة المأثور منها .

٢- ويجدها أيضاً فى كتب الحديث، حيث أنها تتضمن إلى جانب أقواله، أفعاله، وتقريراته، وأوصافه الخلقية، والخلقية، وفيها أيضاً مراحل جهاده وغزواته . . إلخ .

٣- يجد السيرة أيضاً فى كتب الشمائل والهدى النبوى . مثل: (**الشمائل المحمدية**) للترمذى ، و(**زاد المعاد فى هدى خير العباد**) لابن القيم - وهذا الكتاب الأخير من الكتب المهمة جداً . وتوجد منه طبعة حديثة محققة تحقيقاً علمياً جيداً، هذا بالإضافة إلى كتب دلائل النبوة ، وكتب التاريخ العام . كتاريخ الطبرى ، وابن كثير ، وابن الأثير ، وغيرهم.

رابعا: كتب الفقه :

لاأعتقد أن داعية مسلماً يستطيع أن يستغنى عن كتب الفقه، وعن معرفة قدر مناسب من الثقافة الفقهية .

والخطيب الدينى ، بل كل داعية مسلم، معرض لسؤال الناس ليجيبهم عن الحلال والحرام، وشئون العبادة والأسرة ، وغير ذلك مما يكثر السؤال عنه، ويلجأ الناس عادة إلى من يتصدر للخطابة الدينية ، أو لإمامة الناس يلتمسون منهم الفتوى فى ذلك ، ولذا فإنه فى حاجة ماسة إلى معرفة قدر مناسب من الثقافة الفقهية - كما قلنا - وفى حاجة أيضاً إلى بعض الكتب التى تُعينه على ذلك.والتى يستطيع أن يستصدر حكمها، إن لم يكن يعرفه، حين يراجع ذلك فى مصادره الموثقة ، وإلا فسيضعف موقفه أمام الجمهور وتأثيره فيهم، إن سكت عن الإجابة على أسئلتهم، أو تهرب منها، أو أفتى بغير علم .

وكتب الفقه كثيرة ومتعددة ، وعليه أن يقتنى كتباً متنوعة المذاهب ، ولا يعتمد على كتاب فقه يلتزم مذهباً واحداً ، بل إنه إذا كان يلتزم بمذهب من المذاهب الفقهية، فعليه أن يترك هذا المذهب فى بعض المسائل التى يشعر بضعف أدلتها، ويفتى برأى المذهب الذى يرى فيه أن دليله أقوى من دليل مذهبه ، وهذا يجعله يتعرف على المذاهب الأخرى، وبخاصة التى يتبعها بعض من يدعوهم أو يخطب فيهم . فقد يعيّن خطيب مسجد فى بيئة حنبلية، أو شافعية، وهو مالكى ، أو يُعيّن فى بيئة مالكية، أو حنفية، وهو شافعى ، أو العكس ، فإنه حين يعيش مع مذهبه فقط، ولا يحاول الإلمام بما يتميز به مذهب البلد الذى يقيم فيه عن مذهبه، أنكر عليه الناس مالايجوز أن ينكر ، ولذا فإن على الخطيب الداعية، أن يكون حريصاً كل الحرص على ألا يعارض مايراه من قوم يتبعون مذهباً غير مذهبه، قبل أن يعرف مذهب هؤلاء القوم ومأخذه فى الاستدلال .

فقد يرى إن كان شافعياً فقط لايعرف غير مذهبه ، قد يرى إذا ماحلّ فى بيئة مالكية أهل هذه البيئة لايتطهرون من بول وروث مايؤكل لحمه، فيظن أنهم مخطئون مع أنهم يعتمدون على مذهب يبيح لهم ذلك .

وهكذا قد يرى الحنفى من أهل بلد شافعية أو حنابلة ، رفعهم لأيديهم عند الركوع وعند الاعتدال منه ، أو يقرأون الفاتحة خلف الإمام ، أو يرفعون أصواتهم بالتأمين ، فيبادر بإنكار ماعليه القوم ، وهو لايعلم أن هذا الذى يصنعونه إنما أخذوه من مذهبهم الذى يتعبدون على أساسه .

لهذا كله :كان على الداعية أن يقرأ على الأقل كتاباً فى الفقه المقارن، مثل : (بداية المجتهد ونهاية المقتصد) لابن رشد .

أما الكتب التى يمكن أن يقتنيها فبعضها كتب قديمة ، وبعضها كتب حديثة، فمن الكتب القديمة التى يمكنه الانتفاع بها : -

١- كتاب (**المغنى**) لابن قدامة الحنبلى .

٢- (**المجموع**) للنووى الشافعى .

٣- (**الاستذكار**) لابن عبد الله المالكى .

٤- (**المحلى**) لابن حزم الظاهرى .

هذا بالإضافة إلى ضرورة انتفاعه بكتب فقه الحديث، مثل (**الإحكام**) لابن دقيق العيد ، (**نيل الأوطار**) للشوكانى و (**سبل السلام**) للصنعانى و(**الروضة الندية**) لصديق حسن خان .

ومن الكتب الحديثة (**الفقه على المذاهب الأربعة**) والذى قامت بعمله لجنة من علماء الأزهر لحساب وزارة الأوقاف ، ولعل أفضل الكتب وأيسرها والتى يمكن الاستفادة منها أكثر دون عناء كبير ، هو كتاب (**فقه السنة**) للشيخ سيد سابق .

ولعل مما يجب التنبيه إليه، ضرورة التزام الداعية بالسنة الصحيحة الصريحة، والتى يجب ألا يدعها لأنه مقيد بمذهب معين ، فبعض المذاهب مثلاً

يرى ضرورة جلوس من يدخل المسجد والإمام يخطب ، ولذا نرى بعض خطباء المساجد يلتزمون هذا الرأى، فيأمرون الداخل إلى المسجد بالجلوس إذا أراد أن يصلى ركعتين تحية المسجد ، مع أنه جاء بالحديث الصحيح الذى رواه مسلم فى صحيحه مايفيد جواز الصلاة والإمام يخطب (١) .

وعلى الداعية خطيب المسجد أن يحاول الإلمام بعلم أصول الفقه حتى يعرف الأدلة المتفق عليها بين فقهاء الأمة، وهى الكتاب والسنة ، وبقية مصادر التشريع الأخرى المتفق عليها والمختلف عليها .

ولاداعى أن يقرأ المطولات فى مثل هذه العلوم، فهذا للمتخصص تخصصاً دقيقاً ، ولكن حسبه أن يقرأ مايعطيه فكرة ملائمة ، وسيجد ذلك فى مثل :

١- (جنة الناظر) لابن قدامة .

٢- (إرشاد الفحول) للشوكانى .

٣- (أصول الفقه) للخضرى .

٤- (علم أصول الفقه) للشيخ عبد الوهاب خلاف .

والكتابان الأخيران من الكتب الحديثة، والكتاب الآخر منهما كتاب جيد، سهل الأسلوب واضح الفكرة.

خامساً : كتب العقيدة والثقافة الإسلامية :

الذى ينبغى أن يعرفه الداعية أنه مطالب بأن يعيش عصره ، وأن يكون واسع الفكر والثقافة ، وألا يكون مجرد حافظ للكتب، ناقل لألفاظها وماتحويه من جمل وأساليب، دون أن يحاول هو بلباقته وذكائه، أن يستنبط

---

(١) (عن ابن جابر بن عبد الله رضى الله عنهما قال : جاء سُليك الغطفانى يوم الجمعة ورسول الله ﴿ﷺ﴾ قاعد على المنبر فقعد سليك قبل أن يصلى ، فقال له النبى ﴿ﷺ﴾ : (أركعت ركعتين قال : لا. قال : (قم فاركعهما) الحديث رقم ٤١٨ من مختصر صحيح مسلم للمنذرى.

ويستخرج مايحتاج إليه المستمع ، ومايؤثر فيه ، مع تركيزه على الحجج والبراهين ، ليصدّق الناس كلامه، وينتفعوا بما يلقيه عليهم،وما يدعوهم إليه ، ولا يكفيه أبداً أن يقتنى الكتب التى عرضنا لبعضها - ولا حتى عشرات الآلاف من المجلدات دون محاولة الاستفادة منها ، كما لاتكفيه أيضاً الكتب القديمة والمراجع الكثيرة، التى ألمحنا إلى بعضها، فى التفسير، والحديث، والسيرة، والفقه، بل عليه أن يدرس النظام الإسلامى، وفلسفة الإسلام دراسة واعية ، وأن يهضم ذلك هضما ، فدراسة العلوم الإسلامية من التفسير، والحديث، والفقه، والتوحيد، ونحوها، لاتعطى نظرة عامة للإسلام كله ، وإنما تعطى نظرات متفرقة لجوانب منه كل على حدة دون إحكام الربط بينها .

ودراسة النظام الإسلامى، أو فلسفة الإسلام، نعنى بها دراسة الإسلام خالصاً غير مشوه ، باعتباره نظاماً كاملا للحياة (كل الحياة) الفردية، والاجتماعية والمادية والمعنوية .

ويستطيع الداعية أن يستفيد من كتابات المعاصرين من رجال الفكر الإسلامى على مستوى العالم كله ، وذلك فى المجالات الأساسية للنظام الإسلامى ، وسيجد كثيراً من الكتب التى تنتشر والحمد لله فى مكتباتنا الإسلامية ، والتى سيجدها قد أُلفت فى جميع المجالات، كمجال الأخلاق، ومجال العبادة والشعائر ، ومجال التشريع، والنظام الاجتماعى ، ومجال العقيدة والأسس الفكرية، لأمثال أبى الأعلى المودودى ، وسيد قطب ، ومحمد الغزالى ، ونديم الجسر ، وأبى الحسن الندوى ، ومصطفى السباعى ، ومحمد المبارك ، والبهى الخولى ، وعبد القادر عودة ، ووحيد الدين خان ، ويوسف القرضاوى ، وعبد الكريم زيدان ، وسعيد حوى ، وعباس العقاد، وغيرهم من رجالات الفكر الإسلامى الذين تمتلىء بكتبهم مكتبات البلاد الإسلامية والعربية على السواء .

وأعتقد أن من يرغب فى اقتناء كتب النظام الإسلامى،يستطيع أن يحصل

على مئات من هذه الكتب لهؤلاء الذين ذكرناهم من العلماء والمفكرين وغيرهم ممن تضيق صفحات الكتاب عن حصرهم .

وبهذا الكلام نكون قد انتهينا من عرض ركنين فقط من أركان الخطابة الثلاثة (الخطبة ــ الخطيب ــ المستمعون) .

وقد أرجأنا الكلام عن الركن الثالث (المستمعون) علي أمل إضافته فى طبعة تالية إن شاء الله ، أو إخراجه فى كتاب آخر مستقل .

وأسأل الله دائما وأبدا أن يوفقنى لخدمة الإسلام ، وأن يجعلنى من خدام كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه ومن سبقه من الأنبياء والمرسلين .

فهرست الموضوعات

مراجع الكتاب

(أ)

١- القرآن الكريم.

٢- الأزهر تاريخه وتطوره : مطبوعات وزارة الأوقاف وشئون الأزهر سنة ١٩٦٤.

٣- الإدارة العربية: س. أ. ق حسينى ترجمة إبراهيم العدوى مطبوعات الألف كتاب.

٤- أصول الخطابة : للشيخ محمد أبى زهرة.

٥- الإدارة الإسلامية : محمد كرد على.

٦- الأحكام السلطانية : الماوردى.

٧- الاستشراق والتبشير : محمد عزت الطهطاوى

٨- الأغانى الأصفهانى

٩- الآداب الشرعية

١٠- إحياء علوم الدين الغزالى

١١- الأمالى أبى على القالى

١٢- الإنصاف الدهلوى

(ب)

١٣- البيان والتبين للجاحظ

١٤- بحث فى (أهداف الرسالة الإسلامية وبيان دور الأزهر فى نشرها) المرحوم الشيخ كامل محمد حسين- المؤتمر الخامس- مجمع البحوث الإسلامية.

١٥- بحث فى (وظيفة المسجد المعاصر) الشيخ عبد الله المشد- مطبوعات مجمع البحوث- المؤتمر الخامس.

١٦- بحث فى (الدعوة والمجتمع) الدكتور : عبد العزيز كامل- مطبوعات مجمع البحوث- المؤتمر الخامس.

(ت)

١٧- تاريخ الدعوة الإسلامية — د/ جمعه الخولى
١٨- تاريخ بغداد — الخطيب البغدادى
١٩- تاريخ الطبرى — ابن جرير الطبرى
٢٠- تفسير الألوسى — للعلامة الألوسى
٢١- تفسير ابن كثير — للحافظ ابن كثير
٢٢- تفسير سورة النور — أبو الأعلى المودودى
٢٣- تلخيص الخطابة — ابن رشد- تحقيق د/ عبد الرحمن بدوى
٢٤- تاريخ الإمام — محمد رشيد رضا
٢٥- تذكرة الدعاة — البهى الخولى
٢٦- الترغيب والترهيب — للمنذرى
٢٧- التبشير والاستعمار — للدكتور عمر فروخ ، مصطفى خالدى
٢٨- التشريع الجنائى فى الإسلام — د/ عبد القادر عوده
٢٩- التفسير والمفسرون — د/ محمد حسين الذهبى
٣٠- التأثير فى الجماهير عن طريق الخطابة (ديل كارنيجى) ترجمة رمزى يسى.
٣١- التوعية الاجتماعية أنور أحمد (مطبوعات إدارة المعلومات والملاقات بوزارة الشئون الاجتماعية).

(ث)

٣٢- ثقافة الداعية — د/ يوسف القرضاوى

(ج)

٣٣- جمهرة خطب العرب

٣٤- الجامع الصغير للسيوطى

٣٥- جريدة النور الأسبوعية المصرية بتاريخ ١٩٨٢/٦/٢٢

(ح)

٣٦- حلية الأولياء لأبى نعيم الأصفهانى

(خ)

٣٧- الخطابة لأرسطو

٣٨- الخطابة الشيخ على محفوظ

٣٩- الخطابة السياسية فى عصر بنى أمية الدكتور/ إحسان النص

(د)

٤٠- الدعوة الإسلامية أصولها ووسائلها د/ أحمد غلوش

٤١- الدعوة الإسلامية بين التنظيم الحكومى والتشريع الدينى.
د/ عبد الغفار عزيز.

٤٢- دليل الفالحين لطرق رياض الصالحين: الصديقى الشافعى

٤٣ ـ دراسات فى الاختلافات الفقهية د / محمد أبو الفتح البيانونى

٤٤- الدر المنثور للسيوطى

(ر)

٤٥- رياض الصالحين للإمام النووى

٤٦- الرأى العام والدعاية د/ حسنين عبد القادر

(ز)

٤٧- زاد المعاد		ابن قيم الجوزيه

(س)

٤٨- سرح العيون

٤٩ ـ سنن النسائى

٥٠ ـ سنن أبى داوود

٥١- سيرة النبى	لابن هشام.تحقيق المرحوم محمد محيى الدين عبد الحميد (أربعة أجزاء)

٥٢- السيرة النبوية	لابن هشام تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الإبيارى، عبد الحفيظ شلبى الطبعة الثانية ١٩٥٥- مصطفى البابى الحلبى (مجلدان).

٥٣- سير أعلام النبلاء	الذهبى

(ص)

٥٤- صبح الأعشى فى صناعة الإنشا	القلقشندى

٥٥- صحيح البخارى

٥٦- صحيح مسلم	بشرح النووى

٥٧- صحيح البخارى مع فتح البارى	ابن حجر

(ع)

٥٨- علم الخطابة	د/ أحمد غلوش

٥٩- عيون الأخبار	ابن قتيبة

(ف)

٦٠- فن الخطابة وتطوره عند العرب ايليا حاوى - دار الثقافة بيروت

٦١- فتح القدير الشوكانى

٦٢- فجر الإسلام أحمد أمين

٦٣- فن الخطابة د/ أحمد الحوفى

٦٤- فتوح البلدان البلاذرى

٦٥- الفقيه والمتفقه الخطيب البغدادى

٦٦- الفكر الإسلامى الحديث وصلته بالاستعمار الغربى د/ محمد البهى

٦٧- الفتح الربانى لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل مع مختصر شرحه بلوغ الأمانى. أحمد عبد الرحمن البنا.

(ق)

٦٨- قواعد الخطابة وفقه الجمعة والعيدين د/ أحمد غلوش

٦٩- القانون رقم ١٠٣ سنة ١٩٦٠ بشأن إعادة تنظيم الأزهر والهيئات التى يشملها

(ك)

٧٠- كتاب الكبائر الإمام شمس الدين أبو عبد الله الذهبى الناشر مكتبة الرياض الحديثة ١٣٩٢ هـ ١٩٧١م.

٧١- كيف ندعو الناس عبد البديع صقر

(ل)

٧٢- لمحات من الثقافة الإسلامية عمر عودة الخطيب

(م)

٧٣- مرقاة المفاتيح - شرح مشكاة المصابيح

٧٤- معالم الثقافة الإسلامية وأصول النظام الإسلامى د/ عبد الغفار عزيز
٧٥- مفتاح دار السعادة ومنشور الولاية فى العلم والإدارة. ابن قيم الجوزية
طبعة إدارة البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد- الرياض (السعودية).
٧٦- المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى

(و)

٧٧- وفيات الأعيان ابن خلكان

رقم الايداع ١٩٩١/٩٨٢١
الترقيم الدولى ٤-٥٥-٥٢٥٣-٩٧٧